
١٠ قروش
كتابي
حلمي مراد
الجارية!
لوحة عالمية للرسام "رنوار"



العرافة الغجرية ! لوحة فوتوغرافية من باليه « حياة الفجر » كما رقصته الفرقة الرومانية الشعبية بدار الأوبرا بالقاهرة فى الشهر الماضى ..
وقد التقطتها عدسة الأميرالاى الدكتور ناجى يسى



حواء تستغفر ، بعد سقطتها ! احدى اللوحات الخالدة التى رسمها « ميكيل انجلو » على جدران كنيسة « سيستين » بالفاتيكان (اقرأ قصة حياة الفنان الأعظم فى هذا العدد)

كتابي

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية
يصدر أول كل شهر
صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب الخامس والأربعون (السنة الرابعة) : ديسمبر ١٩٥٥
الاشتراكات ومجموعة الاعداد السابقة : اقرأ التفصيلات بالداخل

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

ردود .. لاتنقصها الصراحة !

عزيزى القــارىء ..

◆ لم أكد أطالعك فى افتتاحية العدد الماضى بتفصيلات المشروع الجـديد الضخم الذى أعددته من أجلك ، والذى اخذت فيه على عاتقى - منفردا - «عبء» نشر الترجمة « الكاملة » الأمينة لشوامخ الكتب العالمية ، لأول مرة فى عالم المطبوعات العربية « الشهرية » - (بل لأول مرة « على وجه الاطلاق » بالنسبة للأكثرية الساحقة من تلك الكتب العالمية التى انقضت على اصدارها قرون ، ترجمت خلالها الى جميع لغات العالم الحية ، ما عدا لغتنا العربية التى لم تحظ حتى الآن بأية ترجمة لها) .. اقول اننى لم أكد انشر عليك تفصيلات هذا المشروع الجديد ، ثم لم يكد يظهر الكتاب الأول من سلسلة هذه المطبوعات فى صورتها الشهرية الجديدة ، منذ اسبوعين ، حتى تلقيت سيلا من الرسائل المتضـمنة لبعض امانيك ومطالبك بشأن هذا المشروع الوليد ..

القائمــة تتضخم !

◆ وقبل ان استعرض ما يتسع له المقام من هذه الرسائل الكريمة ، لأجيب عما ورد بها من مطالب واقتراحات ، يسرنى أن أضيف الى قائمة حضرات الأدباء الأكفاء الذين رحبوا بالتعاون معى على تأدية هذه الرسالة الثقافية التى « ورطت نفسى » فى أخذ مسئوليتها الكاملة على عاتقى ، السادة :

الدكتور طه حسين	الدكتور أمير بقطر
الدكتور حسين مؤنس	الدكتور سعيد عبده
الأستاذ احمد حسن الزيات	الأستاذ عبد المنعم محمد الزيادى

.. وذلك الى جانب حضرات الذين اعلنت اسماءهم فى العدد الماضى ، وهم :

الدكتور محمد مندور	الدكتورة سهير القلماوى
الأستاذ فرج جبران	الأستاذ محمد بدر الدين خليل
الدكتور لويس عوض	الأستاذ كليم ابو سيف

وكاتب هذه السطور ..

الكتاب القادم

◆ وبهذه المناسبة ، يسرنى أن أقدم لك فى العدد المقبل من سلسلة «مطبوعات كتابى » الجديدة - الذى يصدر بعون الله فى ١٣ ديسمبر الحالى - تحفة نادرة المثال ، اعتقد أنها ينبغى أن تأخذ مكانها بجدارة فى مكتبة كل بيت ، هى النص الكامل لمآسى « اوديب » الثلاث المشهورة :

١ ـ أوديب ملكا : } لعميد الأدب اليونانى
٢ ـ أوديب فى (كولونا) : } القديم « سوفوكليس »

٣ ـ أوديب : للكاتب الفرنسى الكبير اندريه جيد (وهي المأساة الحديثة ، نسبيا ، التى عالج فيها « جيد » القصة ذاتها ، ولكن من زاويته الخاصة المختلفة ٠٠ وبتفكيره الخاص ٠٠ وأسلوبه الخاص)

وقد ترجم القصص الثلاث ، بقلمه الساحر ، وصدرها بمقدمة طويلة ممتعة حقا : الدكتور طه حسين ٠٠ وكفى !٠٠ وهكذا تتيح لك « مطبوعات كتابى » أن تقرأ هذه الدرر الثلاث ، فى كتاب واحد ، وبثمن زهيد لا يصل الى ربع أو خمس الثمن الذى يدفعه قارئ الانجليزية أو الفرنسية كى يقرأ قصة واحدة من هذه القصص الثلاث !

تنبيه مشكور ٠٠ ولكن !

◆ وقد نبهتنى احدى الرسائل التى تلقيتها ، بصدد هذه المطبوعات ، الى ان « بعض » الكتب العالمية التى نشرت قائمة بأسمائها فى العدد الماضى ، والتى شرعت فى اعدادها للنشر بنصها الكامل فى مطبوعات كتابى ، قد سبق أن نشرت ترجمة لها فى طبعات بعض دور النشر الزميلة فى بيروت أو دمشق !

ورغم ان الكتب التى ينطبق عليها هذا القول انما هى نسبة ضئيلة بالقياس الى القائمة التى اعددتها للمشروع الجديد ـ فضلا عن انى لم أكن أعلم بصدور ترجمات لها فى بعض الأقطار الشقيقة ـ الا انى أشكر لصاحب هذه الرسالة تنبيهه المشكور ، وردى عليه بسيط وواضح : وهو انى أرحب بطبيعة الحال بتجنب تبديد الجهود لغير حكمة أو مسوغ ، ولعل هـذا ما دفعنى الى المسلك الصريح الذى التزمته حين أعلنت فى العدد المـاضى ـ وفى اعلاناتى بمختلف الصحف اليومية الكبرى ـ القائمة الأولى لأسماء الكتب التى اعددتها للنشر ٠٠ ولاشك اننى أكون شاكرا ممتنا لتلك الدور الناشرة لو تكرمت فأرسلت الى ـ أو أعلنت فى مطبوعاتها ـ قائمة بأسماء كتبها السابقة واللاحقة ، كى أتجنب جهد الطاقة عناء اعادة ترجمتها عند اعداد قوائمى التالية ٠٠

اسراف فى الصراحة !

◆ وثمة رسالة من قارىء آخر ، يسألنى فيها : لماذا أعلنت اننى ساصدر بعض الكتب فى جزأين ، ولم لا أطبعها كلها بالحروف الصغيرة حتى يتسع لها الجزء الواحد ؟!

وردى على التساؤل ، تساؤل آخر «مضـاد» ، هو : لو سلمت ـ جدلا ـ بأن أغلبية القراء تستسيغ أن يكون الكتاب كله بالحروف الصغيرة ، فما قولك فى الكتب التى يصل عدد

صفحاتها فى الأصل الافرنجى الى الخمسمائة صـــفحة ، أو السبعمائة ، أو الألف ؟٠٠ هل يمكن أن يتسع لها جزء «واحد»، حتى لو جمعت كلها بحروف « أصغر » من الصغيرة ، بل حتى لو زيدت صفحات هذا الجزء الواحد الى الثلاثمائة صفحة مثلا ، وزيد ثمنه تبعا لذلك الى خمسة عشر قرشا ؟!

اما القارىء الآخر الذى يقترح فى هذا الصدد أن تزاد صفحات الجزء الواحد، الى أى مدى تستلزمه الترجمة الكاملة ، ويزاد ثمنه تبعا لذلك ، مهما بلغ !٠٠ فانى ردا عليه أقول ، وأكرر القول ، ان هدفى من مشروعى هذا هو أن أتيح فرصة قراءة شوامخ الكتب العالمية ، للقارىء الـذى لا يستطيع ـ أو قد لايريد ـ أن يدفع فى كتاب ما ـ أيا كان ! ـ عشرين أو ثلاثين قرشا ، فـكم بالأحرى لو طلب اليه أن يدفع هذا « المبلغ » دفعة واحدة ؟٠٠ وهذا الاستطراد يقودنى فى الواقع الى تقرير حقيقة مؤلمة ، لايجدى فى انكارها أن نتجاهلها أو نخفيها عن طريق اخفاء رؤوسنا فى الرمال ، كالنعام !٠٠ وهذه الحقيقة ، بل هذه المأساة التى يقاسى منها جميع الناشرين فى مصر ـ ولا أقول فى لبنان ، أو فى سوريا أو العراق ، حيث تجد قراء يدفعون فى الكتاب الواحد ، عن طيب خاطر، ما يساوى جنيها مصريا ، ويشعرون مع ذلك أنهم الرابحون ، المعتزون بالكتاب الذى يقتنونه ليغذوا به عقولهم وعقول أولادهم وأحفادهم من بعدهم ٠٠

أقول ان المأساة التى يقاسى منها الناشرون ، فى مصر بالذات ـ مع الأسف الشديد ـ هى أن القارىء قد يدفع ، ثمنا لعلبة السجاير التى يدخنهـــا ، عشرة قروش « كل يوم » ، دون غضاضة أو ضيق !٠٠ أما أن تطالبه بأن يدفع عشرة قروش « كل شهر » ثمنا لـكتاب ثمين لن يتبدد بعد قراءته دخانا فى الهواء ، وانما سيبقى فى مكتبة البيت تراثا وزادا عقليـا لجميع أفراد الأسرة ، جيلا بعد جيل ، يطالعونه ويرجعون اليه فى كل مناسبة ٠٠ فذلك سفه وتبذير « حرام » ، وأى حرام !

هذه كلمة سواء ، ربما لم يجرؤ على كتابتها ـ علانية ! ـ كاتب من قبل ، سواء بدافع النفاق ، أو الغرور !٠٠ لكننى أقولها وأكتبها ، فى حديثى هـــذا اليك ، ربمـا لأنى عودتك أن أكون صريحا معك الى أقصى الحدود ـ فيما لك وما عليك ـ وربما لأقنع الصديق « الحالم » صاحب اقتراح اصدار الكتاب الكامل فى جزء « واحد » ضخم ، ولو فى خمسمائة صفحة أو أكثر ، ولو بثلاثين قرشا أو أكثر !

ترى هل يقتنع بعد هذا بأنى محق فيما أضطر اليه أحيانا من تجزئة الكتاب

الطويل الى جزاين ، كى ايسر على الكثيرين وسيلة مطالعة الكتب القيمة التى أحلم لهم بأن يطالعوها ، و « اورطهم » فى هذه المطالعة ، ولو بسلاح التجزئة الى جزأين ؟! (والغاية تبرر الواسطة ٠٠ وان كانت الغاية هنا نبيلة ، والواسطة مشروعة !)

وأخيرا ، فما كان أغنانى عن كل هذا العناء لو سلكت الطريق السهلة التى يسلكها غيرى ، فنبذت « مثالية » الترجمة « الكاملة » ، وقدمت لك بدلا منها ترجمة مبتورة ناقصة ، لاتجاوز حدود الجزء الواحد بأى حال ، ولو مرغ أنف المؤلف المسكين فى الرغام !٠٠ ولو انكمش كتابه الأصلى الذى قد يكون وضعه فى ثلاثة أو أربعة أجزاء ، الى جزء واحد ، بقدرة قادر والعياذ بالله !

٠٠ ماكان أغنانى عن كل هذا العناء ، لو لم أكن أتطلع الى هدف ـ يستحق فى نظرى كل عناء ـ وهو أن يشرق على بلادنا العربية ، يوما ما ، فجر البعث الجديد ٠٠ يوم يصبح لنا «رأى عام » قارىء ، يؤمن بالكتاب ، ويعتز به ، ويقتنيه ٠٠ كما يؤمن اليوم بالصحيفة ، والخبر ، وفتاة الغلاف !

ولك أخلص تحياتى

حلمى مراد

« كتابى » يشترى الاعداد الستة الأولى من القراء !

نظرا لالحاح الكثيرين من القراء فى طلب الاعداد الستة الأولى من « كتابى » ، ولتعذر اعادة طبعها فى الوقت الحاضر ، ولما كان لايبعد أن يكون لدى البعض أكثر من نسخة من الاعداد المذكورة ٠٠ فقد رأت ادارة « كتابى » أن تعلن عن استعدادها لشراء أى عدد من نسخ الاعداد الستة الأولى تمهيدا لتمكين من تنقصه الاعداد المذكورة من اقتنائها بعد ذلك من الادارة ٠ فالرجا الاتصال بالمجلة فى هذا الشأن ، على أن يكون تسليم النسخ اليها حضوريا او بالبريد المسجل ٠

الاشتراك فى « كتابى »

◆ ترسل جميع الاعداد الى المشتركين : بالبريد المسجل ٠ وقيمة الاشتراك فى مصر والسودان : عن سنة (١٢ عددا) : ١٢٠ قرشا ، وعن نصف سنة (٦ أعداد) ٦٥ قرشا ـ فى الخارج (العراق وسوريا ولبنان والاردن الخ ٠٠) ترسل القيمة بشيك أو بحوالة بريدية نقدية Money Order عن طريق مكاتب البريد وتحتسب القيمة بما يوازى ١٣٠ قرشا (عن سنة) و٧٠ قرشا (عن نصف سنة) ٠ وفى الحجاز والكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وأمريكا وفرنسا واستراليا قيمة الاشتراك ١٦٠ قرشا (عن سنة) خالصة أجر البريد ، وفى ألمانيا ١٦٠ قرشا (عن سنة) بخلاف أجر البريد الجوى

كتابى

اعداد نفدت

الكتب الستة الأولى ، والادارة مستعدة لشرائها .

كتابى السابع « **عشيقة نابليون** » ، والثامن « **مذكرات كيوبيد** » ، والتاسع « **صنم تحطم** » ، والعاشر « **حديقة الله** » ، والحادى عشر « **عندما تحقد المرأة** » ، والثانى عشر « **لعبة الحب والموت** » ، والثالث عشر « **توبة خاطئة** » ، والرابع عشر « **أيهـا الربيع ترفق** » ، والخامس عشر « **الشيطان على الأرض** » ، والسادس عشر « **ليدى هاملتون** » ، والسابع عشر « **الارملة المرحة** » ، والثامن عشر « **حياة جورج صاند** » ، والتاسع عشر « **حياة سارة برنار** » ، والعشرون « **رباعيات عمر الخيام** » ، والحادى والعشرون « **حياة بتهوفن** » ، والثانى والعشرون « **حياة موسولينى** » ، والثالث والعشرون « **كوخ العم توم** » ، والرابع والعشرون « **الزوج والعشيق** » ، والخامس والعشرون « **البوهيمية** » ، والسادس والعشرون « **فتاة لها ماض** » ، والسابع والعشرون « **ترويض النمرة** » ، والثامن والعشرون « **فن الحب** » ، والتاسع والعشرون « **الجريمة والعقاب** » ، والثلاثون « **المنائق** » (**طرطوف**) ، والحادى والثلاثون « **أميرة مصر** » ، والثانى والثلاثون « **الامطار** » ، والثالث والثلاثون « **أفروديت** » ، والرابع والثلاثون « **أقنعة الحب السبعة** » ، والخامس والثلاثون « **سالومى** » ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤

◆ **وتطلب** من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة (عمارة الجندول) وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالصا أجرة البريد (المسجل) ماعدا العددين ١٣ ، ١٦ ، وثمن كل منهما ١٢ قرشا ، والعدد العاشر ، والعدد العشرون ، وثمن كل منهما عشرون قرشا .. وابتداء من العدد ٢٥ ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا

◆ **ملاحظة : ترسل القيمة فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على أحد بنوك القاهرة ، ولاتقبل العملة الاجنبية أو أذون البريد الخارجية. وتحرر الأذون والشيكات باسم صاحب المجلة شخصيا**

مطبوعات كتابى

صدر منها حتى الآن :

١ ـ قصة مدينتين — **٢ ـ ذات الثوب الأبيض**

٣ ـ الخـالدون — **٤ ـ الخاطئـة**

٥ ـ حياة امرأة (الجزء الأول) — **٦ ـ حياة امرأة (الجزء الثانى)**

٧ ـ الخطيئة الأولى وفتاة من الأقاليم

وثمن كل من الأول والرابع ، عشرون قرشا خالصا أجرة البريد المسجل (نظرا لوشك نفادهما) ، والثانى ١٢ قرشا ، والثالث ١٠ قروش ، والخامس والسادس ١٠ قروش ، والسابع ١٢ قرشا .



نافذة «كتابي» تطل على العالم:

رأيت وسمعت لك
في أوربا

للمحرر

.. وأشرق على باريس الصباح !

◆ حدثتك فى الفصل السابق عن ثلاث من سهرات باريس الليلية ، مضينا فيها تباعا الى مسرحها العالمى المشهور « الفولى برجير » .. ثم شهدنا أحد استعراضات العراة فى ملهى من ملاهى ميدان « بيجال » الخليعة التى اتخذتها باريس « طعما » يجذب اليها السائحين من جميع أقطار العالم ! .. وأخيرا اصطحبتك معى الى تلك « المقبرة » الكئيبة من مقابر « الوجوديين » التى يطلقون عليها « كهوفا » ، والتى يمارسون فيها صخبهم المجنون ورقصهم وغناءهم ، في جو خانق كريه ، تطل عليهم فيه من جدران الكهف نماذج شاذة لعشرات الجماجم ، والأيدى المقطوعة ، والصور البشعة غير المفهومة .. لعقلى المتواضع على الاقل !

.. ثم أشرق على باريس الصباح ، فسكتت عن اللهو غير المباح .. وسطعت فى سمائها الغائمة شمس الفن الرفيع ، كما تتجلى فى معالمها النهارية الخالدة .. التى نبدأ زياراتنا لها فيما يلى :

العدالة تمهل .. ولا تهمل !

◆ **ولنبدأ** زياراتنا لمعالم أقدم أحياء باريس ، بزيارة ذلك الصرح الشامخ المهيب الذى يتوسطه : قصر العدالة - الذى يؤلف مع سجن « الكونسيرجيرى » وكنيسة « سانت شابيل » مربعا ضخما من المبانى المتشابهة فى طرازها القوطى العريق . وقد ذكرت لك فى العدد الأسبق أن تجديد قصر العدالة قد استغرق أكثر من سبعين عاما (من عام ١٨٤٠ الى ١٩١٤) بحيث لم يكد يبقى فيه حجر على حجر ! واليوم أقص عليك طرفا من تاريخ القصر ، وأصف لك بعض معالمه

كان القصر يوم أنشىء مقرا للملوك والحكام ، فقطنه فى البداية حكام الغال الرومان ، ثم ملوك فرنسا الاولون . وفى القرن الثالث عشر أضيفت اليه أجنحة جديدة كما أنشئت الكنيسة الملحقة به - «سانت شابيل» - وفى القرن التالى أنشئت



« قوس النصر » الذى بدأ تشييده فى عام ١٨٠٦ ، تمجيدا لانتصارات نابليون ، وان لم يتم العمل فيه الا فى عام ١٨٣٦ بعد سقوط الامبراطور . وتزين القوس تماثيل ولوحات بارزة تصور أشهر المعارك التى انتصر فيها نابليون

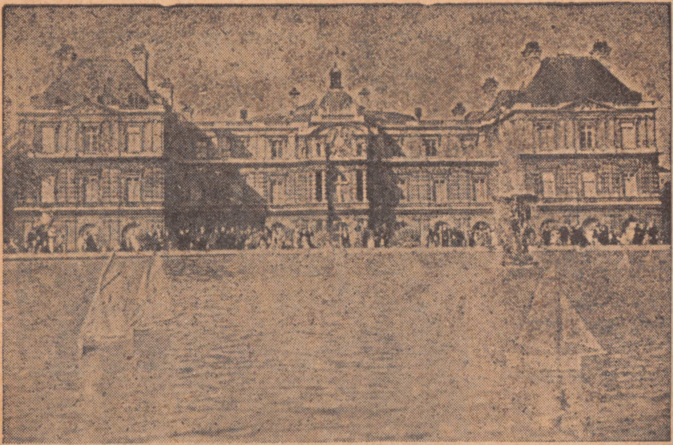
مبانى « الكونسيير جيرى » والقباب الأربع الرائعة المواجهة للسين ، وفى عام ١٣٥٨ **كان يقطن القصر ولى عهد فرنسا « الأمير شارل » - فى فترة اسر أبيه فى انجلترا - فاقتحم مخدعه عميد تجار باريس وقتئذ ، على رأس مظاهرة ، وقتل المتظاهرون مستشارى الأمير أمام عينيه .. بل ووضع عميد التجار قبعته ذات اللونين الأزرق والاحمر على رأس الأمير ، امعانا فى التحدى !** .. ولكن لم تمض أشهر حتى قتل عميد التجار ، واسترد ولى العهد سيطرته على الموقف .. غير أن ذكريات تلك المذبحة التى جرت أمام بصره وسمعه

ما فتئت تقض مضجعه ، فلما نودى به ملكا على فرنسا ـ باسم « شارل الخامس » ـ كان أول ما فعله أن نقل مقره من ذلك القصر الى قصر اللوفر ، واتخذ الأول مقرأ للبرلمان . (وكان لفظ « البرلمان » يومئذ يعنى المحكمة العليا للدولة !)

وكان أعضاء ذلك البرلمان « يعينون » فى ذلك العهد بأمر الملك ، **حتى جاء الملك فرانسوا الاول عام ١٥٢٢ فواجه أزمة مالية أضطرته الى أن « يبيع » حقوقه فى ذلك التعيين الى أعضاء البرلمان فى عهده ، الذين صاروا « يملكون » تلك**

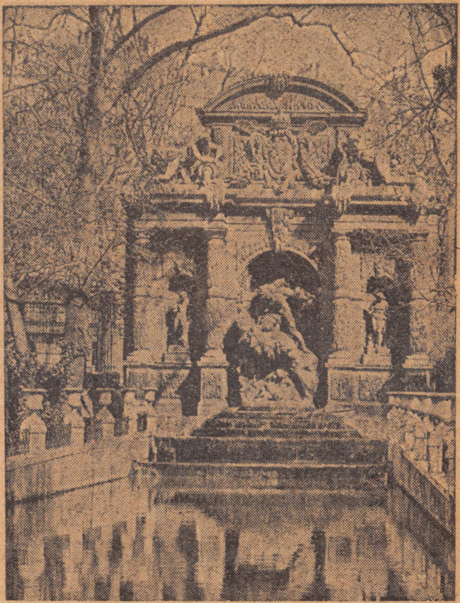


جانب من حدائق « اللوكسمبرج » ، أشهر حدائق باريس ، وهى ملتقى عشاق المطالعة الهادئة ، وبقية «العشاق» !



قصر اللوكسمبرج ، وأمامه البحيرة الجميلة التى تتوسط حدائقه الغناء ذات الطابع الكلاسيكى التاريخى

العضوية ويورثونها لأبنائهم جيلا بعد جيل ! ٠٠ وقد استغل أولئك القضاة - ذوو الثراء والمكانة الرفيعة - حقوقهم هذه لمناوأة العرش ، فصاروا يوجهون اليه الانذارات ، ويعطلون تنفيذ المراسيم - عن طريق امتناعهم عن تسجيلها فى سجلاتهم ! - الأمر الذى صار يضطر الملك فى بعض الأحيان الى نفى بعضهم أو الزج بهم فى السجن ! ٠٠ فلما كان عام ١٧٨٨ (السابق لنشوب الثورة مباشرة) ألغت الجمعية التأسيسية ذلك البرلمان ٠٠ ثم جاءت الثورة فأرسلت بأعضائه الى المقصلة ، وأعادت تنظيم « الدولاب القضائى » للدولة ، جاعلة من ذلك القصر الملكى القديم مقرا لمحاكم باريس العليا بمختلف دوائرها ، وأطلقت



نافورة « مديتشى » بحدائق قصر « اللوكسمبرج » بباريس ، وقد سميت باسم الملكة «مارى دى مديتشى» التى أمرت بتشييد القصر

عليه : « قصر العدالة » ٠٠ ثم جاء مجدد باريس « هوسمان » ــ فى عهد نابليون الثالث ــ فبدأ « ثورة » اصلاح باريس وتجديد شبابها من الناحية المعمارية والسياحية ، وكان قصر العدالة من بين ما امتدت اليه يد الاصلاح ــ سيما بعد أن شب فى بعض أجزائه حريق كبير فى عام ١٧٧٦ ــ وقد استغرق ذلك التجديد أكثر من سبعين عاما كما أسلفنا !

ولن أحدثك هنا بالتفصيل عن روعة أبهاء قصر العدالة ، وقاعاته الهائلة التى تشغلها دوائر محاكم باريس العليا ٠٠ ولا عن المهابة والجلال اللذين توحى بهما هندسته المعمارية

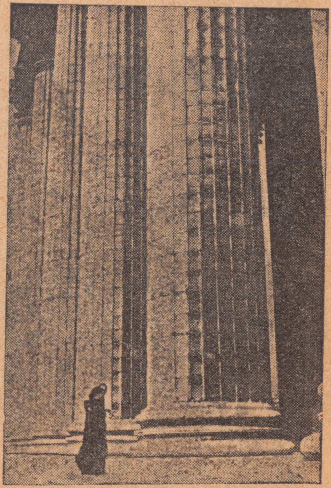
الفريدة ، بل يوحى بها كل ركن من أركانه : قاعاته ، وأعمدته ، وجدرانه ، وأسقفه ، وسلالمه ، وأبوابه ، وأرضياته ـ ولم لا أقول كل حجر فيه ؟! ـ **انما أكتفى من ذلك كله بالاشارة الى شيئين يراهما الداخل الى القصر فى بهوه الرئيسى ، ويلقيان فى روعه شعورا بالثقة والاطمئنان الى أنه انما يطأ « حرما » تأخذ فيه العدالة مجراها ! : أولهما النصب التذكارى الذى أقيم على الجدار المواجه ، تخليدا لذكرى المحامى الشهير « برييه » .. والثانى تمثال قد أقيم الى يمين ذلك النصب ، يمثل « العدالة » وقد وضعت قدمها فوق ظهر سلحفاة ! ـ اشارة الى أن العدالة قد تمهل أحيانا ، ولكنها لا تهمل !**



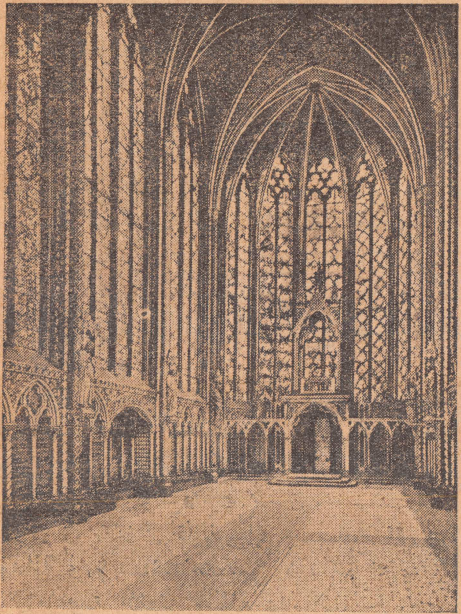
الشارع الذى يؤدى الى كنيسة (المادلين) الفخمة ـ فى اقصى الصورة ـ وتتجلى روعة هندسة المعمار فى المبانى التى تحف به من الجانبين

« سانت شابيل »

◆ **فاذا** خرجنا من قصر العدالة الى فنائه الأمامى ، ألفينا أنفسنا – قبل أن نخرج الى الطريق – بازاء ممر يفضى الى مبنى آخر ، داخل نطاق السور ذاته ، هو كنيسة « سانت شابيل » ٠٠ التحفة الخالدة من تحف الفن القوطى التى تبهر العيون بجدرانها « الزجاجية » الشاهقة الارتفاع ، المنقوشة برسوم ولوحات بيزنطية ملونة غاية فى الدقة والابداع ، يبلغ عددها ١١٣٤ رسما ومشهدا من التوراة والانجيل ، تمثل قصصهما بأكملها ، ويصور كل مشهد عشرات الشخصيات المعروفة فى تلك القصص ! ٠٠ وتقوم القاعة الكبرى للكنيسة على عشرات الأعمدة التى يستند الى كل منها تمثال لرسول من رسل المسيحية ٠٠ وفى القاعة مقصورتان كانتا مخصصتين للملك وأسرته ٠ ورغم انقضاء سبعة قرون على تشييد الكنيسة، فان مبناها لم يصب بأدنى صدع أو شرخ ، الأمر الذى يشهد بدقة هندستها وتوازنها٠ ويبلغ ارتفاع برج الجرس الخاص بها ٧٥ مترا ، وهيكله مصنوع من الخشب ، لكنه مكسو بطبقة من الرصاص ٠ وقد دمره الحريق ثلاث مرات ، وكانت آخر مرة أعيد تشييده



فى هذه الأعمدة الجميلة التى تقوم نموذج رائع لفن المعمار ، يتجلى عليها واجهة كنيسة « المادلين »



الطابق الثانى من كنيسة « سانت شابيل » ، التى تنفرد بين كنائس العالم بجدرانها ذات الألواح الزجاجية الملونة الشاهقة الارتفاع ، البالغة الروعة

فيها عام ١٨٥٤ . وفوق قمة البرج تمثال من الرصاص لملاك يدور على محوره بطريقة آلية تشبه دوران آلة الساعة ، حاملا فى يده صليبا يرى أثناء دورانه من أربعة أركان الأفق

ولانشاء هذه الكنيسة قصة : فان « بودوان » امبراطور القسطنطينية كان قد احتاج الى مبلغ كبير من المال ، فاقترضه من بعض مرابى مدينة فنيسيا (البندقية) ، مقابل رهنه لديهم اكليل الشوك الذى وضعه اليهود على رأس المسيح امعانا فى ايلامه . فلما حل موعد وفاء الامبراطور

بالدين ، عجز عن السداد ٠٠ واذ ذاك تدخل الملك لويس التاسع (١) ، ملك فرنسا ، فعقد تسوية مع الدائنين واسترد أكليل الشوك منهم عام ١٢٣٩ ٠ ثم ظل يجمع كل ما يستطيع الوصول اليه من مخلفات المسيح والعذراء ـ وقد أنفق فى هذا السبيل أموالا طائلة ـ وأخيرا أمر بتشييد هذه الكنيسة ليحتفظ فيها بتلك المخلفات المقدسة ٠ ومن العجيب أن نفقات الحصول على هذه المخلفات بلغت أكثر من ضعفى نفقات انشاء الكنيسة المذكورة التى أنشئت لحفظها !

وقد استغرق انشاء الكنيسة ٣٣ شهرا ـ أقل من ٣ أعوام ـ وهو رقم قياسى فى السرعة ٠ وقد تم البناء فى عام ١٢٤٨ ٠ وأغلب الظن أن واضع تصميمه كان المهندس المدعو « بيير دى مونترو » ٠

وحين نشبت الثورة الفرنسية ، أرسل الصندوق الذى كان يضم تلك المخلفات الى المسبك للانتفاع بمعدنه ، أما محتوياته فقد أنقذ أكثرها من الضياع (وهى محفوظة الآن فى كنيسة « نوتردام »)

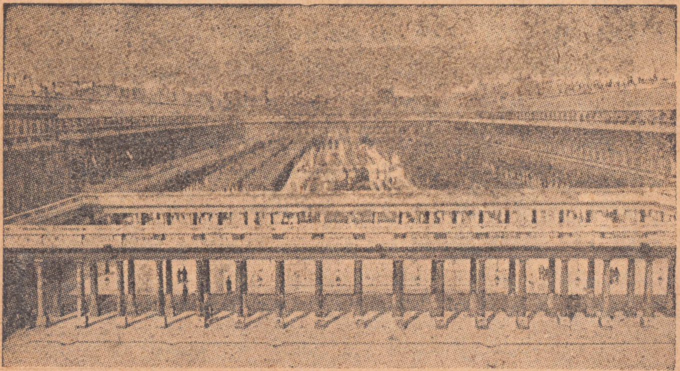
والآن ، تعال ندلف الى خارج السور الذى يحيط بقصر العدالة و « سانت شابيل » ، ثم نتجه الى اليسار فندور حول زاوية القصر المطلة على السين ٠٠ فاذا نحن نجد فى ذلك الضلع من السور بابا يفضى بنا الى :

السجن الذى كتب فيه فصل هام من تاريخ فرنسا !

◆ **وقد** أطلق اسم « الكونسيير جيرى » على هذا المبنى من مبانى القصر الملكى القديم الذى كان تحت تصرف

---

(١) و « لويس التاسع » هذا هو الذى ترك عرشه وجاء من فرنسا فاشتبك مع المصريين فى معركة (المنصورة) ـ عام ١٢٥٠ ـ التى هزم فيها واسر ، ثم اشترى حريته بفدية ضخمة ٠٠ وقد ظل طيلة حياته يخشى الاغتيال ، فبنى لنفسه تجويفا فى حائط كنيسة «سانت شابيل» يسمع منه القداس دون ان يراه احد !



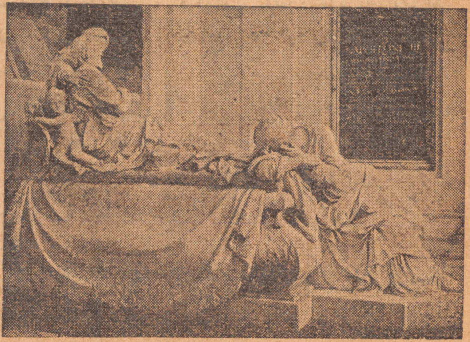
البواكى المحيطة بحدائق « الباليه رويال » ـ (القصر الملكى) ـ وقد شيدت قبل الثورة مباشرة ، وظلت خلال عهد الثورة وحكومة الادارة ، مكان التقاء الطبقة الراقية الأنيقة .. اما الآن فقد تحول عنها الزحام الى أمكنة أخرى قريبة

« الكونسييرج » ـ وهو ناظر أو « حاكم » قصر الملك ـ وكان الناظر المذكور يتولى تأجير العدد الكبير من الحوانيت الملحقة بالمبنى ، لحسابه الخاص ، فكانت تدر عليه ايرادا هائلا . وكان المبنى يستخدم كمعتقل أو سجن خاص لأعداء الملك والدولة .. فكان بين من سجنوا فيه : « مونتجمرى » قاتل الملك هنرى الثانى .. و « شاتيل » الذى حاول الاعتداء على الملك هنرى الرابع .. و « رافاك » الذى أجهز على الملك المذكور .. و « لوفيل » قاتل « الدوق دى برى » .. و « فييشى » الذى دبر مؤامرة كبرى ضد الملك لويس فيليب .. وغيرهم

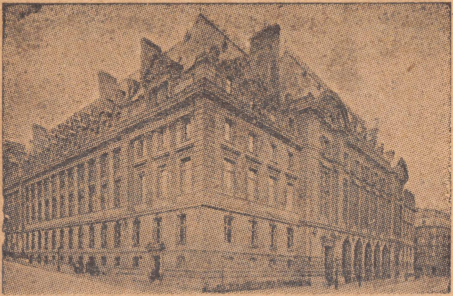
فلما قامت الثورة الفرنسية خصص السجن لاستقبال المقبوض عليهم من أعداء الثورة ـ وكان عددهم يبلغ أحيانا

١٢٠٠ مسجون في الوقت الواحد ! - وفى عهد الارهاب كان السجن بمثابة المعتقل التمهيدى الذى يؤدى الى محكمة الثورة ، ومنها - فى تسعة أعشار الحالات - الى المقصلة !٠٠ وهكذا احتوت زنزاناته من بين من احتوت : الملكة مارى انطوانيت ، مدام اليزابيث (شقيقة لويس السادس عشر) ، مدام ريكامييه الحسناء ، مدام رولان ، شارلوت كورداى (قاتلة الزعيم مارا) ، مدام دى بارى (محظية لويس الخامس عشر) ، الشاعر « اندريه شينييه » ، الجنرال هوشى ٠٠ الخ٠
كما كان من بينهم العالم المشهور « لافوازييه » ، الذى طلب ارجاء اعدامه حتى يتم كتابة مذكراته ، فأجابه أحد القضاة بقوله : « ان الجمهورية ليست فى حاجة الى علماء ! »

وحين انقلب حكم الارهاب على زعمائه ، كالهرة تأكل بنيها ، تتابع على الحظوة « بضيافة » الكونسيير جيرى جميع رؤساء الجمعية الوطنية ، قبل أن يجىء دورهم للصعود الى عربة الاعدام ، ثم الاثنان والعشرون خصما للزعيم دانتون (من أقطاب الجيروندين) ، ثم دانتون نفسه و ١٥ من أتباعه (الذين ضحى بهم روبسبير) ٠٠ ولحق بهم روبسبير ذاته



قبر الكاردينال ريشليو ، فى كنيسة جامعة السوربون ، ويعلوه تمثال للسياسى الفرنسى الداهية



جامعة
« السوربون »
العتيدة بباريس

وعشرون من أنصاره (الذين أودى بهم انقلاب « ترميدور ») .. وأخيرا جاء دور المدعى العام « فوكيه تنفيل » ومرؤوسيه من قضاة محكمة تلك الثورة ومحلفيها ..

فاذا فرغنا من هذه العجالة التاريخية ، فتعال نطوف بأهم معالم ذلك السجن المشهور ، وان كنت سأقتصر منه على أطرف ما يسترعى النظر :

زنزانة مارى انطوانيت : وقد شغلتها الملكة المحكوم عليها من يوم ٢ أغسطس الى ١٦ أكتوبر سنة ١٧٩٣ ، حين اقتيدت منها الى ميدان لويس الخامس عشر ـ « الكونكورد » ، الآن ـ حيث كانت المقصلة تنتظرها ، وتحتوى الزنزانة على سرير لشخص واحد ، ومقعد ، ومنضدة للزينة . ولم يكن يحجب الملكة عن أنظار حراسها ، ليل نهار ، سوى حاجز « بارافان » صغير ! .. وتتصل الزنزانة بأخرى مجاورة لها ، هى التى قضى فيها « دانتون » أيامه الأخيرة ، كما قضى فيها « روبسبير » ليلته السابقة لاعدامه .

مطبخ السجن : وكان يعد فيه الطعام لعدد يتراوح بين الألفين والثلاثة آلاف شخص كل يوم ، منهم أفراد الأسرة



« فنـاء الشرف » فى جامعـة « السوربون » ، يتوسط مبانيها العريقة فى القدم ، التى شيدت فى القرن الثالث عشر ، وجددت فى القرن التاسع عشر

المالكة . وكان هذا الطعام يقتصر فى الغالب على اللحم المشوى أو المسلوق . ومن ثم ترى فى أركان « قاعة » المطبخ الفسيحة أربع مداخن ضخمة هائلة الحجم

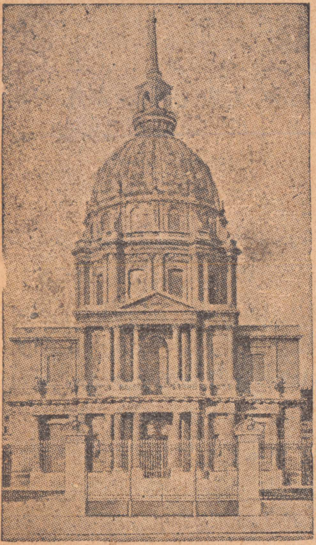
« **شارع باريس** » : وهوالرواق الذى كان مخصصا لنوم المسجونين الفقراء ، على أكوام من القش .. أما الأغنياء وميسورو الحال فكانوا يوضعون فى عنابر صغيرة ذات أسرة متعددة مريحة ، أو – فى بعض الحالات الممتازة – فى زنزانات ذات سرير واحد

بهو المسجونين : وهو البهو الرئيسى للسجن ، وقد

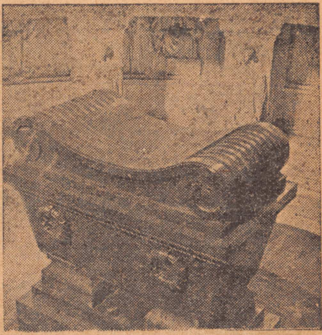
كان أكثر الاماكن آزدحاما فى عهد الثورة : بالوافدين الجدد الى السجن ، والخارجين منه الى المقصلة ، والزائرين والمحامين ، والسجانين ، والحراس ٠٠ الخ ٠ وفي الجانب الأيسر منه كانت تجرى للمسجونين الخارجين الى المقصلة عملية «الزينة» الاخيرة ، فكانت تربط سواعدهم الى ظهورهم ، وتوسع فتحات قمصانهم عند الرقبة ، ويقص شعرهم عند العنق ! ٠٠ وفى أقصى البهو يوجد السلم الذى تقود الى الطابق الأعلى ، حيث كانت تنعقد محكمة الثورة

كنيسة الجيرونديين : وقد حولت بعد ازدحام السجن الى عنبر آخر جماعى ، وضع فيه الجيرونديون الاثنان والعشرون ٠ وقد كانت العادة أن يختار ضحايا المقصلة ـ لليوم التالى ـ فى منتصف الليل ، فيقضون ليلتهم الاخيرة فى الشراب والغناء ! وقد انتحر أحدهم ذات ليلة فى هذا العنبر ، فتركت جثته ممددة أمام الباقين طوال الليل ، ثم نقلت معهم فى الصباح الى المقصلة !

متحف السجن : وترى فيه مسودة الخطاب الذى كتبته مارى انطوانيت ـ برأس دبوس ! ـ الى صديق من



« الأنفاليد » : شيد فى عهد لويس الرابع عشر ، ويضم الآن جثمان نابليون ، وجثمان ابنه « النسر الصغير »



من الشرفة الدائرية الواقعة تحت قبة « الانفاليد » ، يطل الزائر على هذا القبر الرخامى الاحمر الذى يضم جثمان نابليون !

المخلصين لها كان يحاول انقاذها . كما ترى فيه صليب الملكة الصغيرة ، وبعض اللوحات والنماذج المحفورة من فن عصر الثورة ، ونموذج لزنزانة ، وآخر لسلاح المقصلة و « أوامر حبس » بعض المسجونين السياسيين فى عهود أخرى : ومنهم الأمير نابليون (الامبراطور نابليون الثالث فيما بعد) ، و « النمر » الفرنسى « كليمنصو » ، وابن فيكتور هوجو .. الخ

فناء النساء : وهو فناء مكشوف تحيط به صفوف زنزانات السجينات من النساء . (وقد كانت الفقيرات منهن ، اللواتى ينمن على القش ، يوضعن فى الطابق الارضى .. والميسورات الحال فى الطابق العلوى) . وكانت السجينات يتنزهن فى ذلك الفناء أثناء النهار ، أو يجلسن حول المنضدة الصغيرة الحجرية التى تتوسطه .. أو يغسلن ثيابهن فى مياه النافورة التى ما تزال موجودة فى الفناء .

والآن تعال نغادر السجن لنزور صرحا آخر من أهم معالم حى « الجزيرة » ـ بل لعله من أهم معالم باريس على وجه العموم ـ وهو كاتدرائية نوتردام ، قبل ان نترك الجزيرة الى الحى اللاتينى .

وفى طريقنا الى الكاتدرائية ، ونحن نسير على رصيف السين ، نمر بالمنظر التقليدى المأثور عن باريس : منظر باعة الكتب



المنظر التقليدى الخالد على ضفة السين : أحد باعة الكتب والصور الفنية ، يعرض بضاعته على سور النهر

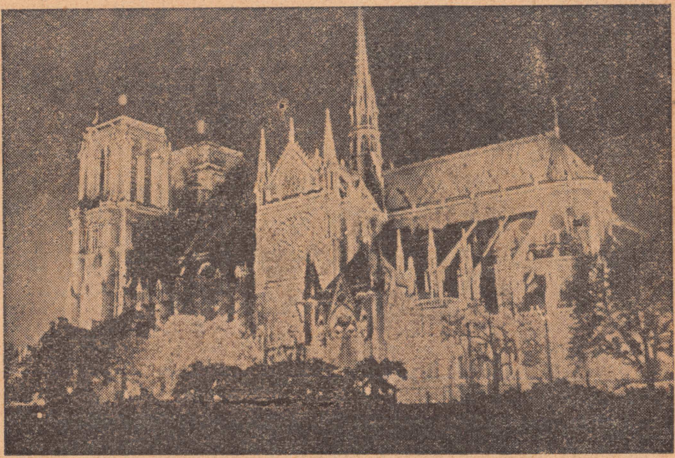
والصور الفنية الذين يتخذون من أرصفه السين مكانا مختارا يعرضون فيه بضاعتهم المحببة لجمهور المتسكعين على ضفة النهر الخالد . ووقفت ألقى نظرة على بضاعة أحد أولئك الباعة : مئات من الكتب ، فى شتى الموضوعات والطبعات ، بمختلف الاسعار ، يحار القارىء من فرط اغرائها أيها يأخذ وأيها يدع . وقد صفت جميعها على حامل أو عربة ذات أرفف أنيقة عريضة تفسح للعابر مجال التقليب والاختيار .. والى جوارها مجموعة من اللوحات الفنية ، القديمة والحديثة ، تتيح لأفراد الطبقة المتوسطة ان يزينوا جدران بيوتهم مقابل مبلغ معتدل لا يرهق ميزانيتهم بحال ..

حيث توج نابليون نفسه امبراطورا .. بيديه !

• **ها نحن** قد وصلنا الى كاتدرائية نوتردام – التى أطلق « فيكتور هوجو » اسمها على روايته المشهورة «نوتردام دى بارى»

(أو « أحدب نوتردام » كما تعرف بالعربية) ٠٠ وقد كانت تشغل مكان الكاتدرائية ـ قبل انشائها ـ أماكن مختلفة للعبادة ، تتابع أحدها بعد الآخر منذ نحو عشرين قرنا ٠٠ وكان أولها معبد للاله « جوبيتر » أنشأه الرومان فى القرن الأول للميلاد ، بمعاونة أهل البلاد أنفسهم من الغال ٠ (ولعله مثيل لمعبد جوبيتر الذى أنشأوه أيضا فى (دمشق) ، والذى أقيم فى مكانه بعد ذلك « المسجد الأموى » ٠ وما تزال بعض أطلال المعبد الرومانى قائمة بجوار المسجد الى اليوم)

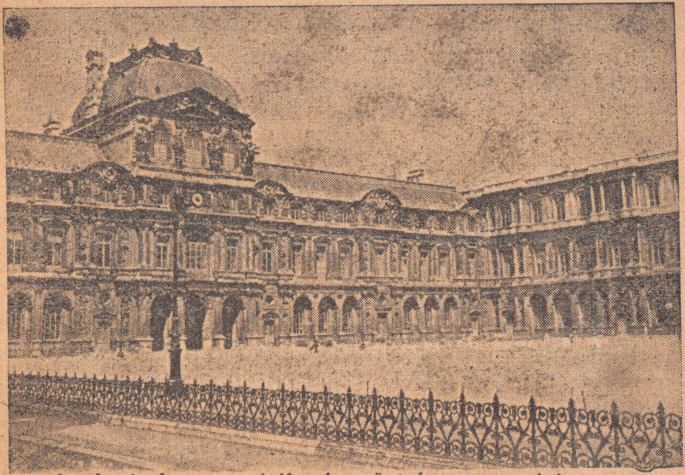
٠٠ وعلى أثر اندثار الوثنية من باريس أقيمت فى مكان معبد جوبيتر كنيسة رومانية ، فأخرى ٠٠ وكلما تهدمت واحدة خلفتها غيرها ٠٠ حتى جاء أسقف العاصمة فى عام ١١٦٠ فقرر الاستعاضة عن الكنيسة المتواضعة الموجودة ، بكاتدرائية ضخمة شامخة ، غير مبال فى هذا السبيل بحملات خصومه الذين



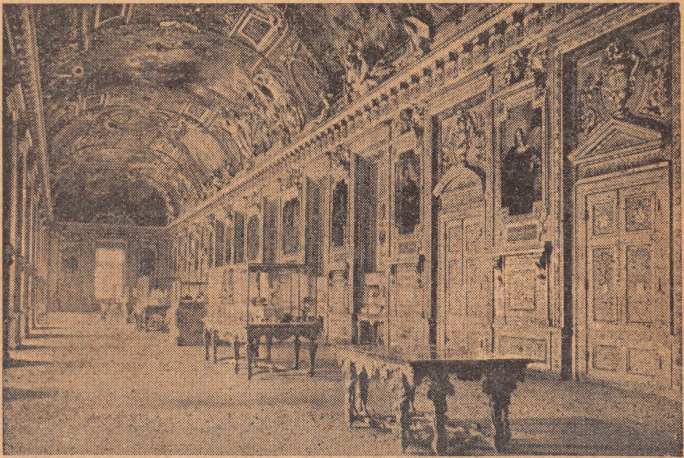
كاتدرائية نوتردام كما تبدو فى الليل وقد سلطت عليها الاضواء الكاشفة

راحوا ينددون بالمشروع ، بحجة أن من شأنه « تغطية الاحجار بالذهب ، وترك فقراء باريس عرايا ! »

وبدأ العمـل فى « نوتردام » فى سنة ١١٦٣ ، وتم الجانب الرئيسى منهابعد ٨٧ عاما ، لكن الأعمال والتحسينات الاضافية استمرت حتى سنة ١٣٣٠ . وانه لمن سـوء الحظ أن العبقرى الذى وضع تصميم الكاتدرائيـة ذات الطراز القوطى ما يزال مجهـولا ! .. **وقد أقيمت فى « نوتردام » حفلتا تتويج ملكيتان : أولاهما حفلة تتويج « هنرى السادس » ـ ملك انجلترا خلال حرب المائة عام ، الذى طردته جان دارك من فرنسا بعد ستة أعوام ! ـ والحفل الثانى أقيم لتتويج نابليون امبراطورا على فرنسا فى سنة ١٨٠٤ . وقد حدث فى الاحتفال الأخير أن**



جزء من جناح واحد من أجنحة متحف اللوفر ، يتوسطه فناؤه المربع الفسيح . وقد كان المتحف فى الأصل قصرا ملكيا فى عصر الملك « فيليب اغسطس »



قاعة « أبوللو » ، أجمل قاعات متحف اللوفر ، وتزين سقفها وجدرانها نقوش ولوحات لا مثيل لروعتها ، وتتوسط القاعة صناديق زجاجية تعرض فيها مجوهرات ملوك فرنسا وكنوزهم الثمينة

الامبراطور تجاهل وجود البابا « بيوس السابع » ، فتناول التاج من فوق المذبح ووضعه على رأسه ـ بيده ! ـ ثم وضعه على رأس زوجته « جوزفين » فتوجها بدورها !

وقد ظلت حالة « نوتردام » تتدهور من سيىء الى أسوأ خلال القرن الثامن عشر ، ثم جاءت الثورة فأصابتها بتلف بالغ .. الى أن صدر « قانون » عام ١٨٤١ الذى أوجب اصلاحها ، فعهد بهذه المهمة الى المهندس المعمارى « لودوك » ، الذى تدين له باريس بفضل انقاذ صرحها الأثرى العريق

وتمتاز الكاتدرائية ـ فضلا عن هندستها المعمارية القوطية المنعدمة النظير ـ بأبوابها الثلاثة الضخمة الشاهقة ، التى لا تقدر قيمتها الفنية بمال .. فقد حفرت على أخشابها لوحات

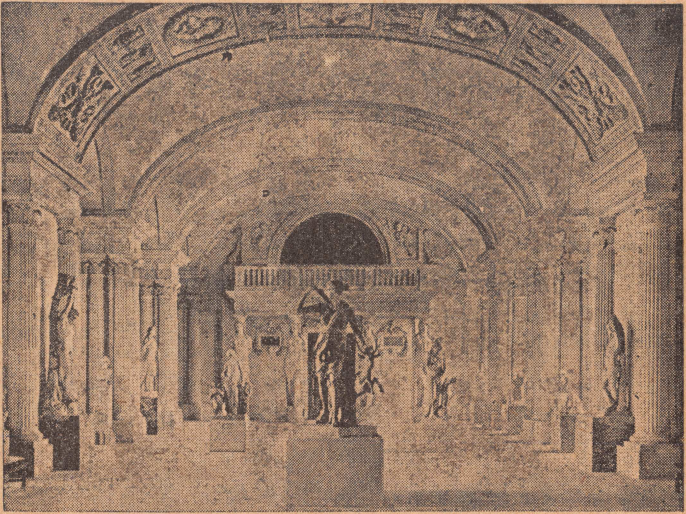
مجسـمة تمثل مشاهد كاملة من التـوراة والانجيـل ، بارزة ومنحوتة كالتماثيل ٠ وفوق المدخـل نافذة هائلة على شكل وردة كبيرة ، منقوشة الزجاج باللوحات الملونة ، يبلـغ قطرها نحو عشرة أمتار ! وهى أكبر نافذة مستديرة جرؤ المعماريون على تصميمها ، وقد بلغ من اتقان صنعها انها لم تحوج أحدا الى أن يمد يدا لاصلاح شىء فيها منذ انشائها الى اليوم ، طيلـة أكثر من سبعمائة عام !٠٠ وقد صنع كثير من أسـاطين الفن صورا مصغرة منقولة عنها ، فى أكثر من مناسبة

أما برجـا أجراس الكاتدرائية ـ اللذان تسلقهما « أحـدب نوتردام » فى قصـة فيـكتور هوجو الخالدة ، فـرارا من مطارديه ، وأطل من قمتهما على الجماهير الثائرة ـ فيبلغ ارتفاعهما ٢٢٦ قدما ، وهو ارتفاع شاهق يوازى ارتفاع عمارة ذات ٣٠ طابقا !٠٠ ومن قصص الـكفاح والمثـابرة العجيبة المـأثورة عن تاريخ انشاء هذه الكاتدرائية أن الملك « فيليب أغسطس» ارتاب ذات يوم فى النـزعة السياسـية للقائمين بانشـائها ، فأمر بايقاف العمل فيها ، وأقام حراسة مشددة عليها لهـذا الغرض ٠ ورغم ذلك فقـد بلغ من تحمس الأهالى للمشروع أن مواد البناء ظلت تنقل الى داخلها سرا تحت جنح الظـلام من الضـواحى البعيـدة ـ خـلال انفاق شقت خصيصا من أجلها تحت الأرض ـ فلما رفع الحظر بعـد نحـو خمس سنوات ، كان العمل قد تم فى ٣٧ هيكلا من الهيـاكل التى بداخلها ، ووقع على كل منها بعلامة الجعـران والبوصـلة ٠ ونتيجة لهذه المساهمة الشعبية الواسـعة النطاق ، مازالت شـخصيات الكثير من الفنانين الذين صنعوا مختلف تحفهـا النادرة ٠٠ مجهولة تماما !

ضريح الامبراطور

◆ وعلى ذكر نابليون وحفل تتويجه فى ذروة مجده ، تعـال نزوره فى لحده ! انه يقيم على مقربة ، فى ضريحـه المهيب :

« الانفاليد » ٠ ومبنى الانفاليد شيد فى الأصل ، فى عهد لويس الرابع عشر ، ليكون ملجأ لمشوهى الحرب من العجزة ، وقد تم بناؤه فى عام ١٥٧٦ ، أما قبته المشهورة التى صارت طابعا له فقد شيدت عام ١٦٧٩ ٠ وفى يوم ١٤ يوليو سنة ١٧٨٩ ـ يوم سقوط الباستيل ـ علمت الجماهير الثائرة أن فى « الانفاليد » مخزنا للأسلحة ، فهاجمته وأفلحت فى اقتحامه ، ثم خرجت منه مزودة بنحو ٢٨ ألف بندقية !٠٠ **أما اتخاذ الانفاليد ضريحا لنابليون فيرجع الى عام ١٨٤٠ ، حين أفلحت فرنسا في اقناع بريطانيا بحقها فى استرداد جثمان امبراطورها من جزيرة سانت هيلانة ، فأوفد الملك لويس فيليب ابنه الى الجزيرة ليرافق الجثمان ٠ وفتح نعش الامبراطور ، فوجد فى**



بهو التماثيل بمتحف اللوفر ، يتوسطه تمثال رائع لآلهة الصيد « ديانا »

حالة سليمة تماما ، واذ ذاك نقل الى باريس ، حيث احتفل بتشييعه الى مقره الجديد فى جنازة مهيبة ، يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٨٤٠ ، مارا بقوس « النصر » العظيم الذى سجل على جدرانه أمجاده وانتصاراته ، والذى كان هو صاحب الفكرة فى اقامته ، وان لم يتم صنعه الا بعد وفاته ..

وفى أبريل سنة ١٨٦١ وضع جثمان نابليون فى النعش الرخامى الأحمر الفاخر الذى يراه زائر الانفاليد اليوم ،والذى وضع تحت قبة المبنى بالضبط ، فى مستوى ينخفض عن مدخل الضريح بنحو ستة أمتار ، وأحيطت تلك الفجوة الفسيحة بسور أنيق يطل منه الزائرون على النعش المسجى فى القاع . فاذا أرادوا النزول لمعاينته عن قرب ، هبطوا اليه سلما من ٢٦ درجة . وقد صنع النعش من الجرانيت الفنلندى الأحمر ، ووضع على قاعدة من الجرانيت الفرنسى الأخضر ، وبطن من الداخل بطبقة من مرمر (كورسيكا) ـ مسقط رأس الامبراطور ـ وأحيط النعش بست لوحات مجسمة بارزة من المرمر الأبيض ، تضيئها عدة مصابيح جنائزية . ويقوم البهو كله ـ أو الفجوة المستديرة ـ على ١٢ تمثالا تعتبر بمثابة أعمدة يرتكز عليها . وفى مواجهة المدخل وضع تمثال لنابليون يصوره فى زى التتويج ، وعلى رأسه اكليل الغار المشهور ، وتحت التمثال وضع سيف معركة (اوسترلتز) ، والقبعة التى كان يرتديها فى معركة (ايلاو) ، والمفاتيح الثلاثة لنعشه فى سانت هيلانه .

وفى أجنحة أخرى من الانفاليد ، أقيمت أضرحة ثانوية لبعض أبطال فرنسا العسكريين ـ ومنهم « فوش » ، و « ماك ماهون » و « لوكلرك » ـ وقد انضم اليهم فى سنة ١٩٤٠ ابن نابليون (النسر الصغير ، أو ملك روما) الذى مات بالسل فى نحو العشرين من عمره فى جناح أمه « مارى لويز » بقصر

(شونبرون) بفيينا ٠ **وكان هتلر قد نقل جثمانه الى جوار أبيه على اثر دخوله باريس فى بداية الحرب الأخيرة ، استرضاء للفرنسيين وتملقا لمشاعرهم !**

وفى الممر المؤدى الى مدخل الانفاليد ، صفت بطارية من ١٨ مدفعا من البرونز ، يرجع عهدها إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وتستخدم لاطلاق التحية فى المناسبات القومية والانتصارات الوطنية الهامة ، وقد أطلقت نيرانها بالتحية فى يوم الهدنة (١١ نوفمبر عام ١٩١٨) ، ويوم استعراض النصر (١٤ يوليو سنة ١٩١٩) ٠٠ وقد نقل الألمان هذه المدافع الى بلادهم حين احتلوا فرنسا فى عام ١٩٤٠ ، لكنها أعيدت الى مكانها على اثر انتهاء الحرب ٠

جنة الطلبة والعشاق !

◆ **والآن** تعال نغادر « الانفاليد » لنواصل جولتنا ٠ ياللجو الرائع الجميل ، ان الغمام الرقيق يفتر عن رذاذ لطيف ! **هل تحب السير تحت المطر الخفيف مثلى ؟ اذن تعال نرتدى معطف المطر ونتسكع فى طريقنا الى احدى حدائق باريس الشاعرية الجميلة ٠٠ فلنمض الى « اللوكسمبرج » ، جنة الطلبة والعشاق التى قرأت معى أكثر من اشارة اليها فى قصص « بول بورجيه » ٠٠ هانحن قد وصلنا اليها** ، أترى هذا البستان المنسق أبدع تنسيق ، بذوق باريسى رفيع ؟٠٠ وهذه الممرات الظليلة التى انتثرت فيها المقاعد الخشبية ، وقد جلس روادها من الشباب ــ من الجنسين ــ يطالعون كتابا أو مجلة ، أو يستذكرون دروسهم ومحاضراتهم ، فى هذا الجو الشعرى المعبق ببراعم الزهر ؟٠٠ وفى مواجهتهم وحولهم ، فى كل اتجاه ، تماثيل ربات الجمال عند اليونان والرومان ، تبارك كفاحهم وأحلامهم ، وتذكى فيهم الصبر والجلد ! **يكفى أن تقع أبصارهم عليها ، فى**

وقفتها الصابرة منذ آلاف السنين ، كى يتخذوها قدوة لهم ومثالا ٠٠ ويكفى أن يتأملوا جمال قسماتها الخالدة ، وروعة الفن الذى صاغها ، كى ينبثق فى وجدانهم ينبوع تذوق الجمال الرفيع ، والسمو بمشاعرهم الى السماوات العليا للعواطف والأمانى التى تغذى القلب والعقل ٠



فى القسم المصرى بمتحف اللوفر ، يربض هذا التمثال من الجرانيت الاحمر لأبى الهول !

بل يكفى أن تسرح خواطر طلاب الفن منهم وراء انثناءات كل تمثال منها ، وتعبير وجهه « الناطق » ، ومعالم قده المياس، كى يحلم كل منهم بأن تمنحه الآلهة ازميل « ميكيل انجلو » أو « رودان » !٠٠ أما الطالب الأديب أو الشاعر فحسبه جلسة فى هذه الجنة الأرضية كى ينطلق قلمه ولسانه بأبلغ القوافى والأوزان ، وأرق أهازيج الحب والجمال !٠٠ولم لا أقول أن طالب الطب قمين بأن يدرس علم التشريح ووظائف الأعضاء على الطبيعة ، وهو يفحص أدق العضلات والمفاصل والشرايين والعظام ، فى تلك التماثيل المرمرية التى تكاد تنبض بالحياة !

تباركت يارب ٠٠ حقا لقد بدعت الخليقة من جديد يوم خلقت أنامل مخلوقاتك الخالقة !

وفى العدد القادم نواصل زياراتنا لمعالم باريس ، بادئين بالحى اللاتينى

عقدة « أوديب » !

◆ هل سمعت عن « عقدة أوديب » ؟.. وهل تعرف منشأ هـذه التسمية التى اصطلح علماء النفس على اطلاقها على كل من يبدو منه ميل « جنسى » شاذ نحو أمه ؟ ! .. أو يبدو منه - على الأقل - تعلق مغالى فيه بهذه الأم ، يصرفه ويعوقه عن أن يبذل أو يشعر بالحب الكافى لامرأة غيرها ، أو يمارس حياته الجنسية الطبيعية مع زوجته ؟ !

سواء كنت سمعت بهذه العقدة ، أو لم تسمع .. وقرأت عنها ، أو لم تقرأ .. فما ينبغى أن تفوتك فرصة قراءة القصة الخالدة التى كانت منشأ تسمية هذه الحالة بـ « عقدة أوديب »

انها قصة الكاتب اليونانى الأشهر « سوفوكليس » :

أوديب الملك

اقرأها مع القصة التكميلية لها ، بقلم سوفوكليس نفسه :

أوديب

فى (كولونا)



الدكتور طه حسين

والقصة الحديثة التى ابتدعها - حول الموضوع نفسه - فن الكاتب الفرنسى الكبير « اندريه جيد » :

أوديب

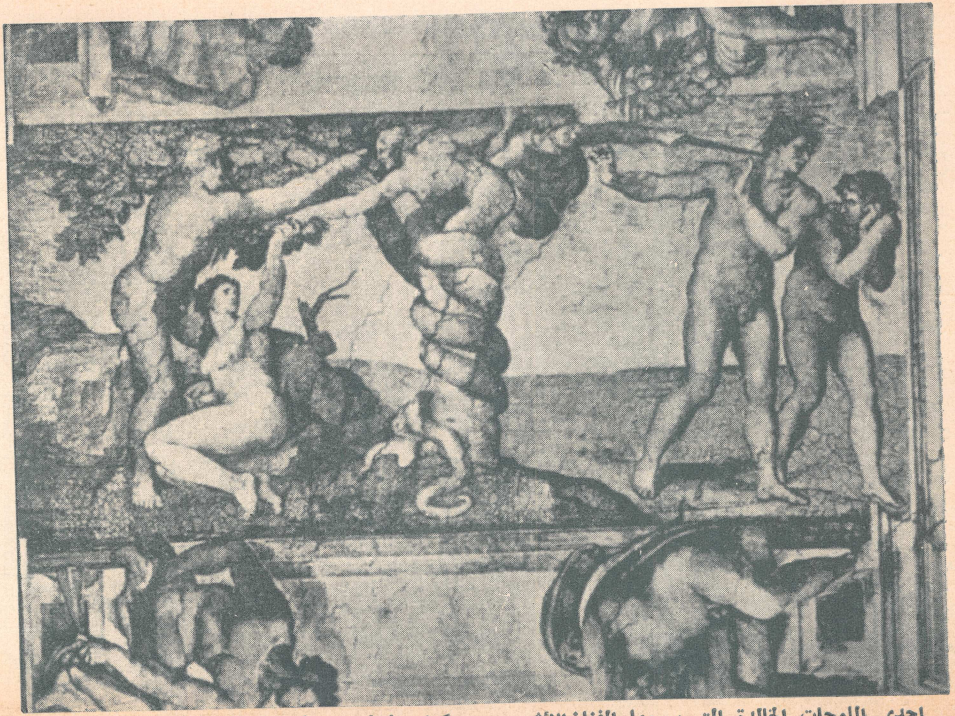
ترجم المآسى الثلاث الخالدة ، وكتب لها مقدمة طويلة شائقة بأسلوبه الساحر :

الدكتور طه حسين

وتقدمها لك فى عددها الجديد يوم ١٣ ديسمبر الحالى :

مطبوعات كتابى

انها تحفة نادرة .. لا تدعها تفوتك !



احدى اللوحات الخالدة التى رسمها الفنان الأشهر « ميكيل انجلو » على جدران كنيسة « سيستين » بالفاتيكان ، ويمثل الجانب الأيسر منها آدم وحواء وهما يقطفان « التفاحة » من الشجرة ، وقد التفت عليها الحية .. وفى أيمن اللوحة آدم وحواء وقد أشاحا بوجهيهما ندما وخزيا عند طردهما من الجنة



قطاع من اللوحة المنشورة فى الصفحة السابقة ، يبين خزى آدم
وحواء عند طردهما من الجنة بعد أن أكلا التفاحة !



قصة مصرية

بقلم: يوسف جوهر

مسألة ضمير !

بدا عليه التعب ، فاقترحت عليه أن نجلس قليلا فى ظلال نخيل الضيعة • واتخذنا مقعدا شجرة عتيقة ضخمة شاخت ، وملت الوقوف ، فمالت الى الارض ، وتوسدت التراب •

وكنا مستسلمين للصمت ، فان الصمت يغدو أحيانا حلوا فى المساء ، وقت الغروب •• وكان الشيخ المتعب الذى يجلس الى جوارى قد ودع ولده وشيكا ، وأركبه قطار الدلتا الذاهب الى المدينة • وكنا عائدين من المحطة ، وفى عودتنا وقف بى عند مقبرة القرية الصغيرة ، التى تنام فى هدوء على حافة الطريق الزراعى •• وقف طويلا ، وقرأ الفاتحة ، ثم استغرق فى صمت مفعم بالحلم والحزن •• ولما عاودنا السير ، عاودناه ونحن فى موجة ذلك الصمت الحالم الحزين ••

جلسنا على جذع الشجرة التى توسدت الثرى •• ورأيت دموعا كبيرة تتجمع فى عينيه ! •• ورمقته يدير وجهه ويمسحها خلسة • وقد هزنى ذلك ، فان دموع الشيوخ غالية !

كان طبيعيا أن يكتئب قليلا ، فان ولده الذى غادر القرية الى المدينة هو ولده الوحيد ، وهو استاذ شاب فى الجامعة يزوره لماما •• ولكن كان مستغربا أن يأسى الى هذا الحد ! •• فقد رأيته من قبل يستقبل ولده ، ويودعه ، دون أن يتعرض لمثل هذا الاضطراب ! •• كان جليا انه ينحنى تحت ثقل هم دفين !

وكنا صديقين ، تلك الصداقة العذبة التى تتوثق أحيانا بين رجل متقدم فى العمر وفتى فى صدر الشباب • كانت أرضى مجاورة لأرضه ، وكنت أجىء الى الضيعة أياما لأشرف على شئونها ، وكنا لذلك نلتقى دوأما ونسمر سويا •

ولا شك أنه رأى التساؤل فى عينى ، فقد ابتسم وهو يتنهد ومال على أذنى هامسا : « ان ابنى لن يكون لى وحدى بعد

اليوم ٠٠ فانه سيتزوج ٠٠ وقد جاء يخبرنى أنه وجد عروسه ويسألنى أن أبارك اختياره ٠٠ »

قلت له : « وهل فعلت ؟ »

قال : « نعم ٠٠ فإن ابنى عاقل ٠٠ ولست أشك أن قلبه قد هداه ٠٠ »

أجبته : « ولكنى أراك مهموما ؟ ! »

ضحك فى وهن وكآبة وقال : « **كان خليقا بى أن أغدو الآن طروبا ، لكننا مررنا فى عودتنا من المحطة بمقبرة القرية ٠٠ وقد أثار ذلك فى نفسى ذكرى بعيدة موجعة ٠٠ ان أم الفتى تنام هناك ٠٠ فى ذلك اللحد الذى وقفنا عنده ٠٠ منذ ميلاده ٠٠ »**

ونظرت اليه فاذا بعينيه قد عادتا نديتين ، واذا بالشجن يبلل صوته ٠٠ وأخرج كيس التبغ ولف سيجارة ، ووضعها فى المبسم ، وجذب منها نفسا طويلا نفخه فى بطء وشرد بصره وراء الدخان وهو يتلوى فى الهواء ٠٠ وكانت هذه عادته عندما يقبل على حديث طويل ٠

ولما رأى انى مصغ له ، حدثنى قائلا : « ان ابنى لا يعرف شيئا من هذا التاريخ الذى يعود الى ثلاثين عاما ــ ولن تحدثه أنت بشىء ! ٠٠ لقد دخلت خدمة الحكومة فى العشرين وبقيت فى القاهرة ، فى احدى الوزارات ، الى الثلاثين ٠ ثم مللت ٠ وكان أبى قد مات بعد شقيقى ، فورثتهما ، واصبحت الارض فى حاجة الى من يعنى بها ٠ وفكرت أن استغلها بنفسى ، فاستقلت ٠٠ وقصدت الى الريف

وكنت قد تزوجت من القاهرة قبل قدومى الى الريف بعامين ٠ **كان زواجى من بدرية زواج شباب مشتعل ، من النوع الذى ينطفىء ، ويفقد الكثير من حرارته بالوصال ٠ ولذلك لم تلبث حياتنا القلبية ، بعد الأعوام الثلاثة الأولى**

ان صارت حياة رتيبة هادئة ، مملة • كانت بدرية خاملة ، لا تدرى كيف تدفع السآمة عن حياتى وحياتها •• ولعل ذلك هو ما جعلها تتوق الى طفل ، يلهب حناننا ، وينير قلوبنا ، ويبدد الركود الذى يسود أيامنا •• فلما مضت اعوام خمسة دون أن يكون لنا نسل ، تقسمها الحزن ، وأضحت تذوب شوقا الى طفل !

وقد كانت مغالية فى ظنها انى سأحبها أكثر عندما تغدو أما •• فاننى لم أكن أكرهها • ولم يكن ثمة شقاق بيننا أو نفور • كل ما هنالك ان حياتنا كانت عادية ، ينقصها الاضطرام ••

والحق أن بدرية كانت جميلة ، ومخلصة ، وطيبة • وكان عيبها الوحيد ذلك الانطواء على نفسها ، والعجز عن التعبير عن مشاعرها •

واخيرا حملت بدرية •• وجاءت أيام الوضع ••

وكانت يتيمة ، فلم أر مناصا من أن أكتب لصديق لى طبيب ، فى المدينة المجاورة ، أسأله المعونة •• فوافانى ليلة الوضع ، ومعه ممرضة • ثم عاد أدراجه تاركا الممرضة لتعنى بالأم وبالطفل •

★ ★ ★

وكانت الممرضة صبية فى الثامنة عشرة ، ذات جدائل ذهبية ، وعينين ساحرتين ، ومحيا فاتن •• ولن أنسى ذلك الفرح الحلو الراقص فى عينيها وهى تحمل على ساعديها الناصعين الوليد لأول مرة ، لترينى اياه ••

ويحنا من هذه الاشياء التافهة ، التى تحدث عفوا ، ثم يكون لها أكبر التأثير فى توجيه حياتنا ! •• لقد حدث اننى انحنيت على الطفل لأقبله ، ولما رفعت وجهى لمس خدى وجنتها ، برهة ما ، مصادفة ! •• واذا بالخجل يصبغ محياها بذلك اللون



القانى المحبب !

ومنذ ذاك ، دخل فى نفسى شىء ٠٠ وعشت حينا مضطرب الصدر بمشاعر غامضة !

وقد كان كل شىء خليقا أن ينتهى عند ذلك لو أن زوجتى بدرية أسرعت الى النقاهة ولم يعد هناك محل لوجود « لولو » ٠٠ لكن المسكينة أصيبت بحمى النفاس ، وأصبح محتما أن تبقى الممرضة لتنفذ تعليمات الطبيب وتعنى بالمريضة ، وبالطفل أيضا ٠٠

ان لنا فى شبابنا نزوات تستمد أسفافها من ضعف الطبيعة البشرية ٠٠ فقد تبينت اننى لم أكن ساخطا على مرض امرأتى ! وأن خاطرا خبيثا راودنى ٠ ان تلك الحمى قد أسدت الى جميلا اذ أبقت « لولو » فى البيت !

وأحيانا تغلظ قلوبنا الرقيقة غلظة مؤسفة ٠٠ فانه لما غمض مرض زوجتى ، واستعصى عليها الشفاء ، وضعف قلبها ضعفا جعل الطبيب يتحدث عن الخطر وعن الموت المفاجىء ، حتى حينما حدث ذلك لم تستنكر نفسى التفكير فى أنه ربما يأتى يوم تغدو فيه « لولو » زوجة لى !

وقد أخذت رغبتى الأثيمة تهمس بى : ان بدرية ستموت ! وسيغدو الطفل بلا أم ! ولن يكون هناك لوم ان أبقيت الفتاة لتربيه ! وستكون بيننا عاطفة رقيقة ! ثم ينتهى الامر بالزواج !

واشهد ان لم يكن للفتاة ذنب فى هذه التصورات ٠ كانت تريد لبدرية الصحة والسلامة ، وتكافح المرض بكل عزيمتها ،

وتنفذ ارشادات الطبيب بكل أمانة ٠٠ وكانت مشغوفة بالطفل ، تغدق عليه كل الحنان الذى يزخر به صدر عـــذراء قلبها اناء مختوم تتراكم فيه الطهارة ٠

انها لم تفكر فى من البداية ، بل كان كل تفكيرها محصورا فى ابنى ٠ وأثناء ذلك كنت أرقبها ، وأستنشق العطر الساحر المنبثق من أنوثتها الحية ٠٠ ولم تكن لولو تلحظ تلك الثورة المضــطرمة فى نفسى ٠ كانت كالزهرة النـــائمة فى كأســها ، لاتدرى كم هى فاتنة ٠٠ ولا كم مرة فى النهار تقطفها العيون المشغوفة بألوانها العجيبة !

وقد طال المرض ٠٠ وأضحى اليأس الممل مألوفا كـكابوس ثقيل لا خـــلاص منه ٠ ومر أكثر من شهر ونحن عشـيران ـ انا ولولو ـ نتناول الطعام وحدنا ، ونتحدث سويا ، ونلتقى عند هدف واحد ٠٠ ونمـا بيننا نوع محتوم من الألفـــة ، وقد صارت تغدق على عنايتها بذلك السخاء الصـــادر من طبيعتها المفطورة على البذل والعطاء !

وفى ذلك الجو الكئيب الذى تسوده المواساة ، والاحساسات المرهفة ، أصبحنا صديقين ٠ ولم تكن هى من جفاء الطبع بحيث تنفر من رقتى العميقــة نحوها ، بل كانت ترضخ لهــا وعلى جبينها ظلال من الحيرة ٠٠ فانه فى الفترات التى تـكون فيهـــا زوجتى نائمة ، وخاصــة فى الليـــل ، كنــا ننسل من الحجرة ، لنوفر لهـــا أكبر قسط من الراحة ٠ ونأوى الى الصـــالون لنسمر ٠٠ ثم تتقطع الـــكلمات بيننـــا وتذبل الرغبـــة فى الحديث ٠ ونتبادل النظرات فى صمت مرهق ٠٠

وليس من شـــك أنه هجس فى خاطرهـــا ، كما هجس فى خاطرى ، أن ذلك ليس مأمون العاقبة ، فاننا بشر ٠٠ **وبدأت ألحظ انها كانت لما تطول جلساتنا تلك ، تحاول ان تقتلع نفسها من مقعدها ٠ وكانت تنجح فى ذلك غالبـــا ، وتتركنى وحدى**

مخفقا فى أن أضبط مشاعرى . فلم ألبث أن ألفت ، كلما رأيتها تهم بالنهوض ، ان امسكها من يدها واتشبث بذراعها لأردها الى مكانها .

وكان هذا هو بدء الشر .

★ ★ ★

وذات ليلة .. هبطنا الى الحديقة ، بعد العشاء ، وقد أعلن الربيع دفئـه ، وأذاب القمر ضحكاته الفضية فى النسيم الفاتر .. وكان كل شىء ساحرا يتهامس : الأزهار الناضجة بعبيرها .. والنخيل النحيل المشوق الباحثة هاماته عن احلامها فى السماء .. وأشجار الفاكهة المثقلة أغصانها بثمارها .

وكانت « لولو » وسط هذا الجمال ، لحن الطبيعة المكتمل البارع ، الذى لا يضارع . وطفقت أرقبها ونور القمر يعانق نور وجهها ، وأتفرس كل شىء فيها بنفس قد ذابت .. وضعفت

وكانت قد عقدت ساعديها وراء عنقها ، وأراحت عليهما رأسها ، وأغمضت عينيها .. وهكذا تركت ذراعيها تصنعان لمحياها اطارا من حسن لايحد !



وكانت فى هذا الوضع هى الفتنة فى ثوب امرأة ..

واختطفتهـا فى جنون بين ذراعى !

ولم تقاوم أول الامر .. كانت بين الاستسلام ، والاغماء .. كانت قد أضحت حطام تلك المقاومة الطويلة ، وذلك الكفاح العنيف الذى توج بالفشل !

ثم فتحت عينيهـا ..

وذادتنى عن شفتيها فجأة ٠٠ وأحسست بجسدها ينتفض - كأن رعدة حادة قد مرت به - وفى أذيال هذه الرعدة انبعثت واقفة ٠٠ وفرت وهى تغطى وجهها بكفيها !

فرت الى البيت ٠٠

★ ★ ★

ووجدت نفسى وحدى ، ذليلا ، غارقا مرة واحدة فى ذلك الندم الذى يثب توا من أعماق الضمير ، عقب الخطأ ٠

وبعد برهة سمعت « لولو » تصرخ صرخة يمزقها الرعب ، والأسى ، والاستنجاد !

وهرعت الى البيت ! ٠٠ وراءها !

واذا بزوجتى بدرية ملقاة عند عتبة النافذة المطلة على الحديقة ! ٠٠وكان جليا انها مائتة !

ونقلناها الى سريرها ٠٠ وبعد أن نشرنا على وجهها الغطاء الابيض ، حدق كل منا فى الآخر٠رأيت عينى « لولو » تنطقان بنفس السؤال الذى غدا يمزق قلبى : « **ان بدرية نهضت من سريرها ، وتماسكت ، ونجحت فى أن تصل الى النافذة المطلة على الحديقة ٠٠ فهل رأتنا ، ولم يحتمل قلبها الذى أنهكه المرض الصدمة ؟ ! ٠٠ فسقطت على الارض ، ميتة ؟ !** »

هذا كلام طويل ٠٠ لكن معناه كان يومض فى عينى الفتاة ، فى نظرة واحدة قصيرة ! ٠٠ وقد تهالكت الصبية الى الارض ، وألقت رأسها بين ذراعيها ، على حافة الفراش ، عند وجه الفقيدة٠٠وصاحت منتحبة : «فليعاقبنى الله٠٠فليعاقبنى الله !»

★ ★ ★

ودفنت بدرية فى القبر الذى رأيتنى أقف عنده اليوم ٠٠ وبكيناها سويا ٠٠ أنا ولولو ٠٠ وعبثا حاولت بعد ذلك أن اقنعها بأن من المحتمل أن يكون الامر كله وهما ٠٠ وان بدرية لم تر شيئا ٠٠ بل سقطت ميتة قبل ان تطل من النافذة !

لكنها لم تكن ميالة اطلاقا لأن تصدق ذلك ٠٠ ولم أكن أنا نفسى على هدى فى ذلك الامر ٠٠ بل كان عذابى أشد ٠

وفي بقية الليلة التى سهرت فيها الى جوار سرير زوجتى الميتة ، حدقت طويلا فى وجهها ، لأستشف الحقيقة ٠٠ وحاولت أن أعرف أهى زرقة المنية التى صبغت وجهها ، أم زرقة الخزى لى والأسى لغدرى ؟ ! ٠٠ لكن قناع الموت كان غامضا ، وكأنه نسج باحكام ذلك الابهام المخيف ليعذبنى !

وفي ندمنا تستنير بصيرتنا ، وتجر الماضى كله لتعرضه علينا فى جلاء موجع ٠٠ فهل كان حقا فى تلك النظرات التى رأيت زوجتى ترمقنى بها ، فى أيامها الاخيرة ، لون الشك ؟ وهل كانت تخفى فى ابتسامتها الشاحبة عذاب الريب فى انى أخدعها ؟ واننى أرقب نهايتها فى غير جزع ولا حزن ، بل ربما فى رضى ؟ !

ان هذه الظنون التى تتنكر فى ثياب الحقائق ، وتلبس باحكام قناعها ، قد صبغت نفسى بذلك الاكتئاب الذى لا يمحى ٠٠ ولعل ذلك هو ما جعلنى أقابل قرار لولو ، بأنها لا تستطيع أن تغدو لى زوجة ، باستسلام يائس ٠٠ وبعقيدة أن حرمانى منها هو العقاب العادل لى على زلتى الماضية !

وقد ماتت بعد ذلك فى نفسى الرغبة فى الزواج ٠ وعقدت تلك الكآبة الباطنة صداقة وثيقة بينى وبين قبر بدرية ٠٠ زوجتى ٠٠

وأمام ذلك القبر كنت أقدم دائما حسابا عن عنايتى بولدنا ، واعزازى اياه ٠

الخالدون



عظماء .. فى غير السياسة

عزيزى القارىء ...

فى الاعداد السابقة قدمت لك فى هذا الباب على التوالى قصص حياة : ((ديفاليرا)) .. و ((غاريبالدى)) .. و ((لويس باستير)) .. و ((اميل زولا)) .. و ((ماركونى)) .. و ((تشايكوفسكى)) .. ((فمصطفى كمال)) .. ثم ((شوبان)) .. و ((جى دى موباسان)) و ((مختار)) و ((تشارلس ديكنز)) و ((بيتهوفن)) و ((موسولينى)) و ((شيللى)) و ((بلزاك)) و ((بودلير)) و ((دستويفسكى)) و ((موليير)) وأخيرا ((كونفوشيوس)) و ((جيته)) وبوذا والكسندر ديماس .. وهم أولئك العظماء فى السياسة ، والطب ، والادب ، والاختراع ، والموسيقى .. والفنون .. الخ

واليوم أقدم لك فيما يلى حياة الفنان الاعظم ((ميكل أنجلو))

وفى الاعداد التالية اعرفك باذن الله بهؤلاء الذين تشتاق الى معرفتهم منذ بعيد : لورد بيرون ، براوننج ، شوبرت .. فولتير ، شوبنهاور ، نيتشة ، ارسطو .. داروين ، اينشتين .. شكسبير ، اديسون ، فورد .. والتر سكوت ، كولمبوس ، الاسكندر المقدونى ، بطرس الاكبر ، فردريك ، بسمارك .. رفاييل ، ليوناردو دى فنشى ، وغيرهم



أعلام الفن

ميكيل أنجلو

قصة حياة وكفاح الفنان الأعظم !

التلميذ يتفوق على استاذه !

◆ **كان** « ليوناردو دافنشى » مارا فى ميدان « ديللا ترينيتا » بمدينة فلورنسا ، مزهوا بمظهره الأنيق وابتسامته الجذابة ، حين صادف جماعة من مواطنيه البارزين جالسين على مقعد من مقاعد الميدان يتناقشون فى مقطوعة من شعر شاعرهم العظيم « دانتى » . فلما رفع أحدهم بصره ورآه هتف بهم : « أيها السادة .. هذا هو الرجل الذى يستطيع أن يحسم مناقشتنا ! »

فى تلك اللحظة ظهر فى الجانب الآخر من الميدان شاب ينم وجهه ، بأنفه الافطس المكسور ، عما تنطوى عليه نفسه من ضغينة وحقد على الدنيا بأسرها ! .. **كان شعره القصير المشعث يتدلى على جبهته فى غير نظام ، وثيابه رثة مهملة ، وحذاؤه مغطى بطبقة من غبار الرخام ، ويداه خشنتين تعلق بأظافرهما آثار من معجون الطفل .. فأشار اليه ليوناردو وقال لرفاقه : « هذا هو « ميكيل انجيلو » أيها السادة .. أنه خير من يشرح لكم شعر دانتى ! »**

لكن انجيلو ، الذى كان دائما مرهف الاحساس بالاهانات ، حمل قول ليوناردو على محمل التحدى المباشر ، فصاح به فى سخرية : « بل فلتشرحه أنت لهم ! انك قدير على كل شىء .. أو لم تصنع نموذجا لحصان ثم نبذت المهمة لأنك عجزت عن صبه فى قالب من البرونز ؟ »

ومضى ميكيل انجيلو فى طريقه بعد أن نفس بهذا الانفجار عن حنقه المكبوت على حظه من الحياة .. فقد كان مايزال شابا ، مغمورا نسبيا ، فى حين كان ليوناردو – الذى يكبره بثلاثة وعشرين عاما – محسوبا فى عداد أساطين الفن فى تلك الأيام .. ولم يكن يدور بخلد انجيلو يومئذ انه سوف يتفوق على منافسه ، سواء فى الثروة أو المجد !

رب ضـــارة نافعة !

◆ **كان** أبوه - « لودوفيكو دى ليوناردو بيوناروتى » - عمدة (كابريز) .. ونشأ الفتى فى أسرة جميع أفرادهـا من الذكور ، فقـد كان له أربعـة أخوة ، ليست بينهم أنثى واحدة ! .. حتى أمه ماتت وهو بعد فى السادسة من عمره . وكان الأب رغم نبل محتده فقيرا ، بلا عمل فى أكثر الاوقات ، ومن ثم كان سىء الطبع عنيفا فى معاملة أولاده . وكان أخص مايثير غضبه قول ابنه « ميكيل انجيلو » المتكرر أنه يريد أن يصير « فنـانا » ! .. فقد اعتزم الأب ان لا يسمح لفرد من أسرة بيوناروتى باضاعة وقتـه فى عمل « تافه » كالرسـم بالفرشاة أو النحت بالازميل ، وانما ينبغى على أولاده الخمسة أن يشتغلوا بالتجارة وأعمال البنوك ، مثل أبنـاء أسرات فلورنسا الكبيرة ! .. وهكذا أخذ الأب ابنه الحالم بالشدة والصرامة ، محاولا أن يبث فيه روحه « العملية » .. ولكن بلا جدوى ، فبرغم ضربه وتعنيفه اياه ، أصر ميكيل انجيلو على أنه يريد أن يصير فنانا ! .. وعندئذ أدخله أبوه ، مضطرا ، معهد « شرلانداجو » الفنى .. ونفض يده منه يائسا !

وكان ميكيل وقتئذ لم يجاوز الثالثة عشرة من عمره

كان « شرلانداجو » فى ذلك الحين يشتغل برسم جدران كنيسة (سانتا ماريا) ، فعهد الى تلميذه الجـديد « ميكيل » بمهمة طحن مواد الالوان ونقل بعض الرسـوم من نماذجها الدقيقة التى أعدها الأستاذ من قبل .. **فجاءت صور التلميذ المنقـولة أروع من الأصـــل ، الأمر الذى أثار غـيرة « شرلانداجو » منه ، فأخذ يضايقه بكافة أساليب المضـايقة الحقيرة ! .. وأحس التلميذ المرهف الاحساس بما يكنه أستاذه نحوه من شعور وضيع ، بعد ما قاساه من أبيه في الماضى من تنغيص ، ففقد الفتى الناشىء تدريجا ثقته فى محبة البشر .. ولازمته هذه الريبة حتى آخر أيام حياته !**

وقد كان من حسن حـــظ ميكيل انجيـــلو فى الواقع أن أستاذه شرلانداجو قد نفره منه على هذه الصورة ، حتى انتهى به الأمر الى التخلص منه باحالته الى زميـــله الاســـتاذ « برتولدو » • وكان هذا شيخا مسنا يتولى تعليم تلاميذه فن النحت على نماذج من آثار « حديقة مديتشى » القـــديمة التى كانت قد اكتشفت حديثا •• وكان ذلك المكان بالنســـبة الى ميكيل انجيلو بمثابة « جنة عدن » ، ففيه تعـــلم الفن الذى خلق الله يديه كى تمارساه •• وفيه قابل الرجل الذى قدمه الى عالم الثقافة ، والفن ، والموسيقى ، والشعر ، والجمـــال ، والدعابة •• وكل ماكانت روحه الشابة متعطشة اليه !

•• فذات يوم ، فيما كان ميكيل انجيلو ينحت وجه شيخ مسن ، فى حديقة « لورنزو دى مديتشى » ، صـــادف ان كان لورنزو الشهير بلحمه ودمه يتنزه فى الحديقة •• فوقف يتأمل التمثال الصغير برهة ، ثم التفت الى المثال الشـــاب قائلا :

« يابنى •• ألا تعلم أن الشيخ المتقدم فى السن لابد أن يكون قد فقد بعض أسنانه ؟ » ••



واذ ذاك تنـــاول الشاب أزميله فكسر به احدى أســـنان التمثال ثم التفت الى محـــدثه متســـائلا : « هـــكذا ؟ » •• فضحك لورنزو وقال : « نعم ، هـــكذا »

الدنيا تقبل عليه !

• **وأعجب** لورنزو بـــالفتى الموهوب الذى لم يتجاوز الرابعة عشرة ، فأخذه الى قصره حيث سمح له بالجلوس الى مائدته ،

واللعب مع أولاده ، وأهداه معطفا بنفسجى اللون ٠٠ ثم أجرى عليه مرتبا شهريا قدره خمسون ريالا ، وفتح له عينيه على أمجاد العالم « الوثنى » الذى يعيش فيه ٠٠ وهناك تذوق انجيلو الجمال وجرع الحكمة من شفاه أحكم الفلاسفة والشعراء والكتاب الذين كانوا يترددون على قصر « مديتشى » من شتى اركان الأرض ٠٠ وحول مائدة مديتشى ـ مركز حضارة العصر ـ كان « ابوللو » رب الشعر و« أفلاطون » نبى المعرفة ، محور أحاديث السامرين ٠ وفى ظل هذا التأثير الوثنى وجد انجيلو التشجيع الذى أغراه على انتاج عمله الفنى الأول ، وهو لوحة بارزة تمثل معركة بين البشر والحيوان ، ويتجلى فيها جمال الأجسام العارية على النمط الاغريقى ٠٠

وذات يوم دهمت انجيلو الكارثة التى خلفت أثرا فى نفسيته وحياته طيلة عمره بعد ذلك ٠٠ فقد بدرت منه كلمة انتقاد لفن زميل له من تلاميذ المعهد يدعى « توريجيانو » ، **وكان هذا فتى سريع الغضب قوى البنية ، فلكمه بقبضته لكمة كسرت عظام أنفه وشقت لحمه ، فأغمى على انجيلو من قوة الصدمة وحمل الى بيته وقد حسبه القوم ميتا ٠٠ وحين التأم الجرح نظر الشاب الى وجهه فى المرآة فرأى آثار الندبة تشوه معالمه ! ومنذ ذلك التاريخ انطوى على نفسه ، وبدأ ينظر الى الجنس البشرى كله بسخط كامن ٠٠ ولم يشف قط تماما من تأثير ذلك التشويه الجثمانى والنفسانى الذى أصابه !**

فى تلك الفترة بلغت مسامع انجيلو دعوة المصلح الدينى والسياسى « سافونا رولا » ، الذى حمل على الفساد الوثنى والوحشية التى يمارسها حكام المدينة السريين ، فكان لتلك الصيحة أثر بالغ فى نفسية الفنان الشاب المرهف الاحساس ، حتى لقد دخل أحد اخوته بسببها الدير ، وفكر انجيلو نفسه فى أن يتبعه فيهجر فنه ودنياه بأسرها وينزوى بدوره فى

أحد الاديرة ! ٠٠ فلقد نشب فى أعماقه صراع عنيف بين الالحاد والدين ، بين الجمال والواجب ، بين مبادىء العالم القديم والمثل العليا للعالم الجديد ٠٠ لكن الصراع لم يلبث أن خمد بعد حين ، واستطاع انجيلو ــ لحسن حظ الفن والانسانية ــ أن يوفق بين النقيضين ، ويسخر فنه لخدمة المسيحية والوثنية فى آن واحد ، أو « يزوجهما » على حد تعبيره ، ويوحد بين قداسة الجمال وجمال القداسة !٠٠ وقد أسبغ عليه هذا التوفيق سكينة نفسية ، وصار المبدأ المسيطر على جميع آياته وروائعه فى مستقبل حياته ٠٠

فى تلك الاثناء مات « لورنزو » حاكم المدينة ، وراعى الفن والفنانين ــ وفى مقدمتهم انجيلو ــ فتلت ذلك فترة اضطراب سياسى ، اذ استطاع « سافونا رولا » أن يؤلب الجمهور ضد طيش واستهتار «بييرو دي مديتشى» ابن لورنزو ٠ ولم تلبث جيوش شارل ملك فرنسا أن زحفت فى اتجاه المدينة ٠٠ وقام نفر من المتعصبين للدين باتلاف الكثير من الصور والتماثيل الجميلة فى مختلف أنحاء فلورنسا ٠٠ فتراكم فى الشوارع حطام كنوز الفن المدخرة طيلة قرون ! ٠٠ وأمام هذه العاصفة ، اضطر الشاب الى أن يفر من المدينة !

الغيرة والحسد ٠٠ يطاردانه !

◆ **ولجأ** أول ما لجأ الى بلدة (بولونيا) ، حيث عهد اليه المشرفون على كنيستها بصنع تمثال على صورة « ملاك » يمثل الوحدة بين العالم القديم والعالم الجديد ٠٠ ولكن ، مرة أخرى ، طاردت انجيلو قوى الحسد والغيرة من جانب زملائه الفنانين ذوى النفسيات الوضيعة ، الذين رأوا فيه منافسا متفوقا يخشى خطره ٠٠ فاضطر الشاب تحت ضغط هذه المطاردة الفنية أن يهجر بولونيا ويعود الى فلورنسا ٠ لكنه لم يمكث فى مسقط رأسه غير فترة قصيرة ، شد بعدها رحاله قاصدا

الى روما ، كى يبحث فيهـا عن حظه الضائع • ولم يـكن قد جاوز الواحدة والعشرين حين وضع قدمه فى مدينة الفاتيكان ذات الماضى العريق •

لـكن حراس الايمان وسدنة الدين كانوا قد خانوا رسالتهم، فحين وصل ميكيل انجيلو ـ سنة ١٤٩٦ ـ وجد روما مدينـة للهو ، والموسيقى ، والجريمة !•• للعلم ، والجمال ، والفساد ! ••للرقص ، والوليمة ، والشعر ، والسم ! •• للمعابد البديعة، وزنزانات السجون الـكريهة !•• للتدين فى بيوت الفقراء ، والشهوة فى بيوت الأغنياء !

•• ومن ثم عاش « انجيلو » عامين أشبه بالغريب عن هذا الوسط ، أو النغم الناشز عن الدنيا كلها ! •• كان لسان حاله يقول : « ليس لى أصدقاء •• ولست بحاجة الى أصدقاء•• ولن يكون لى أصدقاء ! »

لكنه بعد انقضاء العامين لمس اعترافا بفنه ، حتى فى مدينة الانانية المتوحشة والتنـافس الذى لا يرحم ، واشترك فى مسابقة لصنع تمثال للمسيح والعذراء كى يوضع فى كنيسـة القديس بطرس ، فكتب فى مواصفات المشروع : « سوف يكون التمثال أروع مما يستطيع أن يصنع أى فنان معاصر ! »

وكان هو الرابح فى المناقصة ، فأسندت اليه المهمة ، وصنع التمثال •• وهرع أهل روما لمشـاهدته ، فرأوا المسيح الميت راقدا فى حجر امرأة رائعةالجمال ، تصغره فى السن بكثير !•• وأعجب النظارة بالعمل الفنى ، لكنهم دهشوا وسألوا المثال الشاب : لماذا جعل الأم أصغر سنا من الابن ؟ •• فأجابهم انجيلو : « ألا تعلمون أن أية امرأة طاهرة تحتفظ بشبابها أعواما طويلة ، اكثر من سواها ؟ فكم بالاحرى تحتفظ بشبابها العذراء مريم ، آلتى لم تستسلم يوما لشهوات البشر ، المحللة والمحرمة على السواء ؟ ! »

التمثال ٠٠ « العملاق » !

◆ **وقد** ظل انجيلو طيلة حياته يرسم وينحت الصور والتماثيل لا وفقا لمعتقدات العصر ، بل وفقا لفلسفته الخاصة ٠ وكان من أوائل الفنانين المحدثين الذين طبقوا علم النفس في الفن ! ٠٠ وحين فرغ من ذلك التمثال استسلم لاول مرة لرذيلة الغرور ، فقضى ليلة منفردا بالتمثال داخل الكنيسة ، فى غير حضور أحد ، يحفر اسمه ومسقط رأسه على قاعدة هذا العمل الفنى العظيم ٠ وكانت المرة الاولى والاخيرة التى وقع فيها باسمه على عمل فني من صنعه ! ٠٠ فمثل الاشجار والجبال التى تحمل طابع الطبيعة ، كانت تحف ميكيل انجيلو وآياته فى غنى عن أن يكتب عليها اسم خالقها !

وفى سن السادسة والعشرين عاد انجيلو الى فلورنسا ٠٠ وأثناء مروره بفناء الكاتدرائية الكبرى فيها رأى كتلة ضخمة من المرمر مهملة فى مكانها منذ ست واربعين سنة ! ٠٠ فعرض على أولى الشأن أن يتيحوا له الفرصة كى يصنع منها شيئا جميلا ٠ وقبل عرضه ، فبدأ العمل فيها يوم ٢ اغسطس سنة ١٥٠٢ ٠٠ وفى يناير سنة ١٥٠٤ كان تمثال الملك « داود » الضخم الشهير قد تم !

وأطلق الناس على التمثال : « العملاق » ! ٠٠ وبلغ من شهرته أن صار الايطاليون عامة يؤرخون الاحداث الهامة تبعا له فيقولون : « فى السنة التى أقيم فيها العملاق » ٠٠ ومن يزور اكاديمية فلورنسا للفنون الجميلة اليوم يرى فيها هذا التمثال قائما جبارا ، بجسمه القوى الرياضى ، ورأسه الصغير ، وخصره النحيل ، وذراعيه النحيلتين ، ويديه القويتين اللتين تبرز أوردتهما الدموية للعيان ٠٠ وبيده اليسرى يتناول « المقلاع » من على كتفه ٠٠ وفى يده اليمنى يمسك بالحجر متأهبا لاطلاقه على عدوه الجبار « جوليات » ! ٠٠ على أن اجمل ما فى التمثال هو

وجهه ، الذى ترتسم فيه سمات الرجولة الكاملة ، والعـزم الراسخ ، والاحتقار للاعداء ٠٠ التى كانت سـمات انجيلو نفسه ، فقدكانتلكل من « فنانفلورنسا » و « منشد المزامير » نفسية واحدة : نفسية الفنان والمحارب فى آن واحد !

وأعادت شهرة « العمـلاق » صانعه الى روما ، حيث كان البابا الجديد « يوليوس الثانى » مشوقا الى أن يخلد ذكراه بقبر لم يشهد العالم له مثيلا ! ومن يصنع له هذا القبر العظيم غير انجيلو ؟٠٠ وهكذا استعان به على تحقيق حلمه ، فأعد الاثنـان تصميما للقبر الفاخر يتكون من أربعين حارسا ـ بحجم الانسان الطبيعى ـ يحيطون بجثمان البابا ، وكلهم يمثلون أعظم قديسى الماضى وأبطاله وأنبيائه

وسأل البابا انجيلو : « كم يتـكلف هذا التمثال ؟ » ٠٠ فأجاب الفنان ، مغاليا فى التقدير : « مائة الف ريال ! » ٠٠ واذ ذاك قال البابا : « وما قولك لو جعلنـاها « مائتى الف ريال ؟ » ٠٠ وقبل أن يفيق انجيلو من ذهوله ، هتف به البابا وهو يصرفه : « لا تقف هكذا محملقا أيها الشاب ٠٠ اذهـب لتبدأ العمل ! »

٠٠ والوشاية تتعقبه !

◆ **وسافر** انجيلو الى (كارارا) حيث انتقى عشرات الاطنان من الرخام الفاخر ٠ ولم تكد هذه الجبال المرمرية تصل الى فناء كنيسة القديس بطرس حتى بدأ انجيلو العمل فى صوغهـا وبعث الحياة فى مادتها الحجرية ٠ ولـكن ، هنا تدخل الحسد والغيرة لعرقلة جهود الفنان النـاجح ، فسرعان ما بدأ البابا يتراخى فى امداد انجيلو بالمال المتفق عليه ! وظهر أن منافسا له يدعى « برامانت » ادخل فى روع البابا آن اقامةالقبر اثناء حياة صاحبه فأل سيىء ، واقترح المتحدث أن يتولى هو تصميم



العمل الجديد فيعيد بناء كنيسة القديس بطرس بحيث تصبح تحفة للاجيال !

واقتنع البابا بكلام الواشى .. فلما ذهب انجيلو ليقبض قدرا من المال ، طلب منه الحراس أن يعود فى الغد .. ولبثوا يكررون له الوعود الباطلة ويحولون بينه وبين مقابلة البابا - بأمر من البابا ! - يوما بعد يوم !.. حتى جابهه أحدهم مرة بقوله : « لدى أمر بمنعك من الدخول ! » .. فاستشاط انجيلو غضبا وصاح بمحدثه : « اذن قل للبابا انه اذا ارادنى فى المستقبل فليحضر بنفسه الى ! »

وكانت نتيجة ذلك انه اضطر الى الفرار من روما .. فعاد الى فلورنسا بقلب يثقله المزيد من سوء الظن بالانسانية . أحس انجيلو الآن ان العالم بأسره يقف ضده ! صار يحكم اغلاق مرسمه خشية أن يتسلل اليه أحد منافسيه فيسرق أفكاره ومشروعاته .. وبلغ من ارتيابه فى مقاصد الناس أن صار يرتاب فى نية خياطه اذا وجد فى سترته عيبا ما ، فيخيل اليه ان الرجل قد فعلها متعمدا بغية اغاظته ! .. وكلما جرح شخص احساسه كان ينطوى على نفسه فيعتصم بكبريائه ويأبى ان يدع أحدا يقترب منه !

واستدعاه البابا مرارا وتكرارا ، لكنه رفض الذهاب ! .. فأرسل اليه من يبلغه أن البابا « يتوسل اليه » أن يذهب !.. وفى هذه المرة قبل انجيلو أن يذهب لمقابلته ، ولكن على أن

يلتقيا فى منتصف الطريق ٠٠ فى بولونيا وليس فى روما !

وقال له البابا : « انك رجل غـريب ٠٠ بدلا من ان تحضر الينا انتظرت حتى جئنا اليك ! »

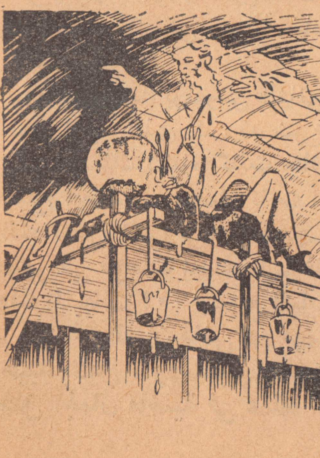
ـ ان قداستك قد اسأت الى أكبر الاساءة

ـ لكنى سأمحوها ٠٠ أعدك بذلك

ووضع يده على رأس الفنان الراكع عند قدميه ٠٠ وباركه !

لـكن البابا كان مايزال متشائما من فكرة اعداد قبره أثناء حياته ، فنبذها وكلف انجيلو بمهمة أخرى بدلا منهـا : أن يرسم سقف كنيسة (سستين) بمقر الفاتيكان ٠٠ فأدى انجيلو المهمة كأروع مايكون الاداء ٠ قضى أربع سنوات راقدا على ظهره طيلة النهار فوق محفـة خشبية يرسم ويلون ! ٠٠ وبلغ من اعتياد عينيه وعضلات بصره لهـذا الوضع أن ظل بعد ذلك شهورا عاجزا عن القراءة ما لم يضع الخطاب او الـكتاب الذى يبغى قراءته فوق رأسه ويرفع بصره اليه من أسفل !

الأنامل الخالقة !



◆ **وحين** أتم انجيلو رسـم السقف الذى يحوى صور اثنى عشر رسولا وقديسا ، ذهب البابا ليتفرج عليه ٠٠ فلاحظ أن ثياب الرسل الذين رسمت صورهم أولا قد حليت بالذهب والتطريز ، بينما حذف ذلك من ثياب الباقين ٠ وحين سأل انجيـلو عن السبب أجاب بقـوله : « فى عصر هـؤلاء الآخرين كان النـاس فقراء

وأمناء ، يملكون الايمان لكنهم لا يملكون الذهب ! »

ولئن كان قد قيل فى وصف شكسبير : « ان الله قد ضاعف الخليقة حين خلق شكسبير ! » .. فان هذا القول يصح أيضا فى وصف ميكيل انجيلو ، فان سقف كنيسة « سستين » انما هو الخليقة خلقت من جديد ! .. كيف لا وقد صور فيها انجيلو مراحل خلق الدنيا ، مرحلة بعد مرحلة : ففى البداية نرى ظلاما ووحشة رهيبة .. ثم تأتى اللحظة السابقة لمولد العالم ، وهى لحظة حافلة بعوامل الترقب والانتظار .. ثم نرى سحبا من الملائكة .. ثم يفصل الرسام النور عن الظلمة .. ثم يصور الشمس والقمر .. ويفصل الماء عن الارض . ويبعث الحياة فى آدم بلمسة من اصبعه .. ويصوغ حواء من ضلع آدم .. ويضع أمامها أشجار الحديقة والفاكهة المحرمة .. ثم يرسل ملاكا ليطرد آدم وحواء من الجنة بسيفه الذى يشع منه اللهب .. ويرسل طوفان غضبه على البشر الخطاة .. وحول هذه الصورة الوسطى للخليقة والدمار يجلس الانبياء والرسل والحواريون ينظرون ، ويفكرون ، ويؤملون ، ويصلون .. وقد انهمك كل فى رسالة خاصة ، غايتها الوساطة بين الله والانسانية

ومات البابا يوليوس الثانى ، فطالب ورثته ميكيل انجيلو باتمام القبر الذى كان قد شرع فى انشائه أثناء حياته .. **ورغم ان تلك الايام كانت حافلة بالحروب والاوبئة التى تجتاح ايطاليا ـ بحيث كانت الابنية تدمر ، والصور تحرق ، والتماثيل البرونزية (ومنها بعض تماثيل انجيلو نفسه) تصهر فى فوهات المدافع ! ـ فان الفنان مضى فى عمله ، غير آبه بهذه المثبطات !.. وتتابع البابوات ، فانتخب كل منهم ، وحكم ، ثم مات ، والفنان ماض فى مهمته !.. وتواترت عليه الامراض ، وخيبة الامل ، ودسائس الاعداء ، وأنامله التى بدعها الله كى تخلق الجمال ماضية فى عملها الملهم !**

واتهمه حساده بالكسل ، والانانية ، بل وعدم الامانة ، فزعموا أنه قد ارتشى من أصحاب محاجر (كارارا) كى يمون القبر برخامهم دون غيره من أنواع الرخام !٠٠

ورغم أن التهم كانت ملفقة ، فقد أصغى اليها الرؤساء فأجبروا انجيلو على استخدام نوع آخر من الرخام يقل عن الاول فى الجودة ٠٠ ومع ذلك فانه مضى فى مهمته ، شاكيا مرارة نفسه للمرمر الاخرس ، وهو ينطقه بأفصح بيان !

وهو يعطينا صورة دقيقة لشخصه فى تلك الآونة ـ وكان فى السابعة والاربعين من عمره ـ فيصف صورته بهذه العبارات : شعر قصير مجعد ، وجبين غضنته الآلام ، وعينان مفكرتان نافذتان ـ لكنهما ذاهلتان ـ وشفتان ضيقتان مضغوطتان ، فى حزم وتحد ٠٠ ولحية قصيرة سوداء ٠٠ والوجه كله يسيطر عليه الانف العريض « الأفطس » المكسور ٠٠ وهى قسمات رجل عرف الحزن ، والتمرد ، والسخرية ، والجمال ، والعناد ، والاستسلام ٠٠ قسمات شخص خرافى وقديس !

٢٣ سنة ٠٠ فى نحت ضريح !

◆ **وأنفق** فى صنع ذلك الضريح ثلاثة وعشرين عاما !٠٠ أودى الطاعون خلالها بأخيه ، وكاد يودى به هو ٠٠ ولكن حتى فى تلك الظروف « المستحيلة » أفلح الفنان فى أن يفجر النار من الرخام !٠٠ واخيرا ـ فى سن السبعين ـ فرغ من مهمته ٠ وكان واحد من حراس القبر الاربعين يرمز الى شخص « موسى » ، وقد جاء تمثاله أسمى صورة لفن النحت الحديث ، فان نصف التمثال على شكل اله ، ونصفه على شكل انسان ـ رمزا للوثنية والمسيحية ـ وفى جبهته الضيقة قرنان ٠ وهو يصور موسى جالسا وقد تدلت لحيته الطويلة حتى ركبتيه ، وامتدت ذراعاه العاريتان الى جانبيه ، وأمسك بيمينه القوية

حجر الشريعة . أما حركة قدميه فتنم عن التأهب للنهوض لمخاطبة شعبه المتمرد بقوة ، واعلانهم بأوامره ووصاياه .. وفى عينيه الحادتين تهديد ووعيد ، وفى شفته السفلى غضب وانذار .. وبالاختصار فهو يرمز الى النبى الرهيب المرسل من قبل اله غاضب ، كما يرمز الى الادانة الصارمة الصادرة من الانسان الاسمى على البشر الحمقى المتوحشين !

وفى تلك الحقبة كان ميكيل انجيلو نفسه ـ مثل موسى ـ يدين البشرية فى أعماقه ، دينونة أظهرها فى فنه حين عاد الى جدران كنيسة (سستين) فرسم عليها لوحات تكميلية تمثل « يوم الدينونة الاخير » .. وقد جاءت اجساد اكثر المخلوقات فى رسمه عارية من الثياب ، فعلق كردينال من رجال الدين على ذلك بقوله : « ان هذه اللوحة تصلح لحانة ، وليس لكنيسة ! » .. وحين طلب البابا من انجيلو أن يكسو أجساد العرايا أجابه الفنان فى حدة : « فليعن صاحب القداسة بأرواح رعاياه ، ويدعنى أنا أعنى بأجسادهم ! »

واللوحة تمثل حشدا كبيرا من البشر يحيطون بالمسيح ، وقد بدا فى هذه المرة كاله للانتقام وليس الها للحب !.. لقد جاء يوما ليهدى العالم الى طريق الخير ، فنبذه العالم . واليوم يأتى مرة أخرى ولكن ليدين العالم ، وفى دينونته الآن لا أثر لشفقة ولا رحمة وانما عدل صارم ، وجلال مهيب ، وقوة طاغية .. والعذراء تقف خلفه حزينة عاجزة ، تغض بصرها عن ابنها وهو يسوق الجماهير المذعورة الى مقرهم الاخير ليلقوا جزاءهم : أكثرهم الى أسفل ، حيث الجحيم .. وحفنة ضئيلة منهم الى أعلى حيث النعيم !.. وهكذا تصور اللوحة الصراع الابدى بين جهنم والفردوس ، وتلخص تاريخ الجنس البشرى فى صور ترمز لمصير الانسان ..

غرامه الاوحد !

◆ **فرغ** انجيلو من لوحة يوم القيامة فى ليلة عيد الميلاد من

عام ١٥٤١ .. وكان قد بلغ غايته من الثراء والشهرة ، وبات موضع حسد جميع فنانى العالم ،لكنه كان أبعد الناس عن السعادة ، وأقرب الى الشقاء منه فى أية فترة مضت !.. فانه كان قد دفع ضريبة طول العمر : فقد أصدقاءه واحدا بعد واحد ، ومنهم ثلاثة فقدهم فى فترة قصيرة : أحدهم فتى فى الخامسة عشرة ، فنان يافع كان انجيلو المحروم من النسل قد أحبه بحنان الاب !.. وثانيهم عم ذلك الفتى وكان من أخلص المعجبين بأنجيلو والمتحمسين لفنه . وثالثهم ، أو بالاحرى ثالثتهم واخطرهم أثرا فى فجيعة الفنان ، امرأة ذكية جميلة تدعى « فيتوريا كولونا » ، **كانت هى المرأة الوحيدة التى أظهرت نحو انجيلو أكثر من مجرد الاعجاب ، فتبادلا - طيلة أعوام - عواطفهما المكبوتة فى باقة من الخطابات والقصائد التى تعد اليوم من أعظم كنوز الادب الايطالى !.. فلما انتزع الموت فجأة حلم انجيلو الوحيد الذى مناه بالحب ، وقف المفجوع بجانب جسد المرأة التى عبدها - دون أن يحتضنها قط ! - فتناول يدها الباردة وقبلها . وقد صرح فيما بعد لأحد خلصائه بقوله : « لاشىء يمضنى ويحزننى أكثر من أنى - حتى وهى على فراش الموت - لم أجرؤ الا على أن أقبل يدها ، دون شفتيها ! »**

وبموتها حرم الفنان العظيم من فرصته الوحيدة والأخيرة للسعادة الدنيوية .. وعلى أثر تلك الفجيعة انهارت صحته فرقد مريضا اسابيع ، يتأرجح بين الحياة والموت !

لكنه أبل من مرضه ، فان رسالته لم تكن قد تمت . كان عليه أن يتحف العالم بآية أخرى من آيات فنه ، يعتبرها البعض أعظم آياته على الاطلاق !.. كان فى الثالثة والسبعين حين سأله البابا أن يضع تصميم قبة جديدة لكنيسة القديس بطرس ، فرفض معتذرا بتقدمه فى السن وعجزه عن الاضطلاع بمهمة طويلة مثل هذه . لكنه قبل أخيرا تحت ضغط الحاح البابا ورجائه .ولم يكن

يأمل أكثر من أن يستطيع العمل فى المشروع الجديد أشهرا معدودة ٠٠ لكن البابا الذى كلفه بتلك المهمة مات ، ومات بعده أربعة بابوات خلفوه ، والفنان الشيخ ما يزال على قيد الحياة ، ماض فى عمله !٠٠ حتى أتمه بعد ستة عشر عاما ، لم تفارقه خلالها قواه الجسمية أو العقلية ٠٠ وأخيرا ـ فى سن التاسعة والثمانين ـ استراح من عمله فى ذلك الصرح الفنى الرائع

لكنه لم يسترح الا لكى يبدأ عملا جديدا ، فقد قضى الاشهر الاخيرة من حياته يضع تصميم أربعة تماثيل لقبره هو ، وينحتها بيديه ٠٠ **وفى يوم ١٢ فبراير سنة ١٥٦٤ وقف على قدميه طيلة اليوم ينحت الرخام بأزميله ٠٠ وبعد يومين خرج على ظهر جواده أثناء انهمار الامطار ٠٠ وبعد أربعة أيام أخرى ، لفظ نفسه الاخير ٠٠ وهو محتفظ بوعيه الكامل !٠٠ وفى لحظاته الاخيرة أعرب لقسيسه عن أسفه ، لا على انتهاء حياته في ذاتها ، وانما على أنه يموت وهو لم يكد يصل الى مرحلة اتقان فنه !**

حوافز الحياة



النفس والجنس .. والمجتمع ..

عزيزى القارىء ..

فى هذا الباب قدمت لك فى الاعداد الماضية من كتابى ، الكتب الآتية على التوالى : ((كيف تصارح اولادك وبناتك بالحقائق الجنسية)) ثم ((طريق السعادة الزوجية)) و ((مركب النقص)) و ((حواء الجديدة)) و ((كيف تقهر الخجل)) و ((كيف تقهر القلق وتستمتع بالحياة))

ثم قدمت لك بعد ذلك من ((فنون الحياة)) التى شرحها المفكر العالمى ((اندريه موروا)) : فن الحب ، فن الزواج ، فن الحياة العائلية ، فن الصداقة ، فن العمل ، فن الزعامة ، فن التفكير ، وأخيرا فن الاستمتاع بالشيخوخة ..

ثم قرأت معى فى هذا الباب فصول كتاب ((غزو السعادة)) لبرتراند رسل فكتاب فرويد المشهور ((التحليل النفسى)) ثم ((الجنس الآخر)) ، و ((عش حياة ايجابية)) ، و ((أبواب الحب المغلقة)) ، و ((فن الحب)) ، للشاعر الرومانى أوفيد .. ثم ((الانتصار على الخوف)) ، للاخصائى المعروف ((جيمس بندر)) .. و ((عش بحكمة تعش سليما)) للاخصائى الالمانى ((برنارد ديتمار)) ثم : ((كيف تتجنب متاعب الاعصاب المرهقة)) لويلفريد نورثفيلد .. و ((كيف تفسر أحلامك)) لهربرت هيسبرو .. و ((كن متفائلا)) .. ثم ((تاريخ الغزل)) .. و ((كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة)) .. و ((اتح لعقلك حياة جديدة)) ، ثم الجزء الاول من ((دنيا الحب والسعادة)) ... واليوم أقدم لك الجزء الثانى من هذا الكتاب



دنيا الحب.. والسعادة!

للكاتب الألماني الأشهر "اميل لودفيج"

تلخيص : عبد المنعم محمد الزيادى

مع « لودفيج » .. فى ركب الحب !

◆ قدمت لك فى العدد الماضى من « كتابى » الفصول الأولى من كتاب المفكر الألمانى الأشهر « اميل لودفيج » : « دنيا الحب .. والسعادة » ، ورأيت معى كيف يقع الانسان فى الحب ـ طبقا لمنطق المؤلف ـ وكيف تبدأ قصص الغرام بمعركة أو صراع بين جسدين ـ وان يكن صراعا من نوع خاص ـ اذ تنتهى المعركة بين الحبيبين بانتصارهما كليهما ، لا بانهزام أحدهما وانتصار الآخر ، كما فى سائر المعارك

وبعد أن أشار « لودفيج » فى تلك الفصول الى أن شرارة الحب قد تتولد من مجرد التقاء الأعين ، أرشدنا الى سحر المرأة وأين يكمن ، وشرح لنا دور الشك فى احياء الغرام ، وأثر القبلة الأولى والزيارة الأولى فى الهاب جذوته !

والآن تعال نقرأ معا الفصول التالية من هذا الكتاب الممتع .. (وقد حرصت فيها على استعمال لفظ « الزوجين » مكان لفظ « الحبيبين » فى مواضع البحث الجنسى ، بحكم اختلاف مدى الحرية الجنسية والتقاليد بين بلادنا .. وبلد المؤلف !)

هل تصبح المرأة هى البادئة باعلان الحب ؟

◆ **أما** ان الرجل ينبغى له أن يتخذ دور البطل فى لعبة الحب ويكون هو البادىء المجترىء ، فهذا هو الوضع الذى ارتضاه الأزل ـ وويل لجيل يقلب الأوضاع ! ـ فلا المرأة المسترجلة ، ولا المرأة العبقرية بقادرة أبدا على أن تكون البادئة بالمصارحة ، بل ينبغى أن يبدأ الرجل كل شىء .. وليثق من أن المرأة قد دبرت من ناحيتها فى الواقع كل مايخصها ، وتذرعت بكل ما يجعلها مرغوبة منه ، مشتهاة .. فكما أنه قد انتقى رباط عنقه ، وتحرى أن يعجبها ويسرها ، كذلك هى قد انتقت عطرها ، وأسباب زينتها ، وهذا الثوب المحبوك ، حتى لو كانت تثق سلفا أن فارسها واقع لامحالة فى أسرها !

** ·· وبمرور الايام نراهما يختبران أحدهما الآخر بوساطة ثالث ، وفى وجود رابع وخامس ·· فالرجل يقارنها وهو يرقبها عن كثب بامرأة أخرى تدلف الآن من الباب ، ويرقص قلبه طربا عندما ينتهى من هذه المقارنة الى انها أجمل من الأخرى وأكثر جاذبية !·· وهى بدورها تقارن بينه وبين زوج صديقتها ·· وانها لترتعد لما يحتمل أن يجيب به عن سؤال وجه اليه الآن ·· ثم يصفق قلبها له استحسانا وتهنىء نفسها على حسن أختيارها عندما تراه يأسر مستمعيه بطلاوة حديثه ، وخفة روحه ، ويسبيهم بحسن استماعه وجميل صبره ·· فاذا ما انصرف القوم عن الرفيقين انتهى ذلك « السباق الخفى » ، وغمرتهما معا نشوة الفوز والانتصار !**

وعندما يدعوها الى « السينما » أو لتناول الطعام فى يوم صحو مشرق ، ثم ينادى بعد ذلك عربة كى تقلهما ، ترى جانبا كبيرا من القلق والاضطراب قد شاع فى نفسيهما ·· فقد اقتربت الساعة التى ستسقط يدها فيها ، دون شك ، بين يديه !·· وعند هذه الاشارة الأولى ، التى ربما تأخرت قليلا وسبقتها لمسة خفيفة من الساقين ، يبدأ غزو الجسد !·· وهنا ، قد يكونان تناقشا من قبل فى أخطر الأفكار ، وعرضا اجرأ الآراء ، ولكن اللمسة الأولى لليد تسرى فيهما مسرى الانذار ، وتنتقل المرأة الى ما يشبه الغيبوبة ·· فلا تعود فى تلك اللحظة تحس شيئا ما يتصل بالروح ، ولو أن ساعات وربما أشهرا قد تمر قبل أن يتم الغزو المنتظر !

غير أن هذا الاتصال الأول لليدين فى العربة ـ حتى ولو كانت المرأة تتوقعه ـ يعنى قرارا حاسما قاطعا ، وينتظم كل ما تنطوى عليه الظروف المقبلة !·· فليس هناك مايمكن أن

يدانى هذه الاشارة الأولى فى كل ما يحدث بين الزوجين !٠٠ وما أحس الرجل من قبل مثل هذا الاحساس عندما قبل يدها بعد أن تعرف بها ، فان لمسة من قفازها الآن تعنى تسليما له ، وتبث الاضطراب فى كليهما !

الحب الجنسى صورة من صور القتل !

• **وان** « غزو » الرجل للمرأة التى اختارها ، وبعده مع ذلك عن البدائية والهمجية ، وتبديده الظلمات التى تكتنف علاقتهما أحدهما بالآخر ، لهى مهمة تحتاج من الجرأة والاقدام الى قدر كبير ٠٠ فان أصح الابدان وأقواها تخشى العرى بقدر ماترغب فيه ! فحافز المرء القوى الى امتلاك الشخص الآخر ، ورغبته الجامحة ، لا يمكن أن تتأتى الا فى وقت من أوقات الذهول الذى يشبه ذهول المخدور أو المجنون !

وهؤلاء الذين بعد أن فرغوا من الاختيار ، ومن الخطوات التمهيدية جميعا ، قد ضربوا الساعة الثالثة بعد الظهر مثلا موعدا للقاء « جنسى » ، انما هم الاشخاص القليلو الحظ من المعرفة ، الضئيلو النصيب من الخبرة ، والا لما انتهوا بعد أن بلغوا سن الرشد والنضوج الى مثل هذا القرار !٠٠ فان مساء صاخبا ، حافلا بالرقص والمرح ، يسعه فى هذا المجال أن يؤتى تأثيره على شخصين لم يقر قرارهما بعد ، وأن يقربهما أحدهما الى الآخر ، حتى يصبح تسليمهما محتوما ليس منه مناص ! فما زال هذا الثالوث الازلى ــ الرقص ، والخمر ، والموسيقى ــ الى يومنا هذا ، هو القائد المحنك فى معركة الحب ٠٠ ولعل هذا هو السر فى أن الرجال الذين يهابون الخمر ولا يقربونها لا يعرفون من الحب الا قطرة من بحر ، كما أن النساء اللواتى ينفرن من الخمر قد يتزوجن

وينجبن أطفالا ، ولكن لا يسعهن قط أن يزعمن أنهن عرفن الحب المطلق ٠٠ والذى يحدث فى الساعة الاولى للتسليم انما هو الجنون ! ـ (ولعل الحب هو الصورة الأزلية الباقية من قتل الأخ لأخيه منـذ العصور المظلمة !) ـ فهنـالك تنقلب كافة الاوضاع التى تنظم حياتنا : فبدلا من أن يغطى الرجل جسده حتى فى مواجهة رجل مثله ، وبدلا من أن تأخذ المرأة حذرها كلما أوغل الليـل ، اذا بالشىء الذى لا يصـدق يحدث ٠٠ اذا بالرجل والمرأة يتجردان احدهما فى مواجهة الآخر ، ويخليان سبيل الحيطة والحذر ٠٠ واذا بالمحب ينعم النظر متعجبا مأخوذا فى عينى حبيبه ، يحـاول أن يستشف ما تحجبان ، واذا بفترات السكون الواجمة الساهمة تتملكه وتسيطر عليه ٠٠ تلك الفترات التى صورها « فاجنر » فى مقطوعته « ترستان » ٠ وهنـا تتجـلى أوأصر القربى المتينة بين الموسيقى والحب : فهنـا فقط تحفز العواطف المهتـاجة الثائرة المرء رغما عنـه ، الى تحقيق كل مطلب تفرضه عليه هذه العواطف ٠ **والواقع أن فرعين اثنين فقط من دوحة الفن هما اللذان يمثلان الحب ويماثلانه بصورة مباشرة: الرسم ، بمايخلق من أجساد بديعة متناسقة ، والموسيقى بما تخلق من نغمات تتجاوب مع عواطف البشر ٠ أما الشعر فليس بقادر على أن يصل الى مرتبة هذين الفنين الـكاملين اللذين جمعا الناحية الحسية وما وراء الناحية الحسية من عواطف البشر ٠٠ وأروع الشعر قد يقارب الموسيقى ، لـكنه لن يقارب قط ما وسـع « ليوناردو » أن يحمـله لوحاته المرسومة من معانى الحب !٠٠**
أما القصص والمآسى فهذه تعـالج دائما مشـكلات اصطدام الحب بالمجتمع ، أو اصطدامه بمشكلة الطبقات ، أو بما يشبه هذه المشكلات مما لاصلة له البتة بعناصر الحب الأساسية ٠٠ فالمعركة التى تدور رحاها بين طبيعتين ، تمهيدا لاتحادهما ، قلما يصورها شاعر أو أديب ، بمثل القوة التى يصورها بها

موسيقى أو رسام ٠٠ فما استطاع شاعر أبداً أن يصل من « القرار السحيق » لعواطف الحب الى ذلك المدى الذى وصل اليه « كارمن » و « اسكاميلو » فى أوبرا « كارمن » عندما سكبا روحيهما سكبا !

وتكون « صدمة » التسليم الاول شاملة ، فلا ينقذ الرجل منها الا ابتسامة المرأة ، ولا ينتشل المرأة مما أحاط بها من خوف الا احساسها بحماية الرجل ، فان أحداً منهما قد لايكون جرب مثل هذا التقارب الشديد حتى مع أكثر خلانه ألفة والتصاقا به !٠٠ وهناك تبدأ الساعة ، بل تبدأ ساعات يأخذ فيها كل منهما فى « دراسة » صاحبه بعين لا تكل ولا تمل ، ولفرط دهشتهما يلتقى كل منهما بصورته مرتسمة فى عينى صاحبه ٠٠ وتنقلب المعجزة الى ضرب من السحر عندما تلتقى عين عسلية بعين فى مثل زرقة السماء ، أو عين فى مثل سواد الليل بعين فى مثل صفاء النهار ، فاذا بالنشوة تأخذ الحبيبين ، والسحر يلفهما فى سكونه العجيب ٠٠ فينظران ، ويفترنان ، ويبتسمان ، ثم اذا بهما لم يعد لهما بالجسد احساس ، ولم تبق فيهما الا روح نشوى !



٠٠ وحين يصحو كل منهما فى الصباح ، فلا يجد نفسه وحيدا فى فراشه ، يبدأ أروع عهد فى حياته ، بحيث لا يعدل ذلك الصباح شىء آخر فى الوجود !

أى الجنســين أكثر استمتاعا : الرجل أم المرأة ؟

• **وهنا** أيضا ، وفى هذه المرحلة ، تكون للخلوة الثانية بين الزوجين الحبيبين أهمية قصوى ! فكما أن الجائع لا تشبع نهمه أكلة واحدة لذيذة فاخرة ، كذلك الزوجان ينبغى لهما أن يتعرفا أحدهما على جسد الآخر فى تمهل وأناة . وكما أن الطبيعتين المتماثلتين تختاران احداهما الأخرى من أول نظرة ، الا أنهما تزدادان خبرة من خلال تكرار التقائهما ومحادثاتهما ، فكذلك الحب الجنسى يحتاج الى أكثر من اتصال واحد لكى يشفى غليله . **وانه لمن الصعوبة بمكان أن يكشف المحبان النقاب عن أعمق أسرار السعادة فى الحب ، من المرة الاولى ، مثلما يصعب على عازف البيانو أو الكمان أن يصيب نجاحا كاملا من أول تجربة !.. وهنا وفى هذا الوضع بالذات قد ينتهى كثير من زيجات الحب الى مأساة ! .. فحتى ذلك الوقت يكون كل منهما قد بذل جهده كى يظهر للآخر فى أحسن مظاهره : رقيقا ، رحيما ، منكرا لذاته .. وهما قد كانا كذلك حقا .. لكن افرازات غددهما قد زادت وضخمت من رغباتهما ، وحدت بكل منهما الى التلهف على امتلاك الآخر !**

وهاهما عينا الزوجة بعد أن كانتا تنظران الى رجلها فى جرأة أو فى غموض ، قد أصبحتا الآن تنظران اليه فى استكانة وخضوع . وهذه اللحظة هى أشد اللحظات خطرا ، فعليها تتوقف النتيجة الحاسمة : فاما أن تصل رغبتها الى مداها ، وعندئذ تمتد عاطفة الحب الى ماشاء الله .. واما أن تقفل هذه الرغبة راجعة ، فتطويها عجلة الحياة اليومية التى تدور فى سأم وملال !

أما المثل اللاتينى القديم القائل بأن كل الناس ينتهون الى الهم والكآبة بعد الاتصال الجنسى الأول ، فهو مثل يصدق فى تسعة وتسعين فى المائة من الحالات ، ولكن الحالة الواحدة الباقية هى التى يسعها ان تقص عليك قصة السعادة الحقة!..

وغالبا ما يكون الرجل هو الذى يخيب ظن المرأة أو يصدمها فى أحلامها ، فقلما تخيب امرأة ظن الرجل أو تصدمه ، الا أن تكون بغيا أوقعته فى حبائلها دون أن يدرى !

فالزوجان اللذان يفترقان توا أحدهما عن الآخر بعد ذاك الاتصال الأول هما اللذان يفقدآن الحب ، فافتراقهما سريعا يعنى أنهما يفترقان أبدا !٠٠ أما هذان اللذان ينظران احدهما فى عينى الآخر فى سكون ولفترة طويلة بعد ذاك ، فهما اللذان يحسان حقا أنهما أحسنا الاختيار ، فاذا بهما يحلقان معا فى جوزاء السعادة ٠٠

وانه لتساؤل عقيم لا محل له أن نتساءل : أى الاثنين - الرجل أم المرأة - ينال حظا أكبر من الاستمتاع؟٠٠ فهنا - كما هى الحال فى السعادة - ليس ثمة سبيل مرسوم يفضى الى السعادة ، وانما تتوقف السعادة على طبيعة الباحث عنها ، الساعى وراءها ٠ وأما ما قاله « بياس » الحكيم - (الذى زعم أنه كان امرأة مدى سنين طويلة !) - من أن المرأة تحس من السعادة تسعة أضعاف مايحسه الرجل ، فلا يعدو أن يكون خرافة فاضحة ! صحيح أن هناك نساء تدوى فى أعماقهن صرخات الحب فتثير فيهن شهوة جامحة قد يعجز الرجل عن اطفائها ٠٠ وصحيح أيضا أن هناك رجالا يرتمون كأنصاف المجانين فى أحضان أنصاف العذارى ، فتظل هؤلاء باردات البدن ، رافعات الرؤوس كالتماثيل ، بل قد يسخرن فى فلسفة ممجوجة - بينهن وبين أنفسهن - من هؤلاء المحبين الوالهين !٠٠ ولكن مانسميها بالمرأة الباردة - التى يفرح بلقائها أطباء الاعصاب ! - قلما توجد ، كما أنه قل أن يوجد الرجل الذى لا يضحك أبدا !٠٠ وقد توجد النساء « المعقدات » المتكبرات اللواتى لا يبدين جهدا للوصول الى ملاذ الحياة الجنسية ، لكنهن فى قرارتهن يرغبن فى أن يهزمن ويسلمن ٠٠ ولو أنه ليس فى « معركة » الحب منتصر ومهزوم !٠٠ كما

أننا قد نلتقى فى ميادين الحياة الأخرى بأشخاص لا يريدون أن يغزوا ولا أن ينتصروا ، وهؤلاء هم المخنثون ، وهم موجودون بين الرجال والنساء على السواء !

٦ ـ المرأة الجميلة لا تندفع فى الحب !

◆ يقول العارفون ببواطن أمور الحب ، أن الاستمتاع باكتشاف بدائع الجسد الانسانى لا يناله من المحبين الا الأقلون .. والواقع ان الرياضة البدنية قد غيرت فى خلال السنوات القليلة الماضية معنى الحب عند الشباب .. ولكن ، ليت شعرى ، كم زادت الرياضة البدنية من جمال هذا المعنى !

فاختلاط الجنسين فى فصل الصيف وقد تعرت الاجساد الا قليلا ، قد جعل الجمال واجبا وعادة .. والدراجة ذات المقعدين وقد جلس عليها الرفيقان وانطلقا فى نزهة جميلة .. والسيارة وقد ركبها الحبيبان وتولت المحبوبة قيادها فى تؤدة ودلال .. لعمرى لم تعرف الدنيا من قبل مثل هذه الصور للحب الجنسى ، ولا استمتع الاغريق انفسهم بنظائرها !

غير أن الجمال ليس الا بعضا من الحب . والحب الذى يكنه الرجل للجمال وحده لا يدوم طويلا ، بل هو معرض دائما للفترات المظلمة .. فعندما التقى « جيته » بأجمل امرأة فى عصره ، انتظر أصدقاؤه على أحر من الجمر كى يسمعوا منه كلمة امتداح أو اطراء .

وقد أبدى اعجابه فعلا ، غير أنه أردف بعد ذلك يقول : « ان جمال المرأة البارع الخلاب غالبا ما يقف كالستر بينها وبين التسليم ! » .. والواقع ان الرجل الذى يحب لا يلحظ في الحقيقة الجمال ، بل هو يستشعر السحر فحسب . واذا كانت المرأة الجميلة تعيش للجمال وحده ـ دون المتعة ـ فان الواجب على حبيبها أن يقصيها عنه كلما اقتضى الامر ، كى يزول عنها توترها ونفورها . ولذلك فان الرجل ذا الخيال القوى اذا خير بين أختين ، احداهما جذابة والاخرى جميلة ، يختار الجذابة دون الجميلة ! وكثيرا ما ترى فى الأدب القصصى ان البطلة ليست بارعة الجمال ، وان منافستها البارعة الجمال فيها كثير من الروحية !.. وأقرب مثل على ذلك ـ فى ملحمة (فاوست) ـ هو التزاوج بين « فاوست » و « هيلين » ، ذلك المثل الخالد من أمثلة الاتحاد بين الروح والجمال .. وان كان زواج مثل هذين الزوجين قلما يستمر طويلا !

ورغم أن أعيننا تستمتع اليوم بما تقع عليه من رؤى الجمال الأخاذ على الشواطىء ، كما لم تستمتع أعين من قبل ، الا أننا نجد أن هذا الاحساس الشديد بجمال الجسد لم يرفع قط من شأن الاستمتاع بالحب ، أو من شأن الفن ، فى عصرنا هذا .. ذلك أن تجرد الأجساد من ثيابها علنا فى هذا

العصر ، وتكسر القيود وتفككها ، كلها قد أقصت عوامل السرية والتحفظ التى هى أول دوافع الحب !

فتاة اليوم ٠٠ وفتاة الأمس !

◆ ولقد خطا هذا الجيل خطوة واسعة فى سبيل الاقدام على الحب ٠ ولعل تحرر المرأة كان أكبر حدث ذى مغزى فى خلال قرن من الزمان - فهو أهم بكثير من تأييد حق المرأة فى الانتخاب - حتى ليلوح أن قرونا طويلة تفرق بين فتاة عاشت فى عام ١٩٠٠ ، وأخرى عاشت فى عام ١٩٤٠ !٠٠ كيف لا وقد كانت الخطيبة تحجم عن مجالسة خطيبها قبل عقد قرانها عليه ، فاذا خطيبة اليوم تذهب فى رحلة خلوية مع صديقها بمفردها !

وانظر الى شباب الجيل المعاصر ، تجدهم لا يقرأون من ألوان الأدب الا ما يسبب القلق والاضطراب لآبائهم ! ٠٠ لقد اختفت أو كادت تختفى معالم ما عالجه « ابسن » وما صورته أوبرا « ترافياتا » عن مشاكل الصراع بين حق المرء فى الحب ، وبين تقاليد الأسرة وتراثها ٠ ذلك أن تراث الأسرة وتقاليدها قد انهارت وتحطمت بدورها ٠٠ كما تلاشى من أكثر بلاد أوربا وأمريكا مبدأ العذرية أو « العفاف » الذى حركه الشعراء فى كل الأزمنة ، واستئثار الآباء وعمداء الاسرات ، من عصر الفروسية فى القرون الوسطى الى عصرنا هذا ٠٠ تلاشى منذ أخذت المرأة بين يديها زمام حقها فى حماية نفسها بنفسها !٠٠ وأما العذارى ذوات الكبرياء اللواتى لا يسلمن فى معركة الحب الا لذلك الغازى الذى يضيق عليهن الخناق أمدا طويلا ، فقد أصبحن من أندر الأشياء فى هذا العصر ! ٠٠ لقد فقدت العذراء سحرها كله ، فشبان اليوم يصمون آذانهم عن سماع موسيقى « فاجنر » اذا ما ظهرت كاعب لعوب باهرة الأنوثة ، الى جوار عذراء بريئة النظرات ، صافية العيون ٠٠ فى حين كانت الموسيقى فى شبابنا هى مثلنا الأعلى الذى نوقع به الفتاة فى شباك حبنا !

وأما وثيقة الزواج التى يسرى مفعولها العمر كله ، فلا ريب أن المشرع سوف يحرمها فى المستقبل ، باعتبارها تبذلا مجردا من الاخلاق ، تماما كما يدحض المرء محاولة انسان الرحيل الى القطب الشمالى فى حين أنه لم ير من قبل جبالا ثلجية ، ولم يجرب العيش فيها !٠٠ ولعل زواجا تجريبيا لمدة خمس سنوات - كما اقترح « جيته » - قد يكون العلاج لهذه المشكلة الخطيرة !

أيهما أقوى فى المرأة : الأمومة أم غريزة الجنس ؟

◆ واذا كانت الفتاة فى هذا العصر قد نالت حق اختيار الزوج - كما يفعل الفتى - فانه لا ينبغى أن يتم لها هذا الا اذا اكتملت معرفتها بطبيعتها

البيولوجية وباحتياجاتها الجنسية . وهناك قول يزعم ان غريزة الأمومة عند المرأة أقوى من غريزة الجنس ، أى أنها تتزوج بغية انجاب الأطفال أكثر مما تحدوها الى ذلك رغبتها فى الرجل نفسه . لكن الحالات التى ينطبق عليها هذا القول نادرة شاذة لا يقاس عليها ..

وحرية المرأة فى أن تتصرف بحبها كيف شاءت ، وان كانت حرية جديدة عليها ، الا أنه لن تفلح دولة من دول الأرض - مهما تحاول - فى تحطيم هذه الحرية التى اغتصبتها المرأة !.. وأكبر معوان للمرأة على الاحتفاظ بهذه الحرية ، تلك الحقيقة الواقعة وهى أن جسد المرأة ملك لها وحدها ، ولو أن الشيوعية تحاول ، على غير طائل ، الرجوع القهقرى بهذه الحقيقة الى القرن الماضى !

وبرغم أننى أتوقع لحرية المرأة هذه أن تبتذل ، وأتوقع للحب أن يفقد سحره - ولعله فقد سحره فعلا عند الكثيرين ! - الا أن مثل الحب ، فى عصرنا هذا ، سيظل كمثل السيارة .. فكما أنها لم تمنع بعض الناس من ممارسة رياضة المشى ، والتمتع بمشاهدة مناظر المدينة عن كثب، فكذلك ستظل عند بعض الناس الرغبة فى الاستمتاع بالحب واكتناه أسراره !

٧ - المرأة والحب .. فى فرنسا ، واسبانيا ، وايطاليا

◆ لا شىء أقدر على تمييز الشعوب بعضها عن بعض مثل شيئين : الموسيقى ، والحب ! .. وقد برع الألمان فى الموسيقى ، أما الفرنسيون فقد برعوا فى الحب !.. فباريس هى المدينة الوحيدة فى العالم كله التى يستطيع الرجل فيها أن يقبل امرأة فى الطريق العام وهو آمن شر غمزة متطفل أو ابتسامة ساخر ! وباريس ، ابتداء من محال أزيائها الى مصالح حكومتها ، انما هى مدينة تحكمها النساء ! وقد كتبت باريس تاريخ الحب فى الغرب ، وكيفته وفق ما أرادت .. فمحصول هذه المدينة الواحدة من الأدب قد غير مذاق الحب ، وشكله ، ولونه .. حتى ان الحب نفسه تخلى هناك عن مكانه لرونق المنظر وجمال الزينة ، بحيث يندر أن تسمع فرنسيا يصف امرأة بأنها « جميلة » وانما هو يصفها بأنها « رائعة » أو « فخمة » !

وفى باريس ، حيث لا يدهش أحد لسماع أى شىء ، تجد القصص التى يندى لها جبين الحياء تروى فى وجود النساء ، وتقص فى بساطة متناهية دون أن يحمر لها وجه !.. فلقد أعيد النظر فى القيم الخلقية ، واللغوية ، فى باريس ، بحيث لم نعد نرى هناك امرأة يحمر وجهها خجلا !.. أما فى اسبانيا وايطاليا حيث لم يزل للعاطفة شأن كبير ، وحيث يصف المحب كل شىء « بالجمال » ، فما زالت أشجع النساء يعروها الحياء ، وما زال الرجال يسرفون فى التقلب من سرور بالغ الى غضب متقد ، وما زالوا يقتلون بعضهم بعضا اذا جمح بهم الغضب ! وليس هذا مقصورا على الطبقات الاجتماعية العليا وحدها ، بل يتعداها أيضا الى الطبقة الدنيا .. ومن هنا اتخذت

« المأساة » التمثيلية الفاجعة عند هذين الشعبين ، الشأن الأعلى الذى اتخذته المهزلة أو الكوميديا عند الفرنسيين ٠٠ كما أن موسيقى هذين الشعبين تصور أجلى تصوير ما يغلب على حياتهم من عواطف ، وما تسوقهم اليه هذه العواطف ٠٠ فى سبيل الحب !

المرأة والحب ٠٠ فى ألمانيا وانجلترا وامريكا !

◆ أما فى الشمال فما زال الحب رومانتيكيا ، والشعب الالمانى يتغنى بالشوق الى الوصال اكثر مما يتغنى بالوصال ذاته ! والحب الذى لا سبيل اليه ما زال يحتل مكانة رفيعة عند الألمان ٠٠ وأرفع منه شأنا الحب الذى تحيط به التعاسة والشقاء ! ٠٠ فالرغبة الرومانتيكية فى العيش بين الاحلام والخيالات ، بعيدا عن الاستمتاع الواقعى ، هى من خصائص سكان الشمال ٠٠ ولعل الضباب الذى يكاد يخفى عنهم المنظورات ويحجب الماديات هو الذى وصل بالحب الى هذه المنزلة الشعرية الخيالية التى لا أثر للواقع فيها !

ومع أن الشماليين يحسون الرغبة الجنسية ، طبعا ، مثلما تحسها الأقوام الاخرى فى أية بقعة من بقاع الأرض ، الا أنهم لا يسلمون بالتوتر الجنسى كأمر واقع ، ولهذا فالنفور ، والاشمئزاز ، والاكتئاب ، تحل عندهم محل الرغبة الجنسية البسيطة المجردة ! ٠٠ وهذا أيضا هو السبب الذى من أجله يتحدث شعراؤهم دائما عن « متاعب الناحية الجنسية وآلامها » ، وهى عبارة قل أن تسمعها من أحد أبناء حوض البحر الابيض المتوسط الذين لفحتهم شمسه المشرقة ! ٠٠ وقد قال أحد شعرائهم فى مطلع قصيدة له : « ان الحب هو العذاب المقيم ! » ٠٠ ولعل هذا هو السبب الذى من أجله لا يحاط الحب فى ألمانيا بالتقاليد المتوارثة ، بل يترك نهبا للفوضى والاضطراب ٠٠

وتكاد المرأة الانجليزية تماثل نظيرتها الألمانية ، الا أن الانجليزية أقل رقة ! نعم هى أكثر مهارة من الالمانية ، ولكن مبادىء الفضيلة والطهر ماتزال تسيطر عليها وتقمع حوافزها ، فهى حتى فى وسط أقربائها أو أترابها ترى أن لفظ « البطن » أو « الثدى » ينبغى أن لا يلفظ !

وليست المرأة الامريكية خبيرة بالحب كما يحسب الكثيرون ! فان المثل العليا التى تسيطر على شعبها تتمثل فى الحركة ، والنجاح ، والتقدم فحسب ٠٠ وهذه المثل العليا الثلاثة اما أنها تتناقض فى طبيعتها مع الرغبة فى الحب ، واما انها لا تسمح بقيام الحب أصلا ! ٠٠ فى حين برع الفرنسى مثلا فى الحب لانه يسير على هدى مثل عليا ثلاثة تختلف عن نظائرها الامريكية ، هى : الهدوء ، والبساطة ، والاحساس بالمساواة !

الامريكان يجهلون الحب !

◆ ولقد جعلت ارقب المحبين على شواطىء كاليفورنيا ٠٠ كانوا عراة تقريبا ، ولم يكن ينقصهم جمال المنظر ولا حسن المظهر ، ولكن احساسهم الجنسى أوشك أن يكون معدوما ! ٠٠ فقد استلقوا على الرمال وكل همهم أن تصهر



الشمس اجسادهم ، ودلكوا بشرتهم بالزيت ، واخذوا يتلهون اما بتناول المثلجات « الايس كريم » ، او بقراءة مجلة ، أو بالاستماع الى « الراديو » وقد غلبهم النعاس !٠٠ ولو ان هؤلاء المحبين كانوا فرنسيين ، لبحث كل اثنين منهم عن خليج ناء منعزل ٠٠ وربما أكلوا وشربوا ايضا ، ولكنهم - على التحقيق - لايقرأون ولايستمعون الى هـذه الموسيقى الرديئة !٠٠ نعم قد يعزفون اذا ما عادوا الى البيت قطعة عاطفية على « البيانو » او يستمعون الى « الجراموفون » ، ولكن الأمر كله يتوقف عندئذ على درجة اضاءة المكان، ومدى سرية الاجتماع ، ومقدار ملاءمة الطقس !

وليس أدل على جهـل المرأة الامريكية بالحب ، من انها هي وحدها التي تظهر في المجتمعات وقد أخفت عينيها وراء المنظار برغم أنها ما تزال شابة وجميلة ! ٠٠ فهي بهذا تشوه جمال مظهرها وتفوت على نفسها فرص الحب !

وثمة سبب آخر من أسباب جهل الامريكي بفن الحب، هو انه لايعرف للموت معنى ! ٠٠ ففي محصول أوروبا من الشعر ، الـذي كتب باثنتي عشرة لغة مختلفة ، قد ارتبط الحب دائما بالموت !٠٠ ولما كان الامريكي ينكر الموت ، ويكاد يخدع الميت نفسـه برسم لوحة له ، فانه لذلك لم يستطع أن يتعرف على الحب الذي هو توأم الموت !

٨ - الصـداقة ٠٠ والغيرة ٠٠ والحب !

◆ وبينما نجد الحب يقوم - الى حد كبير - على نوازع الجسد ، ويتجدد دائما بين أحضان الجسـد ، نجد أن الصداقة تقوم على أساس نفساني بحت ، ولهذا فان أعلى مراتب الصداقة أندر مثالا من الحب !

ولما كانت الصداقة هي العلاقة الوحيدة - بين رجل وآخر - التي لاتعرف لها بداية واضحة معينة ، ولا تستهدف نتيجة خاصة ولا غرضا بذاته ، فانه ليس أبعث على الارتياح من أن ينادي الرجل رجلا آخر لم يقض معه سوى بضـع أمسيات جميلة ، قائلا : « ياصديقي » ٠٠ والرجـل الفرنسي لا يجيش في صدره شيء عندما ينادي شخصا آخر قائلا : « يا صديقي العزيز » ٠٠ أما الرجل الأسباني فانه يبدأ بهذه العبارة ذاتهـا خطـابه لرجل لم يتعرف به او يلقاه سـوى مرة واحدة !

وكل فرد يذكر ولا شك النظرة أو القبلة التى بدا عندها الحب .. أما الصداقة فقد توطدت على اثر مصافحة حارة ، بل قد لا يذكر أحد الصديقين متى رفعت الكلفة تماما بينه وبين صديقه ، ومتى نادى أحدهما الآخر باسمه مجردا عن لقب السيد ، أو الاستاذ .. وهكذا الصداقة دائما ، لا يعرف لها امرؤ مصدرا ولا قرارا !

وبين الصداقة والحب فرق كبير . وأكثر ما يستبين هذا الفرق عند النساء ، فهن أقل اقبالا على الصداقة من الرجال ! .. وذلك انهن يسكن الى الحب ، ويركن الى الحبيب ، أكثر مما يفعلن بازاء الصداقة والصديقة ! .. وكثيرون من الرجال الذين عرفوا الحب قد عقدوا الى جانبه صداقات وطيدة وثيقة العرى ، ولكن ندرت من النساء من جمعت بين الحب والصداقة فى آن معا !..

ولقد قال جوته : « كل امرأة تعتزل ـ بدافع من طبيعتها ـ كل امرأة أخرى ، أما الرجل فيحتاج الى الرجل ، فاذا لم يجد رجلا آخر خلق لنفسه رجلا .. فى حين أن المرأة يسعها أن تحيا حياتها دون أن تعتريها أقل رغبة فى خلق امرأة أخرى تصادقها ! »

وفى وسعنا أن نعقد المقارنة بين صداقة مثالية وزواج مثالى : فالصداقة وان لم تقترن بالنشوة الحسية الا أنها توفر فى الواقع أعظم قسط من الراحة يمكن أن يتطلع اليه الرجل ، بغض النظر عن الرغبة فى المتعة الحسية .. فهى تزود الصديقين على السواء بالثقة فى الحياة والاطمئنان اليها !

والصداقة تزدهر وتترعرع كلما بعدت المسافة بين الصديقين ، فعندئذ يقضى الصديق حقا ساعة هنيئة سعيدة فى قراءة رسالة تلقاها من صديقه .. فاذا حدث وحل الصديق ضيفا على صديقه ، نعما بساعة هنيئة تسبح فيها الروحان فى توافق وانسجام ، وتحلقان فى آفاق بهيجة المناظر جميلة الصور .. ولأن الصداقة ـ على نقيض الحب ـ قد خلت من كل طابع جسدى ، فهى لذلك عميقة القرار بعيدة الغور ، وهى لذلك أيضا اكثر حرية وانطلاقا . فاذا اختلى الصديقان بعد أعوام من الألفة والوداد ، وتذاكرا العهد الذى بدأت فيه صداقتها ، تراهما يذكران عهودا متباعدة يحمل كل منهما ذكرى جميلة عزيزة عليهما .. وتراهما يتحاشيان ذكر أزمة معينة مرت بصداقتهما ، وقد ينساها احدهما نسيانا تاما !

فاذا حدث ان ثالثا احتل فى قلب احد الصديقين مكان صديقه ، فهنالك تقوم لواعج غيرة تشبه فى اضطرامها تلك الغيرة المألوفة فى الحب !

واذا شبت الصداقة فى عهد الطفولة ، فانها قد تنطوى على جملة اخطار ، لكنها تنطوى كذلك على جملة مفاجآت .. فاذا التقى صاحبا طبيعة متجانسة أحدهما بالآخر ، فى مستهل حياتهما ، فغالبا ما تصل صداقتهما الى أعلى درجاتها .. وان كان أجلها قد يقصر فى هذه الحالة ، او قد يقطعها ارتباط أحدهما بالحب أو بالزواج !

وأجمل صداقة هي تلك التى تنشأ بين الأخ وأخته حين يلتقيان بعد أن يزدهر شبابهما ، فيتعرفان أحدهما على الآخر من جديد ، وعلى نطاق تتيحه لهما خبرتهما بمسالك الحياة ودروبها .. ويسترجعان ذكرياتهما المشتركة .. ولكن حتى هذه الصداقة الجميلة السعيدة قد يشتت شملها وقوع أحدهما فى الحب !

فالحب هو عدو الصداقة اللدود .. اذ هو طاغية عنيد لا يريد لأحد ولا لشىء أن يعلو عليه أبدا ! .. وحتى الصداقة بين الآباء والأبناء - التى يمكن أن تتم بشىء من الكياسة ، والتبصر ، وحسن الادراك - غالبا ما يضع حدا لها وقوع الأبناء فى الحب ، حتى لو لم يعترض الآباء على ذلك ولم يؤاخذوا أبناءهم عليه .. وهذا هو منشأ النزاع الذى لا ينتهى بين الحماة وزوجة الابن .. فحب الزوجة لزوجها لا يعنى قطعا حبها لأم زوجها .. وأقل دلالة تفطن منها الزوجة الى أن الصداقة بين زوجها وأمه ما زالت قائمة ، تؤدى بها الى الانفجار !

هل هناك « صداقة » بين رجل وامرأة ؟

◆ هل يمكن أن تقوم صداقة وطيدة بين فتى وفتاة ، دون أن تتطور هذه الصداقة الى حب ؟

أما اذا كانت صديقة الفتى فى مثل سن أمه ، أو كان صديق الفتاة فى مثل سن أبيها ، فالاجابة عن هذا السؤال يمكن أن تكون بالايجاب .. ولا تعدو الصداقة عندئذ أن تكون ترفقا واشفاقا ! .. أما ان تقوم الصداقة بين فتى وفتاة فى سن متماثلة ، وفى وقت يحق للحب فيه أن ينضج ويكتمل وينمو ، فهذا ما لا يتأتى .. رغم كل توسل الى الدوافع النبيلة ، وتمسك بأهداب المثل العليا جميعها !

ذلك أن مثل هذه الصداقة تتطلب من التضحية ما يعلو على طاقة البشر ! فالرجل والمرأة ، فى نفس اللحظة التى تتنزه فيها روحاهما وتسمو نفساهما، يدوران أحدهما حول الآخر فى محاولة « استطلاع » لخفايا ذلك الجنس الآخر ! .. انهما - رغم كل شىء - سيحسان ان التسليم الجسدى مازال ينقصهما ! .. وفى مثل هذه الحال قد يتيسر لامرأة جريئة مجربة أن تقيم الحد وتنصب الميزان بين الرغبات والشهوات ، ولكن هذا شىء لا يمكن ضمانه قط ، وقد يؤدى الى عكس المنشود من ورائه !

فالاقدام على مثل هذه الصداقة « الروحية » بين اثنين من جنسين مختلفين يملؤنا توجسا ونحن نشهده ، كما لو كنا نشاهد اثنين يرقصان على حبل مشدود فى أعلى السيرك ! .. اننا نستمتع عندئذ بمراقبتهما والتطلع اليهما فى تيقظ وانتباه ، ولكننا فى الوقت نفسه يحدونا الخوف من أن يهويا الى القرار السحيق !

٩ - البغض .. وهل يتفرع من دوحة الحب ؟

◆ ما هو البغض ؟ أهو فرع من الدوحة التى يتفرع منها الحب ؟

ان البغض ينمو ويتطور كما يفعل الحب سواء بسواء .. وهو يتغذى فى نفس الشخص من الادلة التى اجتمعت لديه على الأنانية أو العداوة التى يقابل بها من الشخص الذى يواجهه .. فاذا استطاع العداء بين شخص وآخر أن يتحول تدريجا الى بغضاء ، واذا استطاعت امرأتان أن تبغض احداهما الأخرى دون أن تكون الغيرة هى السبب الأول ، فمثل هذه الحالات لا تمت الى الحب بصلة نسب ولو عن طريق غير مباشر . فاسباب مثل هذا البغض ودوافعه جلية واضحة ، وهى متعلقة بشئون الدنيا المادية المحسوسة .

اما البغض الذى ينتمى الى الحب ، بل يشبهه من كل الوجوه ، وفى اسمى مظاهره أيضا ، فهو البغض الذى ينشأ بلا سبب محسوس ، وينبت من النظرة الأولى !.. فمثل هذا البغض ينشأ - كما هى الحال فى الحب - بدافع جسمانى ، كما أن عناصره تستمد قوامها من الطبيعة الجسدية .. ومن ذا الذى لا يذكر ان الباب فتح ذات مرة ، وولجه شخص من نفس جنسه (ذكر او أنثى) فأشاع فى نفسه ، فى التو واللحظة ، نفورا شديدا ، يوشك ان يكون بغضاء متأصلة !؟

فهذا الاحساس المفاجىء الذى يبعثه فينا هذا الشخص دون سبب ظاهر ، مرده الى الشخصية الجسدية أو المادية (لا المعنوية) التى تؤثر أول ما تؤثر على حواسنا ! وقلما تخطىء حواسنا ، وقلما نحتاج الى ان نراجع أنفسنا فى هذا التأثير الأولى الذى يبعثه فينا شىء ما أو شخص ما .. فان هذه اللحظة الأولى تقرر كثيرا من الأمور التى قلما نحتاج الى تغييرها .. تماما كما يصعب محو ما يتعلمه الطفل فى الصغر ، وما يشبهه المثل « بالنقش على الحجر » !

فها هو ذا شخص غريب يدخل بابنا ، ولا نعلم عنه شيئا ، بل لا نعلم حتى اسمه ، وها نحن أولاء نبغضه دون سبب ظاهر !.. والواقع أن لا شىء فى الدنيا : لا الثقافة ، ولا حصافة الرأى ، ولا اتجاه الميول يشتت شمل الرجال أو يلم شعثهم ، مثلما يفعل الاحساس المادى ! .. فان هذا الاحساس يميز تمييزا حاسما بين الشخصية التى ترتضيها فى أعماق نفسك ، والشخصية التى تعاديها فى قرارة كيانك !

فاذا شاء المرء أن يتغاضى عن هذا الاحساس الأول ، فان البغضاء لا تتبدد عندئذ ، وانما تستقر فى الأعماق ، بل فى أعمق مما تستقر العداوة الصريحة الظاهرة !

وفى وسعنا أن نجد امثلة من هذه البغضاء المشهورة بين الشعوب والأجناس المختلفة أيضا ، بل وبين اثنين من الفنانين يكفى أن ينظر احدهما فى عينى الآخر ، كى تتجلى البغضاء بينهما صريحة واضحة !

وثمـة ميدان واحد لا ترى فيه هذه البغضاء المتاصلة ، ولا يمكن ان يحس فيـه المرء بمثـل هـذا الاحسـاس المفاجىء بالكراهية ٠٠ ذلك هو ميـدان العلاقة بـين اثنين من جنسـين مختلفين ! فالرجل الـذى يدخـل على امرأة لأول وهلة فتحس تجاهه بالبغض ، انما يجتذبها اليه فى الحقيقة عنصر خاف فيه ، تحاول هى جهدها أن تكبح جماح التفكير فيه !

أو قـد يلتقى رجل بامرأة لا يعرفها فى الطريق العام ٠٠ امرأة يخـالف جسمها ذلك الجسم الذى يحلم به ، وتبعث ثيابها النفور فى نفسه ، وتسىء اليه عطـورها وزينتها ٠٠ ومع ذلك كله فعندما يرمقها بنظرة حادة ، فانمـا هو يتمنى فى الوقت نفسـه أن يغزوها وينتصر عليهـا ، كى ينتقم لنفسـه - من منظرها الذى أساء اليه - باذلالها !

ومن هذا التداخل بـين الحب والبغض ، فى علاقة الرجل والمرأة ، يتأتى التفسـير المعقول لهذا التحول المفاجىء فى القصص الغرامية - سـواء فى الواقع أو الخيال - الذى يحيل القصة الى فاجعة اومأساة !

وفى العدد القـادم نواصل معاقراءة الفصـول التـالية من هـذا الـكتاب الممتـع

الحياة قصة



روائع القصص العالمى

عزيزى القارىء :

قرأت معى فى الاعداد الماضية قصص :
• أموك : لستيفان زفايج • قلب عذراء : جون جالزورثى • مرتفعات وذرنج : اميلى برونتى • التلميذ : بول بورجيه • أحدب نوتردام : فيكتور هوجو • جريمة حب : بول بورجيه • جين اير : شارلوت برونتى • أيام بومباى الأخيرة : لورد ليتون • مانون ليسكو : الأب بريفو • حديقة الله : روبرت هتشنز • عندما تحقد المرأة : جورج اونيه • آسيا : ايفان تورجنيف • كاس تمبرلين : سنكلير لويس • الشيطان على الأرض : برتراند رسل • رسالة من مجهولة : ستيفان زفايج • الحب الأول : تورجنيف • تاييس : أناتول فرانس • بلاد العميان : هـ. ج. ويلز • نادى الانتحار : روبرت لويس ستيفنسون • كوخ العم توم : هاربيت بيتسر ستو • الزوج والعشيق : سومرست موم • البوهيمية : هنرى مرجيه • فتاة لها ماض : بول بورجيه • شيرى : كوليت • الجريمة والعقاب : دستويفسكى • لحن كرويتزر : تولستوى • أميرة مصر : جورج ايبرز • الامطار : سومرست موم • افروديت : بيير لويس • جيجى : كوليت • الشيطان فى الجسد : ريمون راديجيه • ليبوريللا : ستيفان زفايج • كانديد : فولتير • أشجان فرتر : جيته • فرانشسكا : موباسان • لوريت : الفريد دى فينى • المعطف : ن . جوجول • يوميات زوجة : مارسيل بريفو • الأفق المفقود .. وهاك اليوم : « النار الخالدة » !



قصة كبرى
للروائى الانجليزى الكبير
هـ . ج . ويلز

تلخيص : محمد بدر الدين خليل

معركة الايمـان ٠٠ والالحاد !

• اشتد الجدل فى الشهر الماضى حول موضوع الايمان والالحاد ٠٠ وهو موضوع شائك لم يكن يجرؤ على الخوض فيه غير الفلاسفة فى كتبهم العلمية البحتة التى يتسع فيها المجال لعرض نظرياتهم والتدليل عليها ٠٠ أما كتاب القصة فيندر أن يخوض كاتب منهم هذه المعركة ، بقدر ما يكثر خوض الناس فيها ، خلال أحاديثهم وأسمارهم كلما عرضت مناسبة خاصة أو عامة تثير الموضوع فى أذهانهم

واذا ندر تعرض كتاب القصة لهذه القضية بوجه عام ، فأندر منه ان يعالجها احدهم بمثل العمق ، والتفكير المدروس ، والنظرة المنبثقة من ثقافة أصيلة شاملة ، التى عالجها بها الأديب و « العالم » الانجليزى الكبير « ه٠ج٠ ويلز » فى هذه القصة الطويلة الشائقة التى يقدمها لك (كتابى) فيما يلى ، فى أوانها ، لمناسبة المعركة « الصحفية » التى شغلت الاذهان والاقلام أخيرا ٠٠ وقد بدأ « ويلز » قصته برهان عقد فى السماء ، بين الله والشيطان ـ كما فى ملحمة « جيته » المشهورة : « فاوست » ـ وأهداها الى « نظار المدارس وناظراتها ٠٠ وكل مدرس فى العالم » !

١ ـ رهان ٠٠ فى السماء !

• **كانت** أصوات الملائكة تتصاعد بالتسابيح : « قدوس ٠٠ قدوس ٠٠ قدوس » ، ولم يكن ثمة من يبدو عليه السأم سوى « الشيطان » !٠٠ كانت مكانته فى السماء لا تزال غير محددة ، فما كان يعرف أهو من أهلها أم هو طريد منها ٠٠ على أنه ـ أيا كانت الحال ـ كان مطمئنا الى نفسه ، فهو يؤمن بأنه ضرورة لازمة ، بحيث ينبغى ألا يخشى الاستغناء عنه !

وقال الرب : « **أنا وحدى أخلق ٠٠ المادة صنعتها وكافة الاشياء** »

فقال الشيطان وقد بدا على الملائكة غضب واستنكار : « ولكنها مادة راكدة ، لولا ما أبعثه فيها من حركة ! »

وابتسمت السماء ، فنعمت الكواكب بأيام صافية ٠٠ وقال

الرب : « **لسوف أقضى عليك فى النهاية ، ولسوف تختفى** »

ـ عندئذ سوف ينتهى كل شىء !

ـ بل سيكتمل ٠٠ انك تفسد نظام الكون ٠٠

ـ بل اننى أمنحه طعم الحياة!

وجلجل الملائكة ، وتقدم ميكائيل قائلا : « انه يكفر يا الهى ٠٠ »

قال الرب متلطفا : « **لعلنى أريده أن يبقى ٠٠** »



الكاتب الانجليزى هـ ٠ ج ٠ ويلز

وقال الشيطان مبتسما (وقد أخذت احصاءات الجرائم فى الكواكب تزداد تبعا لابتسامته) : « بدونى يجمد الزمن والفضاء ويغدوان بلا حياة ٠٠ انا الذى أثير الحركة فى الأشياء ٠٠ انا الذى جعلت الانسان أريبا يعرف كيف يحيا فى الدنيا ٠ **تصور يامالك الملك !٠٠ تصور بستانا كل زهوره وفواكهه شهية المنظر والطعم على الدوام ، فلا خريف هناك ، ولا ورقة ذابلة ٠٠ والسباع والضباع وادعة كالحملان ٠٠ ياالهى الرحيم ! ٠٠ لقد كان الانسان مسوقا الى الملل لو لم أدفع به الى أعجب المغامرات ٠٠** أنا الذى منحته التاريخ ٠٠ أولم تكن يا مولاى راضيا عن ذلك ؟ أليس ارسالك الرسل بمشاعلهم دليلا على رضاك ؟ »

ولم يجب الرب ٠٠ غير أن الشيطان لم يلبث أن قال فى جرأة : « **هذا يذكرنى برجل كان يدعى « ايوب » ٠٠ لقد**

تراهنا عليه اذ ذاك ! »

فقال مخلوق من نور يحمل كتابا : « لقد خسرت الرهان ياشيطان ·· كان الرهبان يتساءلون اذا كان من الممكن أن يفقد « أيوب » ايمانه بالله ويكفر به ·· فابتلى بكل ألوان البلاء ، لا سيما غدر الاصدقاء وتقلبهم ·· ومع ذلك فقد بقيت فى الرجل جذوة من نار لا تخمد ! »

فاعتمد الشيطان رأسه بين راحتيه ، وتفرس من بين ساقيه خلال الارض الشفافة ، وعبر الاثير ، الى الجسم الضئيل الذى يؤلف دنيانا ، ثم قال : « **ان أيوب ما يزال على قيد الحياة ·· كل الناس أيوب !·· اننى أرى الوقت مناسبا لرهان جديد** »

ـ حول ما اذا كان الانسان يؤمن بربه أو يكفر به ؟

ـ بل حول ما اذا كان سيذكر ربه على الاطلاق ؟·· ان الزمن قد بعد بالخطيئة الأولى للانسان ·· بعد بها الى ما وراء التاريخ ، بل ما وراء الخيال ·· ولقد تطور الانسان ونما ، وأصبح يبنى المدن ، ويفلح الأرض ويذلل الضوء ويستغله ، ويغير سلالات الحيوان والنبات وخواصهما ·· أعمال عظيمة ، ولكنها مع ذلك لا تزال توافه ضئيلة ·· فالانسان جد أخرق وضعيف ، وهذه الاعمال لا تبعث ضياءها الا فى نطاق مقدرته المحدودة ·· **ألا فلتنظر الى هذا العقل الحبيس فى « صندوق » · أن عظام الجمجمة لا تمكنه من النمو !·· انظر الى هذا البدن الشبيه بكيس ملء بالاسمال وبالجراثيم·· أليس هو مباءة للاوبئة !·· ان حياته متداعية · لقد قضى الانسان العشرة آلاف عام الأخيرة فى عراك لا ينتهى مع نفسه ، لغير ما غرض ··** ولن يطول الزمن حتى يبرد الكوكب الذى يعيش عليه ويتجمد·· لا ، هذا أمر لا يصدق ·· اننى قد أزعجته ، وأضنيته ،

وعذبتـه أمدا طويلا جداً ، ولكننى اليوم أشعر بالاشفاق عليه ٠٠ لقد كانت مهمتى من قبل شائقة ، ولكنها أصبحت تزداد قسوة ٠٠ لقد بلغ الانسان أقصى ما يحتمل ، فلنمنحه بعض السـلام الآن يا مولاى ٠٠ لنمنحـه فترة قصيرة مشرقة الشمس ، يسودها الرخاء ٠٠ ثم نرسل اليه وباء شاملا لا ألم فيه ، كى يستشرى فى الارض ، وبذلك نسلمه للموت ٠٠

ـ انه لم يبدأ حياته الا منذ عهد قريب ٠٠

ـ بل هو مشرف على النهـاية ٠٠ لا مراء فى أنه يتخذ فى بعض الاحيان مظهرا يبشر بأنه ملك دنياه وسيطر عليها ٠٠ لكن ذلك مجرد مظهر ٠٠ فلتأذن لى بأن أضـايقه بالهمـوم وان أقهره بعض الشىء ، ولن يلبث بعد نوبات قلائـل من الايمان والامل ، أن يئن ويتهـالك كأى وحش آخـر ٠٠ سيتصرف كأى مخلوق حيوانى ذى عقل صغير وفك كبير ٠٠ ائذن لى وسترى ان شجاعته لن تلبث أن تنقطع كخيط عتيق واهن ٠٠ سيبيد نفسه من تلقاء نفسه ، بعد أن أقضى عـلى آماله ، وأسفه تضحياته ، وأظلم سـماءه ، واملأ شرايينـه بالعـذاب !

ـ افعـل ما بدا لك يا شيطان ، فما أنت الا أداة من أدواتى ٠٠ ابتـلى الانسـان وامتحنـه الى أقصى مدى ٠٠ وسنرى !

٢ ـ على سـاحل البحر

◆ فى مقعـد اسود خشن ، بمسـكن حقير فى بلـدة (سوندرينج) الساحلية ، جلس رجل مريض يرسل بصره فى شرود واجم ، خلال النافذة ٠٠ وكان اليوم قائظا ، يثقـل حره على الانفاس ٠٠ وضاق المـريض الجالس خلف النـافذة بالذباب ، فراح يضرب الهواء بيديه صاخبا ، وهو يتساءل :

« لماذا خلق الله الذباب ؟ » ‥ وكأنما شغل باله فترة بهـذا السؤال ، لـكنه لم يلبث أن تنهد ، وتحرك فى عناء يعدل من وضعه فى المقعد ، ثم أخـلد الى شروده الواجم ‥ وأقبلت فى تلك الاثناء ربة الدار ، مضرجة الوجه بحرارة المطبخ ، وقد علقت بها رائحة بطاطس محترقة ‥ ثم انهمكت فى اعداد المائدة ، وهى تختلس النظرات الى المريض ، وكأنما كـان عدم انتباهه اليهـا يثير همهـا وقلقها ‥ وهمت مرتين بأن تتكلم ، ولكنها كانت تكبح لسانها ٠ واخيـرا عجزت عن مقاومة فضولها فقالت : « **أتراك مازلت تشعر بالمرض يامستر هس ؟** »

وأجفل الرجل اذ انبعث صوتها ، والتفت اليها فى عناء ، فلما كررت سـؤالها ، قال وهو يرمقها من طرف عينه ووجهه مشيح عنها : « **أجل ‥ أظننى مريضا يا مسز كروم** »

فقالت وهى منهمـكة فى اعداد المائدة : « **ان المصائب لا تأتى فرادى ‥ ولكن علينا ان نحتمل نصيبنا ، وان ننشد القوة حيث تتوفر القوة ‥ ان كل ما يعوزك فى الغالب هو أى نوع من الأدوية المقوية** » ‥ ومع أن المريض لم يبد اهتماما بقولها ، الا أنهـا مضت فى الحديث : « **لو أنك ذهبت الى الطبيب الشاب الذى يقطن عند ناصية الشارع ‥ ان الجميع يشيدون بمهارته !** »

وكان المريض قد ذهب الى ذلك الطبيب الشاب مرتـين من قبل ، ولـكنه لم يشأ أن يخبرها ــ حتى لا يضطر لأن يسايرها فى الحديث ــ فوعدها بأن يعمل بنصيحتها ‥ وما أن اختفت المرأة من الحجرة ، حتى رفع يده الى جبينه ، فاذا به يتفصد عرقا ‥ وأخذت يـده ترتجف فى عنف وهمس : « يا الهى ! »

★ ★ ★

◆ **كان** اسمه « جوب هس .. أيوب » !.. وقد أطلق عليه أبوه هذا الاسم ، لان تقاليد الاسرة كانت تقضى بأن يسمى الابن الاكبر « أيوبا » !.. ولقد كان من الممكن أن يعتبر - الى أربعة أسابيع مضت - أكثر الناس توفيقا ، وأجدرهم بالغبطة والحسد .. حتى دهمته الكارثة فجأة ! .. كان يشغل منصب ناظر المدرسة الحديثة الكبرى فى (ولديجستانتون) بمقاطعة نور فولك .. وكانت المدرسة قد ازدهرت تحت رعاية اتحاد صناع الورق لمدينة لندن بعد أن كرس « هس » حياته بأسرها من أجلها ، حتى لقد ذاع اسمها -واسمه- فى العالم !.. ذلك انه كان أول ناظر مدرسة انجليزى يحرر البرامج الدراسية من تعقيدات النظم القديمة . وصارت مدرسته هذه أول مدرسة فى انجلترا تلقن فيهما اللغتان الاسبانية والروسية على أصولهما الصحيحة ، كما كانت معاملها أحسن معامل مدرسية فى بريطانيا ، وربما فى العالم .. وقد أدت اساليبه الحديثة فى تدريس التاريخ والعلوم السياسية الى أن تدفق عليه سيل من الاسئلة والاستفسارات من هيئات التربية فى العالم

.. ثم امتدت اليه يد النحس ، للمرة الاولى ، فى نهاية الفصل الدراسى الصيفى ، اذ أدى اهمال ممرضة الى وفاة تلميذين أثناء تفشى « الحصبة » بشكل وبائى .. وفى عصر اليوم الذى مات فيه ثانى الولدين ، راح أحد مساعدى المدرسين ضحية حادث انفجار فى المعمل الكيميائى !.. وفى الليلة الأخيرة للفصل الدراسى شب حريق فى مبنى المدرسة أزهق روحى اثنين من صغار الطلبة ..

ولقد كان من الممكن أن يقف مستر « هس » ومدرسته صفا واحدا فى وجه أى من هذه الأحداث ، لكن تعاقبها



السريع هز كيان الناظر والمدرسة ، وبدأ كأن كل ظرف منها كان يتآمر على مضاعفة الاثر القاسى لهذه الاحداث على مستر « هس » :

فقد رأى بعينيه مدرس الكيمياء وقد أودت الأحماض ببصره وشوهت وجهه ، قبل أن يسلم الروح !٠٠ وحمل على ذراعيه جثة أحد التلميذين المحترقين وقد صارت قطعة من الفحم !٠٠

وزاد من أساه وفجيعته أن احترقت كل أوراقه الخاصة ومقتنياته تقريبا ٠ ثم ـ وفى غداة الحريق ـ انتحر محاميه ، وكان صديقا حميما له ، آئتمنه على كل ما ادخر ليهيىء لنفسه ولمسز « هس » حياة كريمة فى كهولتهما ٠ فاذا المحامى فى تحمسه لثورة الروس ، يستثمر أكبر قسط من المدخرات فى شراء « روبلات » ٠٠ لكن قيمتها هبطت فجأة ، فلم يجد المسكين بدا من الانتحار !

وأشاعت هذه الأمور جميعا ارتباكا فى حياة مستر « هس » وزوجته ، التى كانت واهنة العزم ، سريعة الانقياد لمشاعرها ٠٠ فكان أول أثر للأحداث فى نفسها أن شعرت بحاجة ماسة الى التقتير الشديد فى نفقاتهما ٠٠ واستصغرت من قيمة ما أوتى زوجها من مواهب عملية ٠٠ وكان من المستحيل أن يبقى زوجها على مشهد من أطلال مدرسته ، فاختارت له مصيف (سندرينج) ـ نظرا لقربه ، ولما اشتهر به قبل الحرب من أنه مصيف رخيص ـ على أن يمكث فيه ريثما يستجم ويجمع شتات نفسه ، ثم يعود الى انشاء المدرسة من جديد ٠٠

كذلك كانت هى التى اختارت له منزل مسز « كروم » ، ليقيم فيه ، وناضلت طويلا فى مساومة صاحبته ومكافحة جشعها ، اذ كانت تنتهز كل فرصة لتفرض أجورا اضافية !

على أن ضربة أقسى من كل ما سبق كانت تتربص بمسز ومستر « هس » : كان لأيوب النبى سبعة أولاد وثلاث بنات ماتوا جميعا فى حياته · **أما « أيوب » الحديث هذا ، فكان مقدرا له ألم أقسى وأفظع ، اذ لم يكن له سوى ولد واحد ، عين في السلاح الجوى · وجاءت الانباء أخيرا بأن طائرته سقطت وراء خطوط الالمان ! وكان الشاب في حياته مثار نزاع بين الابوين : الاب يفخر بتطوعه للبطولة ، والام تعارض ، خوفا عليه · ومن ثم راحت في عنفوان فجيعتها تتهم زوجها بأنه قاتله ! ·· وبأنه ساقه الى حتفه ليضيف اسمه الى قائمة الشرف التى يعتز بها : « قائمة ضحاياه ! »** · وحزت العبارة الاخيرة فى فؤاده ، وأكملت انهيار نفسه ·· فمن اشراق الامل ، والكرامة ، والعمل الدائب ، انكمشت حياته الى نطاق محدود ينحصر بين زوجته وصاحبة البيت ، وتهدم كل ما شيد فى دنياه !

وأخذ الحزن يدفع الزوجة الى القسوة ·· وأثارت شجارا حاميا أصرت فى نهايته على أن تنتزع من مواردهما الضئيلة مبلغا لتشترى به ثياب الحداد ! ·· وفى سبيل حياكة هذه الثياب قامت بينها وبين مسز « كروم » معارك استمرت أياما ، اذ أشفقت الاخيرة على حجراتها من أن تنتثر فيها قطع الخيط وقصاصات القماش !

وفى هذاالجو العاصف ، كان مستر « هس » يحاول جاهدا أن يمضى فى تدبير شئونه ·· الى أن واتاه ذات ليلة ، حلم ألقى ضوءا على حاله البدنية ، كما تفعل الاحلام أحيانا ·· اذ رأى فى نومه جسما أبيض ،يابسا ، يبرز من جنبه ، وينشب فى كيانه مخالب موجعة ، كاوية ·· ورأى عددا من الاطباء

يكافحون لانتزاع هذا الشيء .. واستيقظ من نومه وجسمه ينضح بالالم .. وعلى صفحة الظلام ، رأى بحروف من لهب ، كلمة : « السرطان » !

.. وعبثا حاول منذ تلك اللحظة أن يزعزع الشك الذى تمكن منه حتى بات يقينا .. وفكر فى الجراحة ، وما تتطلبه من نفقات باهظة .. ثم تلفت حائرا ينشد النصح والعون ، فلما أعوزاه ، فكر في الانتحار .. ولكن نفحة من الشجاعة هبت فى أعماقه ، فهتف : « لا .. سأكافح حتى النهاية ! »

وكان لابد من استشارة طبيب ، ولابد من جدال مع زوجته كى تقر ذلك .. وأحس بأنه وحيد ، مهيض الجناح ، كسير النفس ، فهتف فى أعماق الظلمات: « أواه ! أما من معين؟ »

ولم يكن قد بكى منذ سنوات ، ولكن الدموع انسابت من عينيه اذ ذاك .. وحاول أن يضغط موطن الالم ليسكنه ، وهو يتململ كالطفل !

* * *

◆ **كان** الدكتور « الياهو باراك » ـ الذى سعى اليه مستر « هس » عند ناصية الشارع ـ شابا متواضعا ، ولكنه غزير المادة ، دقيقا فى فحصه . وأكد له ما كان يرجو أن يكون وهما ، وان بشره بأن جراحا اخصائيا بارعا يدعى سير « الفيوس منجو » يتردد على (سندرينج) للعب « الجولف » وأن من الميسور أن يحمله على الاهتمام بحال مستر « هس » ، فاذا وافق على اجراء الجراحة فى مسكن المريض ، هبط بالنفقات الى أدنى حد ..

وجاء الجراح فى يوم السبت التالى ، فقرر ـ بعد الفحص ـ اجراء الجراحة فى نهاية الاسبوع المقبل .. وانقضى يومان قبل أن يجد مستر « هس » الجرأة على الافضاء بالنبأ لزوجته ولمسز « كروم » . كان يحس بالفزع الذى يخالج التلميذ الذى لم يستذكر دروسه ! .. وكانا يجلسان الى مائدة الغداء

حين أجمع أمره على الافضاء بالامر لزوجته ·· وأحس بالأسى والحسرة يصرفانه عن الطعام ، بينما أخذت مسز « هس » ترمقه فى استهجان ·· كانت سمراء ، وقورا ، فى السابعة والاربعين من عمرها ، رافعة الرأس فى شمم المتهم الذى يأبى الخضوع للاتهام !

واذ أبدى اعراضا عن الأكل ، معتذرا بالمرض ، حدجته بنظرة كتلك التي يرمق بها الكبير طفلا أرعن ، فقال : « أعتقد أن لابد من أن أنبئك ·· لقد عرضت نفسى على طبيب ·· لا داعي للاطالة ، فأنا مصاب ·· بالسرطان !·· ولا علاج الا بجراحة ·· »

وأحس بغصة ، فغالب نفسه كى لا يبكى ، بينما اضطجعت الزوجة فى مقعدها ، وتأملته كما تتأمل مذنبا بشع الذنب ، وقالت : « أولم تجد وقتا أنسب من هذا للسرطان ؟ »

·· فقال فى ذلة وكأنه يعوى : « لم يكن الأمر بيدى ·· »

ورمقها فى بغض ، فرأى تحت حاجبيها الكثيفين العابسين عينين تفيضان بالعداء ـ على حين كانتا فى الماضى تومضان بالحب ! ـ وكان الهزال قد دب الى الجسم الذى كان من قبل جميلا ·· ولكن الذى أمعن فى ايلام مستر « هس » هو أنه تبين أخيرا مدى انانيتها ، فطغى على أوجاعه البدنية شعور « وقائى » بالرثاء لنفسه !·· كان من الفظاعة أن تنهار رقة نفسها ورجاحة ذهنها ، وأن يرى انه فقد كل سلطان كان له على فكرها !

لقد طالما فكر ـ خلال الفترة الاخيرة ـ فى مآلها لو أنه مات · كان قد أمن على حياته ، ولكن التأمين لم يكن ليكتمل قبل بضع سنوات يدفع خلالها أقساطا باهظة · وكانت لا تفهم فى مسائل استثمار الاموال وتدبير المعاش ، بل كانت تعتمد عليه فى عيشها وحمايتها ·· وكان هذا ـ الى جانب بعض أعمال لم يتمها بعد فى الدنيا ، كرسالته التربوية ـ

يحمله على التشبث بالحياة !

واعتمد ذقنه بين راحتيه ، وأرسل بصره الى البحر ، وقال فى مرارة : « قد تبرئنى الجراحة ٠٠ وقد أموت !»٠٠ **وشعر بأن فوق مأساته وآلامه وذلتـــه ، كائنا عظيمـــا ، جبـــارا ، لا سبيل الى وصفه ، يرقبه كما يرقب العالم تجربة فى معمله ٠ وخيل اليه أن ذلك المراقب يوسوس له : « انك وحيد ٠٠ اعزل ٠٠ منبوذ ٠٠ الا العن ربك ومت ! »**

ومضت فترة قبل أن يستجمع شتات نفســـه ، ويرد على ذلك الصوت الموهوم ، وكأنه يحدث زوجته : «لا ٠٠ سأعرض نفسى للجراحة ٠٠ ما يليق بك ياعزيزتى ، ولا بى ، أن تنتهى قصتنا هكذا ٠٠ لا ، سأمضى حتى النهـــاية ٠٠ وسأستسلم لمبضــع الجراح هنـــا ، فى هـــذا البيت ٠٠ فان مت ، مت مناضلا ! »

ـ وتتركنى لمسز كروم ؟

وتداعى جلده أمام هذا السؤال ٠٠ وخيل اليه انه نسى أوجاعه ، ولكنها ما لبثت أن عاودته فى وخز والحاح متواليين ٠٠ وأحس بالعجز والحيرة ٠٠ وبأنه ـ على غير قصد منه ـ قد آذى هذه المسكينة التى كانت شريكة حياته وحبيبته ٠٠ وأخذ يحدق بعينين مكتئبتين فى عالم اصبح بغيضـــا لديه !

٣ ـ الزائرون الثلاثة

٠ بينما كان هذاالحديث الحزين يدور فى مصيف (سندرينج) ، اخذ ثلاثة رجال يبحثون فى اهتمام حالة مستر « هس » ، فى مطعم احد منتديات لندن الفخمة ٠٠ وكان صاحب الدعوة هو « سير اليفاز بوروز » الذى أحدث انقلابا فى عالم البناء ، وحل مشكلة البنايات الصناعية والمنازل الريفية ٠٠ أما ضيفاه فكانا مستر « وليم داد » ـ الذى كان من قبل منتجا للسيارات، فأصبح كبير موردى الطائرات فى انجلترا ـ ومستر « جوزيف فار » رئيس القسم الفنى بمدرسة « ولدينجستانثون » ٠٠ وكانوا من أعضـــاء مجلس الاشراف على هذه المؤسسة ، ومن الموسرين ٠٠ كما كان سير « اليفـــاز »

تلميذا لوالد مستر « هس » ، وصاحب فضل فى تعيين الاخير فى (ولدينجستانتون) ، وكان مسنا ، أنيقا ، لطيفا ٠٠ فى حين كان مستر « داد » دقيقا ، أريبا ، بادى الحذر والنشاط معا ٠٠ أما مستر « فار » فكان ضخم الجسم ، لا تنفك يداه تتحركان فى قلق ، وتبدو جيوبه مكتظة بالدفاتر والمذكرات

قال مستر « داد » وهم يتعرضون لما أحاق بمستر « هس » من سوء حظ : « اننى لا أؤمن بشىء اسمه سوء حظ ٠٠ وانما هناك اذا شئتما « سوء تدبير » !٠٠

فقال مستر « فار » فى لهجة مبهمة وهو يتطلع الى سير اليفاز : « الى حد ما ٠٠ »

واستطرد سير اليفاز : « لا يسعنى الا أن أرى أن الرجل الذى يكل شئونه الى محام - كما تفعل الارملة او اليتيم - تعوزه ولابد رجاحة الحكم والتقدير ٠٠ »

واجمع ثلاثتهم على أن مستر « هس » كان مخطئا اذ عهد بأمواله الى محاميه ، ثم انتقلوا الى سياسته التربوية ، فعاب عليه « سير اليفاز » استناده الى النظريات ، وادخاله المنطق فى تعليم كل مادة ، وتشجيعه التلاميذ على الاقبال على الفلسفة !٠٠ وانتقد مستر « داد » اصراره على ايلاء تدريس التاريخ اهتماما خاصا كبيرا ، وتساءل عن المسئول عن حريق المدرسة ٠٠ وفى مداهنة خبيثة ، ورياء ماكر ، أخذ مستر « فار » يراوغ ، حتى اذا ألقى المسئولية فى النهاية على مستر « هس » ، كان قد مهد الجو ليرسخ قوله فى نفسى زميليه ٠٠ ثم عقب قائلا : « اننى أول من يعترف بما كان له من فضل رائع على المدرسة فى السنوات الاولى ، كما أننى آخر من يقدم على تغيير أصول العمل التى رسمها ٠٠ ولكن المرء لا يسعه سوى أن يقول انه لم يكن يعرف كيف يوزع سلطاته ، ويتخفف من المسئولية ٠٠ كنت وكافة مدرسى المدرسة نرقبه بأسى وهو يترك الامور تزداد سوءا ، كى لا ينزل عن شىء من سلطاته ! »

فقال مستر « داد » : « اننى لم أقتنع قط باهتمامه البالغ بتدريس التاريخ ٠٠ لقد كان يلقن التلاميذ تاريخ (آشور) ٠٠ تصورا ٠٠ (آشور) ! ٠٠ ان المواد التجارية والصناعية يجب أن تكون الاولى فى أية مدرسة حديثة »

فقال مستر اليفاز : « كان لابد لمدرسة (ولدينجستانتون) من أن تبدأ عهدا جديدا ، وقد جاء ماحدث فاصلا بين العهدين ٠٠ »

قال « داد » : « هذا معناه ترشيح ٠٠ فار »

فاستتلى « اليفاز » : « اذا كان على استعداد لان يحمل العبء ٠٠ »

وهنا قال مستر « فار » : « لست اريد أن أرى المدرسة تنتهى الى خراب ، فقد أنفقت فيها شطرا كبيرا من عمرى »

وكانت المشكلة هى مفاتحة مستر « هس » بشان هذا التغيير ٠٠ فاقترح مستر « فار » أن يذهبوا جميعا الى (سندرينج) ، التى اعتاد هو أن يقصدها

ليلعب الجولف ، وكان التقاءهم فيها محض مصادفة !

★ ★ ★

• وهكذا التقوا ثلاثتهم فى فندق « الجولف » فى (سندرينج) مساء الجمعة .. وكان الجراح الكبير سير « ألفيوس منجو » قد اعتزم أن يصل فى الصباح التالى ، وأن يقوم باجراء الجراحة قبل الظهر ، ومن ثم كانت الفرصة الوحيدة للثلاثة تنحصر بين ساعة الفطور وموعد وصول الجراح .. وكان الاستخذاء قد فارق مستر « هس » وتولته لهفة محمومة على الحديث فى أمر المدرسة وعرض آرائه بشأن مستقبلها .. ومن ثم تقرر أن يتم الاجتماع فى الساعة التاسعة والنصف من صباح السبت .

ولم تبد الامور من السوء كما خال مستر « هس » ، فان مسز « كروم » لم تثر كثير اعتراض ضد اجراء الجراحة فى دارها ، ما دامت ستصيب اتعابا اضافية .. بل انها بدت مغتبطة حين أقبل سير « ألفيوس » تتبعه علب الادوات والمواد المعقمة ، وانهمك فى اعداد مسرح العملية ..

ولم يعد مستر « هس » مكتئبا ، بل انه لاح مطمئنا الى نفسه ..

وكان سير « اليفاز » أول من وصل من رجال المدرسة ، ثم تبعه زميلاه .. وكان مستر « هس » قد قضى الليل بطوله يفكر فى الامر ، دون أن تشغله أوجاعه .. فلما وصلوا كان متأهبا للقائهم بذهن صاف ، ومن ثم أقصى زوجته عن الحجرة فى رفق ، وابتدرهم قائلا :

— أعرف تماما المهمة التى جئتم من أجلها .. جئتم تقصوننى عن منصبى كناظر لمدرسة (ولدينجستانتون) . ولقد كان مستر « فار » ..

وهم هذا أن يقاطعه ، لكن « هس » تابع كلامه : « لا .. أحب اولا أن أحدثكم قليلا عن المدرسة ، وعن دورى فيها ، وعن عملى فى التربية ، وعن موقفى من ذلك كله .. لقد كنت منذ شهر واثقا من أن أمامى عشرين عاما أخرى قبل أن أتقاعد ، رغم اننى اليوم قد تجاوزت الخمسين .. ولكن لم تلبث أن انصبت على المصائب — وآخرها ما أعانيه الآن ، فان جسمى يتعذب ، وعقلى مثل سباح يكافح أمواج الألم ، بعيدا عن الشاطىء ! — على أن أقسى الضربات أيها السادة ، وآخر الضربات ، هى اقصائى عن العمل الذى انفقت فيه عمرى !.. لا تحاولوا التخفيف عنى ، بل انصتوا ودعونى أتكلم .. »

.. وبدت فى صوته نبرة السلطان الذى كان يحكم به مدرسة (ولدينجستانتون) طيلة خمس وعشرين سنة .. ثم استطرد : « ان فى اختتام عملى فى المدرسة ، نهاية لوجودى وكيانى .. دعونى أفضى بكل ما فى نفسى ، فبعد ساعة قد أصمت الى الابد .. اننى ظللت حياتى أتكتم دينى ، فلماذا أتكتمه الآن ؟.. لقد حاولت دائما أن أبدو لكم شخصا « عمليا » ، قادرا على السيطرة على نفسى .. ولكننى كنت — فى السر — متدينا الى أقصى حد . وكانت (ولدينجستانتون) مذبحى الذى قدمت عليه نفسى لله قربانا ..

وانى لادرك الآن اننى أخطأت وتهاونت ، وكنت متراخيا ومتهورا ، ولكنى بذلت قصارى ما فى وسعى ٠ خدمت الله بأقصى ما لدى من قوة ومعرفة ، والآن ـ وقد ادلهمت الظلمات ـ أين هذا الرب الذى عبدت ؟ ٠٠ لماذا لا يقف بينى وبين هذا الضرر الذى تريدون الحاقه بالعمل الذى وقفت عليه عمرى ؟ »

وتلفت مستر « داد » الى مستر « فار » بعينين تفيضان ارتياعا ٠٠ ولكن مستر « هس » مضى وكأنه يتحدث الى نفسه : « لقد تأملت قلبى فى الليل ، وفتشت بين حناياه عن دوافع وضيعة وخطايا مخفية ٠٠ حاكمت نفسى لادرك السر فى أن الله يحجب نفسه عنى الآن ، فلم أجد سببا !٠٠ اننى فى مرارة الاسى أميل الى أن انصاع لكم وأقول : خذوا المدرسة وافعلوا بها ماشئتم ٠٠ فان قرب الموت يحيل الاشياء المألوفة المجربة ، الى أشياء بعيدة عن الواقع ٠٠ وليس أقرب الى الواقع عندى الآن من ذلك الظلام الذى يخيم فوقى ، ويوسوس لى فى الحاح أن أسب الله ثم أموت !٠٠ فلماذا لا أفعل ؟ ٠٠ لماذا أتمسك بعملى اذا كان الله ـ الذى تقربت اليه بهذا العمل ـ يتركنى ؟٠٠ أظننى أفعل لأننى لا أزال أرجو اشارة تعيد الى نفسى الطمأنينة ٠٠ لأننى لم أنهزم تماما بعد ٠٠ والآن ٠٠ سأصارحكم بما يدعونى الى أن أناضل كى لا توكل المدرسة الى « فار »

واحتج مستر « فار » ٠٠ وأكد « سير اليفاز » أنه صاحب الاقتراح فى أن يخلفه « فار » ٠٠ فقال مستر « هس » :

ـ لقد كانت (ولدينجستانتون) حين جئت اليها ، مدرسة عادية ، لاتضم أكثر من سبعين تلميذا ، يدرسون وفق منهج بال ، عتيق ٠٠ أما اليوم ٠٠ ان قيمة المدرسة ليست فى البنايات والمعامل والمتاحف التى تضمها ، وانما قيمتها فيما تربيه من عقول ونفوس ٠٠ وهى فى هذا قد أصبحت مشعلا ٠٠ لقد أوقدت فى المدرسة شمعة فغدت اليوم مشعلا ٠٠ ولعل رياح القدر تدفعها لتضىء للدنيا كلها !

واستبد به الحماس ، فنسى آلامه وأوجاعه وهو يستطرد : « ترى ما هى مهمة المدرس فى الدنيا ؟ ٠٠ انها أعظم المهام الانسانية ٠٠ اذ ما الانسان بغير علم ؟ ٠٠ انه يولد كالوحوش ، جشعا ، أنانيا ، شهوانيا ، جم المخاوف ٠٠ لا يقدر شيئا الا بالنسبة الى نفسه ٠٠ حتى الحب لديه صفقة ومساومة ٠٠ ونحن ـ معشر المدرسين ـ الذين نرفعه عن هذا الانصراف الى نفسه ٠٠ نحن نفتح عينيه على الماضى والمستقبل وعلى حياة الانسان الخالدة ٠٠٠ ومن ثم فهو ينجو من العدم على أيدينا وحدنا ٠٠ ان الرجل المتعلم انسان تحرر من اسار النفس ليساهم فى حياة باقية لا تموت ، لا ندرى متى بدأت ، ولكنها تنمو فوقنا ٠٠ فوق النجوم ٠٠ لقد سيطرت على (ولدينجستانتون) خمسا وعشرين سنة وهبت خلالها الاعمى ابصارا ٠٠ ومنحت آلافا من الصبية فهما ، فهما ساميا ، يشمل الانسانية بأسرها ، لا قوم أولئك الصبية فحسب ٠٠ علمتهم تاريخ الجنس

البشرى ، ليصبح مجالا لمغامراتهم .. وعلمتهم الجغرافيا ليسيطروا على العالم .. واللغات لتكون نوافذ يطلون خلالها على الشعوب الاجنبية .. والعلوم ليرتادوا مجاهل المادة .. واستطعت دائما أن أستبقى « فار » فى الحدود التى يكون فيها نافعا . ولقد أصبح بعض تلاميذى رجال أعمال ناجحين ، ولكنى أبدا لم أسع - ولن أسعى - الى أن أجعلهم رجال أعمال .. وانما سعيت الى أن يوفقوا فى كل مهنة ومجال ، وينطلقوا فى الحياة سادة ، مهذبين ، واسعى الفكر والفهم ، بعيدين عن الانانية ، متمكنين من أنفسهم ، خداما للجنس البشرى ، لان تعليمهم قام على اساس تحريرهم من الاشياء الوضيعة ، الضيقة النطاق .. وعندما جاءت الحرب كانوا متأهبين لها .. كم منهم لاقوا حتفهم ، وبينهم ابنى الأوحد ! .. يجب أن تبقى سياستى فى (ولدينجستانتون) كما رسمتها .. يجب !.. ما الذى جعل أبنائى موفقين ؟.. انه التاريخ ، وعلم الاحياء ، والعلوم ، والفلسفة ، فهذه جماع الحكمة !.. واذا أريد للمدرسة أن تبقى ، فيجب أن يرأسها رجل قدير فى تدريس التاريخ .. رجل فيلسوف ، وعالم بالاحياء ، وخبير بالآثار ، وملم باللغات .. ان « فار » لم يفهم يوما روح رسالة المدرسة ، فان أفقه ضيق .. انه يفكر فى الكيمياء والطبيعة كمهنة ، لا كوسيلة للادراك .. انه يظن أننا نحارب الالمان ، وان ابنى الغالى وأمثاله ممن لا حصر لهم من البواسل ، ضحوا بأرواحهم لنحل محل الالمان فى حكم البلاد !.. هذا مجال فكره ، اذ لا دين له ولا عقيدة ولا ايمان .. لماذا يطمع فى مكانى ؟.. أيبغى أن يخدم كما خدمت ؟ .. لا ، وانما لأنه يحسدنى وينفس على بيتى ، ودخلى ، ورئاستى للمدرسة ! »

★ ★ ★

• وهموا أن يتكلموا ، ولكن الكلمات احتضرت على شفاههم ! .. وشحب وجه مستر « فار » وتفصد العرق منه .. واخيرا استطاع « سير اليفاز » أن يتكلم ليلوم مستر « هس » على أنه يرى نفسه خالق المدرسة وقائدها ، متناسيا فضل مجلس ادارتها ، والنظار الذين رأسوها فى الخمسين عاما السابقة على عهده ، وأولئك الذين يهبونها المال اللازم لها .. وتشجع مستر « داد » ، فقال ان المدرسة انشئت لتكون معهدا تجاريا حديثا ، ويجب أن تبقى كذلك !

وعاد « سير اليفاز » يقول : « لقد افلتت منك يا مستر « هس » أشياء آلمنى وأذهلنى أن أسمعها منك .. انك لم تتكلم عن جحود الانسان فحسب ، بل أضفت اليه جحود الله ! .. سمعتك تقول ان الله ساكت لا يساعدك ، وانه تخلى عنك برغم أعمالك الجليلة .. اما وانت تقف على حافة « السر الأعظم » - الموت - فاننى أريد أن أحاجيك .. اننى لا أعلن عن تقواى ، ولكنى مضطر الى أن أعترف باننى أدين بالكثير لله .. انك تحت وطأة المحن التى تتلقاها النفوس التقية بالحمد ، تكشف عن تشبث بالزهو والاعتداد ..

تماما كما كنت تفعل حين تملى علينا مطالبك للمدرسة ، ٠ دون أن تسألنا رأينا ، وكأن هباتنا فروض واجبة !٠٠ ان الله لا يبتلى الانسان دون ما داع للابتلاء ٠٠ اننى رجل مسن ، وقد شهدت الكثير فى الدنيا ، سيما دنيا المال والصناعة الملبئة بالفرص السريعة الافلات ، وبالمزالق !٠٠ ومارأيت ابدا فى كل تجاربى رجلا مستقيم الذهن ينهار ، ولا سمسارا أمينا يمنى بالخراب ٠٠ »

ومضى يضرب الامثال على أن الله كان يوحى اليه فى سويعات الحرج بما ينقذه من خراب محقق ٠٠ وعقب مستر « داد » قائلا لمستر « هس » أنه اذا رأى أعماله تنهار ، فليس معنى ذلك أن الله أخطأ وتنكر له ، وانما معناه انه هو الذى أخطأ ٠٠ « انك قد تكون استاذا عظيما ، شهيرا ، ولكن الله استاذ أعظم وأشهر ٠٠ ولابد أنك أخفقت فى اقناعه بكمال سياستك التربوية ! »

وأخلد مستر « هس » برهة للتفكير ، ثم قال : « لقد سألت نفسى طويلا فى هذا الصدد ٠٠ لا ، لا اعتقد اننى كنت مخطئا ، بل مازلت مؤمنا بأن العمل الذى كرست له نفسى كان صائبا ، صحيحا فى روحه وغرضه ، وصحيحا فى خطته وأسلوبه ٠٠ ان ايمانى لم يكن أقوى منه الآن ، ففى قلبى اله ٠٠ فى قلبى - على الاقل - اله أرشدنى دائما الى الصواب ، ولكنه لا يرشدنى الآن ٠٠ على أن ضميرى لا يزال صامدا ، منيعا ٠٠ هذه المصائب تحيرنى ، ولكنها لا تذلنى ٠٠ لقد انهكت ذهنى المسألة التى أثرتها ياسير اليفاز : مسألة الدستور الخلقى الذى يحكم العالم ٠٠ لطالما سألت نفسى : هل الفشل نقمة ؟٠٠ وهل النجاح اشراقة الرضا من الله ؟٠٠ انك تذهب الى أن معنى الصواب عند الله هو عين معناه عندنا ، وان رخاءك دليل رضاء الله عنك ، ومصائبى مظهر سخطه على ٠٠ ولكن المصائب التى لاحقتنى جعلتنى أواجه المسألة الأساسية : هل تقدير الله للصواب يتمشى مع معنى الصواب فى ادراكنا ؟٠٠ هل يحفل الله بما يثقل ضمائرنا من مشكلات ، وبجهادنا لنفعل الصواب ؟٠٠ لقد آمنت منذ حداثتى بالله كأب للكون ، وبالمسيح كابن له لم يصلب الا لينتصر ، وليرفعنا فى النهاية اليه ٠٠ ولكن الايمان بهذا معناه الايمان باستمرار نضال الجنس البشرى ٠٠ أى أن حياة الانسان يجب أن تكون كنار دائمة الانتشار ٠٠ فاذا قدر للصواب والخطأ أن يضيعا هباء دون ما اكتراث ، واذا كان ثمة عذاب بلا هدف ولا ثمرة ، واذا لم يتضح الأمل فى حياة خالدة تترتب على كل الاشياء الطيبة ، فلا معنى للايمان ٠٠ بل يكون ايماننا كجذوة تشتعل فى ظلام تنتابه الرياح ، ولن يعقبه فجر !٠٠ لقد أرقت الليالى أفكر ، فانتهيت الى أن من المحتمل أن لا يكون سوى فراغ دامس الظلمة ، قر البرد ، حيث اعتقدنا أن ثمة الها مسيطرا على الكون ! »

★ ★ ★

● وانفجر مستر « داد » يعيب عليه اضاعة الوقت فى فلسفة تقود الى التجديف ، قائلا : « يكفينى الكتاب المقدس ، والدين الذى تعلمته فى حجر

أمي » ·· بينما تحول مستر « هس » يروى لهم ما حدث في يوم خرج فيه للتنزهة في الريف ، قبل أن يشتد به المرض ·· كان الجو ساخنا ·· وانتهى الى غابة على مسافة ميل من (سندرينج) ، فحــاول أن يستريح ، ولــكن الذباب والحشرات أقضت راحته ، واضطرته لأن يشرع في العودة ·· وتحامل على نفسه متعبا ·· « وفي حالي تلك ، صادفت ــ تبــاعا ــ عدة أشياء ، بدا لى في تعبى وضيقى أن يدا وضعتها في طريقى عمدا : كان أولها أرنبــا صغيرا جدا ، شوهت جثته أشنع تشويه ·· وأسرعت أبتعد عنه محاولا أن أنسى المنظر ، واذا بى أصادف صفا من أجسام بنيـــة اللون ·· حيوانات صغيرة ، ضحايا طير من الطيور الجارحة ، ولا تزال أجســـادها متوترة العضلات من الألم ·· وعلى مسافة أخرى ، صادفت قطا بريا بشع المنظر ، يحمل عصفورا صغيرا ، فلما رآنى أفلته وهرب ·· وراح العصـــفور يدور حول نفسه عاجزا عن النهوض ، فخطر لى ان أقتله لأضع نهاية لعــذابه ، لكن مقاومته الواهنة جعلتنى أبدو قاتلا ، أكثر منى مشفقا ! ·· قتلته وأنا أتألم ، وأسرعت بالفرار قائلا : « أهذا الجحيم من خلق الله ! » ·· وفجأة ، خيل الى أن النسب والمعايير انجابت عن بصرى ، وانني أرى الكون كله وقد أزاح النقاب عن وجهه ، فاذا به يطفح بشر لاحــد له !·· وخيــل الى أن قوة من الظلام جثمت فوقى ترقبنى بنظرة ساخرة ·· ولم أقو فيما بقى من ذلك اليوم على أن أفكر في مصائب الكائنات الحية وتعاساتها ·· ولست أدرى لماذا أشفقت على الحيوان أكثر من اشفاقى على الانسان ·· لعل مرد ذلك الى أن آلام الانسان تمتزج بأمور خلقية ومعنوية ، فهو يستعرض ما قبل النــكبات وما بعدها ويجد في ذلك مبررات للنكبات وعزاء ·· أما الحيوان فليس له سوى أحواله الراهنة !

« انني لأتساءل : هل في هذه الدنيا مخلوق واحد سليم معافى ؟·· لقد لاحظت ذات يوم أن ما من شجرة الا وبها عطب أو نــدوب أو آثار أغصان كسيرة ، أو فروع ذوت ·· حتى العشب تحت قــدمى ، بدا مضنى ، وقــد انتشرت فيه الحشرات ·· وبدا كأن النباتات الزاحفـــة مشتبكة في صراع بطىء ، ومعظمها مسلح ــ كالسفاكين ــ بأشواك ، أو شعيرات ذات وخز ·· وبعضها سام ·· وهذه هى حقيقة الحياة ·· فما الدنيا الا كهذه الغابات ، يواتيها فصل للنمو ، ثم تعود بقية العام نهبا للسطو والعــدوان من مخلوقات تستبيح ما نما فيها !

« لا تعيبوا على أن اتخذت أمثلة من النبات والحشرات الصغيرة ، فانهــا جزء من نسيج الحياة العامة ·· ومع ذلك ، فان الوحوش الضخمة هى الاخرى تمضى في الحياة معذبة ، مطاردة ، خائفة ·· ان الجاموس الهنــدى الضخم معذب دائما بأفواج من الحشرات ·· والنمر يعيش دائما موجسا ، متربصا ، يهيم نصف أوقات يقظته جائعا ، فاذا قتل فريسة ، أقبل عليها في نهم حتى يملأ بطنــه فيثقــل حراكه ، ويستلقى مسترخيا ، واذ ذاك يفاجئه الصياد فيصرعه !·· لقد حاولت في ذلك اليوم أن أتذكر صورا لسعادة المخلوقات ،

فلم أتذكر سوى فظائع ٠٠ أترون كيف يبدو طائر القطا « البنجوين » فى الصور حزينا ؟٠٠ ان بيضه دائما معرض للكسر والتلف لأسباب عديدة ، أبسطها وقوعه على الجليد اليابس ، أو سقوطه فى فجوة الى الماء القارس تحت سطح الجليد ٠٠ ومن‌ثم يغالى الطير – أبا وأما – فى حماية البيض القليل الذى تبقى ٠٠ واذ كان الحرص على بقاء النوع يدفع من لا بيض له الى سرقة البيض من سواه ، لذلك نرى السعيد الذى يقتنى بيضة ، يلازم عشه لايبرحه أياما ، رغم الجوع والبرد ٠٠ ولكن هذا لا يقيه الانقراض ، فان جماعات من البشر تسعى لاقتناصه وقتله واستخراج مافى جسمه من زيت !٠٠ ان الذين يقومون بهذا العمل قد تلقوا تدريبا على الأعمال التجارية ، كما ترون ، فهم يعتقدون أن الله يمنحنا القوة لأنه يريدنا على أن نفيد منها ، وأن من العدل أن يقنصوا كل مايعود عليهم بالربح ! »

وهم كل من مستر « داد » ومستر « فار » أن يقاطعه ، ولكنه قال : « دعونى أكمل حديثى : هل فكرتم يوما فى قيمة الجموع الهائلة من الكائنات الطفيلية ، وفيما فى وجودها ذاته من قسوة ؟٠٠ انها تكرس حياتها للعدوان على الأنسجة الحية فى أجساد المخلوقات الأخرى ، ولا سبيل لها الى الحياة بغير هذا ٠٠ هل فكرتم فى آلاف الحميات المعدية التى تصيبنا بها هذه الطفيليات ٠٠ لغير ما مبرر ، ولاعدالة ؟٠٠ على أن كافة آلام البشر من هذه الناحية ، لاتقاس بما تعانيه الوحوش ، التى لاتعرف كيف تدفع عن نفسها هذه الطفيليات أو تخفف‌من آلامها٠٠ أفهذه دنياخلقت لاسعاد المخلوقات ذات‌الحس‌والشعور ؟!٠٠ ماذا يملك الانسان ازاء هذه الحقائق سوى أن يتمرد ؟٠٠ كيف يثق فى الخالق الذى صنع هذه الطفيليات وأطلقها تتكاثر بنسبة هائلة ، وكيف يتوقع منه انصافا ؟ »

★ ★ ★

◆ وكان مستر « فار » طيلة الوقت يبدى تململا ونفاد صبر ، فلما فرغ‌مستر « هس » من حديثه انطلق يبدى استنكاره لما سمع من رجل كان مؤتمنا على تعليم فتيان لم يستكملوا نضوجهم الذهنى ، ولم يستقر الايمان فى قلوبهم ٠٠ ثم استطرد قائلا :

– انك فى حالك السقيمة يامستر « هس » تبدو عاجزا عن أن تتبين ما فى تحقيرك لجلائل خلق الله من أنانية وصلف ٠٠ على أنك كنت هكذا دائما ، وقد عانيت من صلفك وغرورك اثنى عشر عاما !٠٠ اننى أعتقد أننا جميعا كنا مليئين بالاشفاق عليك حين قدمنا ، ولكنى أصبحت أرى الآن أن ماأنزله الله بك أقل مما تستحق !٠٠ انك تنتقد الكون الذى صنعه الله ، فأى كون تراك كنت صانعا لو أنك كنت الخالق ؟٠٠ اننى لا أراك تصبو الى أقل من منصب « ناظر » الكون ، واذ ذاك تستطيع أن تستغل مواهبك على أكمل وجه : فلا تعود القطط تنقض على العصافير ، وتنمو الأشجار فى تناسق دقيق حتى تمس السماء ٠٠

حتى البراغيث أكاد أراها فى عالمك مخلوقات تطفح بالصحة والسعادة وتقوم بأعمال الخير كأولاد الكشافة !

وكف مستر « فار » عن سخريته ليهيب ب « هس » فى ضراعة أن يتخلى عن تجديفه وهو فى ساعة الخطر ، وأن يدرك أن النيل من الله لن ينقذه من نكباته !

٤ ـ هل نموت حقا ؟

◆ **وقطع** الحديث قدوم الدكتور « اليهو باراك » ٠٠ وكان شابا لا يكاد المرء يلاحظ أن له ساقا صناعية ـ اذ فقد احدى ساقيه فى الحرب ـ وكانت قسمات وجهه تنم عن رزانة وحزم ٠٠ وبعد أن تأمل الرجال الأربعة مليا ، قال لمستر « هس » فى لهجة صاحب السلطان : « كان يجب أن تلزم فراشك ٠٠ ان الجلوس يتعبك »

وتعلل مستر « هس » بأنه مضطر الى أن يخوض هذا الجدل الذى كانوا فيه قبل حضوره ٠٠ فحدج الطبيب الحضور بنظرة صارمة ، بينما أخذ « سير اليفاز » يبين له كيف أنهم جاءوا فى مهمة خاصة ، **فاذا مستر « هس » يبعد بهم عن الموضوع ، ليتحدث عن تعاسات الحياة ، وليقول ان الدنيا يسيطر عليها احد اثنين : اما اله قاس ، واما اله يسف فى عدم الاكتراث حتى يفقد الوهيته !٠٠** وهنا تصدى مستر « هس » للحديث قائلا :

ـ اننى مذ خلفت (ولدينجستانتون) لم أكف عن التفكير ليل نهار فى أسس هذه الحياة ٠٠ وقد اضطررت الى أن أعيد النظر فى معتقداتى وايمانى وحوافز تصرفاتى ! لقد توالت على المصائب متتابعة ، سريعة ، دون سبب أو مبرر ٠٠ فاذا بى أرتمى فى غياهب الشك والقنوط ، فيتبدى لى العالم قاسيا ، اسود ٠٠ لقد كنت أنكر ـ حتى قبل أن تكتنف الغيوم ايمانى ـ ان اله الخير يحكم هذه الدنيا بحيث يعنى بالصغيرة والكبيرة ،

ويوزع علينا الجزاء والعقاب يوما بعد يوم ٠٠ ولكن هؤلاء السادة يؤمنون بالعكس : يؤمنون بأن النجاح جزاء التقوى ، والعناء عقاب عدم الاستقامة ٠٠ وهذا كله وثيق العلاقة بالتعليم والتربية ، **فقبل أن تعد الأولاد لدورهم فى الدنيا ينبغى أن تتساءل : ماهذه الدنيا التى نعدهم لها ؟٠٠ أهى مأساة أم مهزلة ؟٠٠ مانوع الرواية التى سيضطرون الى تمثيلها ؟**

وكان الطبيب ينصت فى تحبيذ ، فاستطرد «هس» قائلا : « وعلى هذا ، فان كان النجاح هو الجزاء فى الحياة ، وجب أن نعد الأولاد للنجاح فقط ، فلا حاجة بالناس اذن لأن يفهموا الحياة ذاتها ، طالما كانوا يؤدون وظائفهم فيها ٠٠ هذا رأى السادة المشرفين على المدرسة ، ورأى معظم أهل الدنيا : « خذ الحياة على علاتها ، وأطع ماهو كائن ، أى استسلم ٠٠ فان الحياة ينبغى ألا تكون مغامرة وكفاحا ، وانما مجرد طاعة واستمتاع بجزاء الطاعة ! » ٠٠ على اننى آمنت دائما بأن مايطلبه الله من الانسان هو أن يبذل قصارى جهده ليتعاون وليفهم ٠٠ وهذا ماعلمته لأبنائى : **علمتهم الفكر والخيال قبل كل شىء ٠٠ كنت ألقنهم المعرفة ، معرفة الانسان ، ودنياه ، ومايمكن أن يكون عليه الانسان ، وماكان محتملا أن يكون عليه ، ولهذا كنت أعلمهم الفلسفة والتاريخ** ٠٠ ولو استطعت أن ألقنهم المعرفة بدون الطبيعة والكيمياء والرياضيات لأقصيت هذه عن البرنامج ٠٠ والآن ، والظلمات تكتنف حياتى ، وقد تفتحت عيناى على ألوان العذاب والشقاء التى نسجت منها الحياة ، أرانى أكثر تشبثا بروح التقوى والصواب التى تعمر قلبى ! »

وانطلق يتحدث عن « الاله » الذى تضىء جذوة الايمان به قلبه : اله لايقر العذاب المهين الذى يسود الحياة ، ولا يرضى أن يكون قد خلق الكون عبثا ٠٠ فاذا كان الاله الذى يريدونه

على أن يؤمن به ـ لأن الدين يدعو الى ذلك ـ يختلف عن ذاك الذى يعمر قلبه ، فلن يزيده هذا سوى تشبثا بالهه !٠٠ ومضى يستعرض ماتوصل اليه الانسان من معرفة عن الأرض فى بدايتها ، وكيف تطورت ، وتطورت الحياة عليها على مر العصور ٠٠ ثم استطرد قائلا :

ـ وأخيرا جاء الانسان ٠٠ المخرب ، مشعل الحروب والنار فى الدنيا ٠٠ أى أمل له فى النهاية ؟٠٠ ان اشعاع الشمس يفقد شدته يوما بعد يوم ، ولسوف يأتى اليوم الذى تفقد فيه الشمس حرارتها ، وتجمد فى الفراغ لا تشرق ولا تغيب !٠٠ ولسوف يأتى اليوم الذى تموت فيه الحياة على الأرض وتعروها برودة جليدية كما حدث للقمر ٠٠ ولكن فى أعماق قلوبنا روحا ، الها يهتف : « لا » !٠٠ ولكن ، هل هناك صوت يرتفع خارج أجوافنا فى الكون البارد الخاوى ، مرددا هذه الـ « لا » ؟

وهتف سير اليفاز حائرا : « ان مرضك يصبغ الأوضاع فى نظرك بصبغته ٠٠ ان ماتقوله صحيح تماما ، وزائف تماما أيضا ٠٠ ان الحياة كما قلت نفحة من هواء ورطوبة على هذا الكوكب الضئيل ٠٠ ولكن ، **كيف كان لنا أن نوجد وأن نستمر فى الوجود ، لو لم تكن تحف بنا فى كل لحظة رحمة الله وحكمته ؟٠٠ مامن شعرة من رأسى تقع على الأرض دون علمه وموافقته ٠٠ اننى رجل تلهينى مشاغلى عن القراءة ، ولكننى خلال حديثك كنت أفكر فى بعض العجائب : عين الانسان ٠٠ تكاثر النبات ٠٠ الدقة التى روعيت فى مقاسات كل جناح فى الحشرات ذات الأجنحة القشرية التى تبدو كأنها نسجت من غشاء !٠٠ القدرة الرحيمة التى تصد وطأة الريح عن الحمل الذى لم ينبت صوفه بعد** ٠٠ النظام الرتيب ، والطاعة الانسياقية ، اللذان يبدوان فى انقسام الخلية فى البويضة الملقحة لتبنى جسما كاملا لكائن حى ٠٠ أرأيت النطفة

التى يخلق منها الانسان ، كيف تنقسم تباعا حتى تغدو اثنتين وثلاثين خلية ٠٠ ثم تهتف احداها : « أنا أصبح شعرة » ٠٠ وأخرى تصبح كرية دموية ٠٠ وثالثة خلية فى المخ ٠٠ وهكذا تتخذ كل منها مكانها !؟٠٠ اننى لست متعمقا فى العلوم ، ولكن ، انظر الى الماء ٠ كل السوائل الأخرى ـ فيما عدا واحدا أو اثنين ـ تنكمش بالبرودة والتجمد ، أما الماء فيتمدد بالتجمد !٠٠ والماء موصل غير جيد للحرارة ، فلو أن وزنه ازداد بالتجمد لغاص الى القاع فى البحار القطبية وبقى دون انصهار ، وهكذا تتراكم طبقات الجليد حتى يصبح المحيط بأسره متجمدا ، وعندئذ تكف الحياة !٠٠ ولولا بخار الماء الذى يتصاعد ويتخلل أشعة الشمس ، لاحترق وجه الأرض فى النهار ، ولتجمدت الدنيا فى الليل !٠٠ وهكذا ترى رحمات الله ونعمه : أنا نفسى ، بل الجسم الانسانى عامة ، تسعون فى المائة منه ماء ! والماء حين يتجمد فى الهواء فى الشتاء ،لايتساقط فى قطع جليدية صلبة ، وانما يهبط فى بلورات بديعة الشكل، دقيقة الحجم ، لينة ٠٠ وعلى الأرض تنضم كل بلورة الى الأخرى ، لتنسج غلالة دافئة كالصوف ، حول البراعم والنباتات الوليدة !

« انك تلوم الله اذ خلق الطفيليات ، ولكن ، ألا تراها أرسلت لتعلمنا درسا أدبيا عظيما ؟٠٠ انها تعيش عالة ، فاذا عثرت على مورد أخذت تفقد صفاتها وتكوينها ، وتغدو أجساما دقيقة لا تكاد ترى فى الغالب بالعين المجردة ٠٠ أليست تعلمنا بحياتها هذه ـ على وضاعتها ـ درسا فى الاعتماد على النفس ؟
ومع ذلك فانها لاتخلو من نفع ، فلقد قيل لى انه لولا «البكتريا» ما استطاع الانسان أن يهضم غذاءه ٠٠ ثم ، تأمل المراحل التى مرت بها الحياة على الأرض ، وماتخللها من تطور رائع ، منظم، حتى ظهر الانسان ٠٠ أى عمل رائع يمثله هذا الانسان !٠٠ أفبعد هذا ترتاب فى أن يد الله تقود كل شىء ؟ »

فقال مستر (هس) : « ليس وجود بعض نواحى الجمال فى الدنيا دليلا على رضى الله ، بل انكم لاتجدون جمالا دون قبح يقابله !٠٠ وليس بين ماذكرت شىء الا ويشير الى مافى هذا النظام الذى نعيش فيه من عدم اكتراث بنا !٠٠ ان الجمال يحدث ولايمنح ٠٠ والألم والعذاب والهناء أمور لاتخفى ٠٠ ولكن جذوة الصواب والعمل الصالح لاتتقد الا فى قلب الانسان !٠٠ لقد تحدثت عن عجائب تطور البويضة والعلقة ، واعترف أنها عملية دقيقة رائعة ، ولكن ، أى مساس لها بشكوكى ؟٠٠ انها تزيد من شعورى بأن الله الذى يسيطر على هذه الدنيا ، يصدر فى سيطرته عن سخرية أكثر منه عن حب !٠٠ ان انقسام الخلايا وتكوينها الجسم عملية رائعة ، ولكنها قد تنتهى الى خلق معتوه أو مقعد أو عاجز ٠٠ ولقد تحدثت عن نظام التطور والرقى المطرد ، وكيف أن هذا النظام بلغ أوجه بظهورنا ، معشر البشر ٠٠ اننى أرى فعلا التغير والتحول مستمرين ، ولكن دون ما خطة ، ودون ما عاطفة ٠٠ تأملوا مثلا هجرة الطيور عبر البحر الأبيض المتوسط ٠٠ لقد كانت الأرض تمتد من افريقيا الى أوربا فى عصور سحيقة ، فنبتت فى الطيور غريزة الهجرة من الجنوب القائظ الحر ، الى الشمال ذى الصيف المعتدل ، كى تتوالد ٠٠ وعلى مر الاجيال ، زحف الماء حتى فصل ما بين القارتين ، **ومع ذلك ظلت الطيور مواظبة على رحلاتها التى تهلك خلالها أسراب منها ، اذ يبلغ بها الكلل والارهاق مبلغهما وهى فوق البحر الواسع ، ولامن**



محط ترتاح عنده ، تتهوى فى الماء وتهلك .. بل انظروا الى الانسان ، الذى يتوج هذا التطور ، وانظروا الى انعدام التناسب بين رغباته وشهواته .. »

ومضى « هس » يختار الأمثال من العصور الجيولوجية العتيقة ، وكيف أن بعض النبات والحيوان اختفى خلال ركب التطور وتلاشى .. ضرب مثلا بالعصر الأوسط - عصر الزواحف - وماكان فيه من أحياء ضخمة « كالديناصور » ، وكالأنواع التى لاحصر لها من الحيوانات المائية ، ثم مسحت يد الموت دنيا الأحياء - كما تمسح أصابع طفل لوحه الاردوازى وهى مبتلة - فقضت على كثير من هذه الأحياء دون أن تترك أفرادا منها !.. وتحول يتساءل عن نتيجة التطور : لقد تضاءلت الأجسام وصغرت .. ثم ما النهاية ؟.. لسوف تخمد حرارة الكون يوما ، فتظلم السماء ، وتتجمد الأرض من الزمهرير .. »

واستطرد « هس » يقول وقد برح به الارهاق : « ليس فى الماضى ما يطمئن ، ولا فى المستقبل ما يبعث على الامل .. ليس هناك سوى اله الايمان والشجاعة فى قلوب البشر .. ولكنه لايبعث أية اشارة تنم عن القوة ، أو الرغبة فى النصر .. »

فشهق سير اليفاز قائلا : « الخلود !.. الدوام !.. عدم الموت !.. اعتقد أن هذا هو الأمر الذى نسيناه .. انه الفرق بيننا وبينك .. انك تؤمن بأن كل شىء صائر الى الموت ، وان الموت « نهاية » كل شىء !.. أنك اذ تعمى عن الخلود ، تعمى عن كل شىء ! »

وقال دكتور « باراك » انه لايرى هذا الرأى .. فانضم مستر « داد » الى سير « اليفاز » ، الذى استطرد يقول ان الايمان بالخلود يبرر مايحدث فى الطبيعة .. فالدنيا مسرح امتحان ، وتدريب .. فقال مستر « هس » : « اذا كنت تعتقد فعلا ان الدنيا مسرح لاعداد النفس والروح ، فماذا تظنك

فاعلا اذ تفكر فى وضع (ولدينجستانتون) بين يدى مستر فار ؟ »

فقال مستر «فار» : « اننا لانريد أن نبعث الظلام فى النفوس ، وان نجعل من (ولدينجستانتون) ندوات لليأس والقنوط ٠٠ اننا نريد أن يتعلم الأولاد كيف يخدموا ويساعدوا فى هذا المجال الاقتصادى الدنيوى ، بنفوس مستبشرة متوثبة ، ثم فى أمور أسمى من ذلك ، قبل أن يفارقوا الحياة ٠٠ »

قال مستر « داد » في حيرة : « اذا كان الموت نهاية كل شيء ، فما جدوى المحاولة اذن ؟٠٠ خليق بى أن أترك نفسى تنطلق وفق هواها ٠٠ »

وتطلعوا اليه جميعا ، وراحوا يتصورونه غارقا فى الخمر والطعام والنساء ، لأنه يتوقع الموت فى غده !٠٠ وفجأة تساءل مستر « هس »: « لم أكن أتوقع أن يبرز الخلود والدوام فى نقاشنا ٠٠ .أأنت خالد يا « فار » ؟ »

ـ اننى اطمع فى أن انتقل الى الخلود ، وان لم أرنى أهلا له ٠٠

ـ هكذا حال كل منا ٠٠ كلنا نستحيل الى أرواح محلقة ٠٠ كل شيء معد ومرسوم لنا ، وهذا هو السبب الذى يجب من أجله أن تخفى عن ابنائى عظمة الحياة المتسمة بالمأساة والحزن ٠٠ ومع ذلك ، فلست أدرى سر حرصكم على العلوم الهندسية الفنية ، وعدائكم لتاريخ البشر !

قال سير اليفاز : « لأنه ليس تاريخا صادقا ٠٠ حزمة من الاستنتاجات ، دون نتائج البتة ، وانما هى بدايات ، سرعان ماتغيب فى عالم غير المنظورات ٠٠ **اننى اعترف بأن ليس من شيء فى الدنيا يسير مع التفكير العقلى ، أو يجد تبريرا واضحا ٠٠ ذلك لأن هذه الحياة ليست سوى الصفحة الأولى من سفر ضخم علينا أن نقرأه ٠٠** وكما نجلس هنا ، تجلس الحياة فى الخارج منتظرة ، فى غير نظام ولاترتيب كامل ،

ريثما يسمح لها بالانتقال الى الحقيقة الاوسع نطـاقا ، والى المجال الأعظم ، حيث نجد لكل الفظائع والمحـيرات شرحا ، وتبريرا ، وتصحيحا ٠٠ لقد أثبت المتبحرون فى دراسـة الأرواح مثل دكتـور « كونان دويل » وسير « أوليفر لودج » أن ثمة وجودا يستأنف فى عالم آخـر ٠٠ وقد أمكن اختراق الحجاب الذى يفصل عنا هذا العالم ، والاتصـال بالأرواح الموجودة فيه ٠٠ وهناك علماء وفلاسفة فى انجلترا وفرنسا استطاعوا أن يصلوا ـ علميا ـ الى وصف للحياة التى سننتقل اليها ٠٠ **وهناك كتب علمية وضعت لتصف لنا هذا الانتقال، وزودت بحقائق تقوم على اثباتها أدلة علمية ٠٠ فهناك مثلا صـلة بين الجسد الفـانى وبين الجسـد الروحى الذى يخلفه فى ذلك العالم ٠٠ ولايزال الفارق الجنسى قائما هنـاك وان تجرد من نزواته ، اذ أن الشهوات تنمحى فى ذلك العـالم ٠٠ وليس هناك انجاب للأطفال ٠٠ وهذه ظاهرة هامة ، فهنا يتم المولد ، وهنا تبدأ النفوس الحية ٠٠ وكوكبنا هـذا هو الحوض الذى تنبت فيه بذرة الحياة ٠٠ ان لسير « أوليفر لودج » كتـابا تناول كل هذا ، اسماه « رايموند » ٠٠ ولقد ذكر فيـه أنه التقى فى ارتياده لعالم الأرواح بحقيقة الدين ! »**

فقال الطبيب فى استهجان : « أو تصـدق هذا اللغو ؟ ٠٠ اذا كنت قد ولدت بشفة شوهاء ، فهل ستتبدل هذه الشفة فى ذلك العالم ؟

فقال سير اليفـاز فى وقار : « ان جوابنا عن كل هـذه الاسئلة : لسنا ندرى ٠٠ ولماذا ندرى ؟ »

* * *

◆ **وخرج** مستر « هس » من تأملاته فجأة قائلا : « لا ٠٠ ان الأمهات والأحباء الذين يعيشون فى حزن على موتاهم ، لن يصدقوا هذه الروايات الخرقاء ٠٠ البعث ! ٠٠ من المستحيل أن يصدق عاقل ذلك ، فان هذه الاشياء التى رويتها ياسـير

اليفاز تناقض تركيب كل شيء عرفناه ٠٠ ان البشر يختبرون حقيقة المظاهر التى تبدو لهم ، بالألم ، وبالرغبة ، وبالجهد العضلى ، وبالشعور بضوء الشمس والمطر اذ يقعان على الوجوه ، وبالاحساس بالعدالة وما اليها ٠٠ أما الأشياء التى ذكرتها ، فليس لها ملمس الحقيقة ٠٠ اننى على كل حال احمد الله اذ ادرك اننى لن التقى بابنى ثانية ٠٠ ابدا ! ٠٠ لقد ولى وانقضى ٠٠ »

وغلبه الألم الذهنى والجسدى لحظة ، وتفصد وجهه بالعرق ٠٠ ثم قال : « **لعلنى أقربكم الى الحياة الأخرى التى ذكرتموها ـ الخلود ـ فدعونى أقول عنه شيئا : قد يكون فى الكون اله ، وقد لايكون ٠٠ فان صح وجوده ، فلسوف تكون ثمة قيمة ومعنى لا لكم ولى ولابنى الميت فحسب ، وانما للضفدعة الميتة وما اليها ٠٠ هذا مايصر عليه الاله الذى فى فؤادى ٠٠ يجب أن يكون ثمة جواب ، لاعن موت ابنى وحده ، وانما أيضا عن هلاك طائر « البنجوين » الذى يشوى حيا لاستخراج زيته !٠٠ يجب أن يكون ثمة مبرر لوجود تلك الحشرات والديدان الفتاكة ٠٠** اننى لن أصغى الى اله لايكون أكثر من وسيلة للموت ٠٠ اله لايبدى سوى عدم اكتراث قاس ٠٠ لقد حدثتكم عن الوقائع الفظيعة ، الرهيبة ، فكان جوابكم أننا سنتخلص منها بعد الموت ! ٠٠ اننى اذا قضيت نحبى تحت مبضع الجراح بعد قليل ، ثم استيقظت فى عالم آخر حلو ، وودود ، استرد فيه شعرى ، وتنسد فيه الثغرات التى بين اسنانى ، فلسوف أشعر أننى هجرت نوعى ٠٠ اننى كمن يتسلل من حجرة مريض ليذهب الى حفلة ٠٠ ولسوف اجدنى هناك لاأتكلم الا عن المأساة التى خلفتها ورائى ٠٠ والتى ستبقى هنا ، وتستمر ٠٠ ومع ذلك فأنا أؤمن بالخلود ! »

وأجفل الطبيب فى استنكار ٠٠ ولكن مستر « هس » مضى فى حديثه : « لست أنا الخالد ، وانما الاله الذى فى أعماقى !٠٠

أى شىء فى أشخاصنا يمكن أن يموت ؟ ٠٠ ما الذى يكون نفوسنا ؟٠٠ انه أشياء صغيرة ، تافهة ٠٠ لقد كنت أحب ابنى، فما الذى يهفو اليه قلبى منه ؟ ٠٠ أهى فضائله ٠٠ أم آماله ٠٠ أم اعماله ؟ ٠٠ **لا ، لا شىء من هذا ٠٠ انما أصبو الى نبرة نشاز كانت فى صوته ٠٠ شىء من الأمل الأحمق كان فى حديثه ٠٠ وقع خطواته ٠٠ ولكن نظريتكم عن العالم الآخر ترده الى وقد صقل وهذبت عيوبه ٠٠ فماذا بقى من الأشياء التى كانت تميز شخصه ؟٠٠ لسوف يغدو ابنى اذ ذاك كجميع الابناء ٠٠** وعندما يتم اصلاح الكهول فى ذلك العالم ، سيغدون كبقية الشبان ٠٠ اذن ، لا شخصية فى الامل ، والشرف ، والاستقامة، والصدق ٠٠ لقد ذهب ابنى الى الأبد ٠٠ وقد يتبدد الألم يوما ٠٠ ان الشىء الخالد فينا هو أقل الأشياء انطباعا بشخصيتنا ٠٠ لست أنا ولاأنت اللذين يستمران فى الحياة، انما الذى يعيش هو « الانسان » ٠٠ الانسان العام ٠٠ الشامل ٠٠ الجامع ! »

ومال مستر « هس » فى مقعده وقال : « **ان فى قلوب البشر نارا خالدة لاتخمد ٠٠ وبهذه النار أعيش ٠٠ بها أعرف الاله الذى بيديه خلاصى ٠٠ انه يحثنى على الكفاح ، دون أن يعدنى بعزاء ولا بجزاء ٠٠ انه يأخذ ولا يعطى ٠٠ انه يتألم ـ ربما لينتصر (كما فعل المسيح) ـ وعلينا أن نتألم وأن ننشد أملنا فى أن نفوز بمعرفته ٠٠ انه لن يدعنى أغمض عينى من الأسى ، أو الفشل ، أوالحيرة ٠٠ ومع أن الكون يعذبنى ، وقد يقضى على، الا اننى أثق فى هذا الاله ! ٠٠ وأشعر أن لابد من أن اخدمه٠٠ ولو كان لابد من أن يموت هو الآخر ٠٠ !»**

٥ ـ الانسان بين الخضوع والتمرد !

• عقد الدكتور « باراك » ذراعيه على المائدة واستند اليهما وقال :

ـ هذا جميل ٠٠ اغفروا لى القول ان ثمة بعض اللغو فى حديث كل من

الطرفين ٠٠ اننى ، كما يجب أن يكون كل طبيب ، ملم بعلم النفس ٠٠ واذا شئتم أن أمضى فى الحـــديث ، فلا بد لى من أن أقول كل مابذهنى ٠٠ ولست أحملكم مسئولية الأشياء التى قلتموها ٠٠ ان ماذكرتم عن الأرواح بضاعة رخيصة روجها « سير اوليفر لودج » بين أولئـــك الذين برح بهم الحزن ٠٠ ولا أشك فى أنه كان مخلصا لوجهة نظره ، ولكنه كان فى ذلك مخدوعا ٠٠ لقد تلقى مادته عن الوسطاء ، وتقبل شرحهم لها ، ونقح أقوالهم وكتبها بأسلوبه ٠٠ ولقد غره أن معظم هؤلاء الوسطاء من ذوى المكانة ، الذين لا يطمعون فى كسب مال ، فأخذ أقوالهم على علاتها ، وأصر على أنهم أمناء ٠٠ ولـــكنى طبيب ، والأطباء يعرفون أن الصدق هو آخر انتصار يستطيع الانسان أن ينتزعه من نفسه ! ٠٠ اننى لاأكاد أجد بين مرضاى واحدا يتكلم صدقا ٠٠ أنهم اما أن يهونوا من الأمور ، واما أن يضـــاعفوها ويبالغوا فيها ، لأنهـــم يريدون أن يحدثوا بقولهم أثرا ٠٠ أما الوسطاء ، فأمرهم ابســـط : أجلس أية امرأة فى مقعد وأسألها أن تسترخى ، وأن تغمض عينيها ، وتحاول التجرد من أفكارها وشعورها بما حولها ، ثم سلها أن تتكلم ٠٠ ثم أوح اليها بأن مافى رأســها صدى من عالم آخر ، وسوف تراها تتكلم عجبا ٠٠ لا لأنها تخدعك ، وانما لأنها تتمشى معك ، ولأنها تحب أن يكون اهتمام الحضور مركزا عليها ٠٠ على أن كل هذا على هامش المسألة ٠٠ اننى لم أوت قدرا كبيرا من العلم ، ولكنى اقر بأن من الممكن أن تكون ثمة قوى فى هذا العالم ، قوى شـــاملة ، عامة ، مازلنا لانعرف عنها شيئا — كما كان العالم فى بعض عصور مضت يجهل الكهرباء ، ولايدرى شيئا عن الهواء — بل أعترف بأن من المحتمل أن تكون تحت أبصـارنا الآن أشياء لاتزال مجهولة لنا ٠٠ والمجهول اذا ماعرف ، انضم الى معرفتنا ، فزاد من تعقيد افكارنا أوساعد على تبسيطها ، ولكنه ابدا لايتعارض مع آرائنـا العامة ٠٠ على اننى فيما يتعلق بالخلود ، كما تراه ياسير اليفاز ، أنضم الى مستر هس فى أنه مجرد حلم ! ٠٠ فاذا انتقلنا الى الخلود كما يراه مستر هس ، أرانى أميل الى الأخذ برأيكم ٠٠ فنظريته هو الآخر حلم ٠٠ بل مجرد تلاعب بالالفاظ ! ٠٠ انه يقول ان اللهب الخالد — أومايدعوه روح الله فى الانسان — موجود فى كل منا ، وفى كل البشر ، أفليس من المستغرب أن لايفطن اليــه احد سواه ؟ ٠٠ اننى من أنصار مذهب « لاأدرى » الذين يرون أن الوحى الالهى لايتمشى مع العقـــل ٠٠ أو بالأحرى ، الذين يســـلمون فى رضى بأن الذكاء البشرى محدود ، فيتقبلون الدنيا على علاتهـــا ، ويتقبلون أنفســـهم كما هى فلا يحاولون أن يمضوا الى أبعد من ذلك ! قد تكون هناك أكوان أخرى ، ولكنها لاتهمنى ٠٠ فأنا أعيش فى هذا الكون ، وأنا قانع بهذا فحسب ٠٠لقد مضيت فى الدنيـــا مفتوح العينين مذ ولدت — من ست وثلاثين ســـنة — فما رأيت ، ولا سمعت ، ولاشممت ، ولا لمست ، شبحا أو روحا ! ٠٠ لم أر وميضـــا أو اشارة من ذلك الاله الأعظم الذى ذكره سير اليفاز ٠٠ ولا ذاك الاله الحديث الذى ذكره مستر « هس » ! ٠٠ لم أجد أبدا فى قلوب الناس الهـــا ، وانما وجدت لحما ودما ! ٠٠ اننى أرى بجلاء أن لابد لوجودنا من حـــكمة ، ولكننى

لا أميل الى السعى لتفهمها ، وانما أقصر ايمانى على الحقيقة الواقعة !

وتفرس الطبيب فى وجوههم ، ثم استأنف الحديث :

ـ ماذا أرى حولى ؟٠٠ صراعا من أجل الوجود ٠٠ فلماذا نحاول أن نبحث وراء نطاقه ؟ ٠٠ يكفينى أنه قائم ، واننى ادرسه وارقبه ، اذ أنه دائب فى محاولة القضاء على ، ويجب أن ابذل جهدى لأصد ضرباته ٠٠ ولقد اغتصب منى ساقا ، ولكنه لم يحن رأسى ٠٠ فأنا اتناسل وأنجب مزيدا من نوعى ، وافرض نفسى على الكون مااستطعت ٠٠ ان الله عندى فكرة قياسية ، سمها : التدرج ٠٠ السير فى عملية الحياة ! »

فتساءل مستر « هس » : « ولماذا لاتكون التحول ، أو التطور ؟ »

ـ لا ٠٠ ان السير عملية معقدة فيها صعود وهبوط ، وفيها ارادة ٠٠ ان الله ليس الها يرعانا ويقوم بدوره كى يريحنا ويسعدنا كما يذهب سير « اليفاز » ٠٠ ولاهو اله غير مكترث بنا ، كما يرى مستر « هس » ٠٠ وانما هو يستخدمنا : بعضنا مطرقة ، وبعضنا سندان ، وبعضنا شرر نار ، وبعضنا المادة المطروقة التى تبقى ٠٠ وهذا « التدرج » أو السير فى عملية الحياة ، انما هو اله لايستأمننا اسراره ، بل علينا أن نتعلم ماأمكننا ، وأن نفيد من تطبيق ماتعلمنا عمليا ، لأن هذا ماتتطلبه الارادة التى قلت انها موجودة فى السير ٠٠ وهنا موطن الخطأ فيما يذهب اليه مستر « هس » ، فهو لايحمل نفسه على الاعتراف بهذه الحقائق ، وانما يقيم مايدعوه « روح الانسان » أو الاله الذى فى قلب الانسان ، ليحكم على هذه الحقائق ٠٠ أنه يريد أن يحكم على الكون بمقاييس الذكاء البشرى ودرجة تقدمه الراهنة ٠ وهذا خطأ ، فليست هناك مقاييس ثابتة ٠٠ ذلك لأن الذكاء البشرى من نتاج التطور ، ولسوف يتغير بالتطور ٠٠ ولقد ذكر أن بعض الأشياء ليست جميلة ، وهذا خطأ آخر ، فلا شىء يتغير قدر الشعور بالجمال وادراكه ٠٠ وكذلك الأمر بالنسبة للرحمة ، والشفقة ، وكل شىء ٠٠ فلكل مخلوق معدلاته الخاصة فى القياس والتقدير ٠٠ ولقد يأتى بعدنا انسان آخر يرى الرحمة حماقة ، ويبتهج بما تألم منه ارواحنا الرقيقة ٠٠ ومن ثم فعلينا أن نرضخ للتطور فى مكاننا وزماننا ٠٠ وهذه هى حقيقة الكون عارية ، كما أراها ٠٠ »

★ ★ ★

◆ وارتد الحديث الى موضوعه الأصلى ٠٠ الى الموضوع الذى جاء من أجله الزائرون الثلاثة : التعليم ٠٠ فتكلم الدكتور « باراك » مدليا بدلوه : « ما التعليم ؟ ٠٠ تلقين الصغار كيف يتكلمون ويقرأون ويكتبون ويحسبون ، ليتسنى انباؤهم بموقفهم فى الدنيا ، وبما نرى اننا ـ والدنيا ـ مسوقون اليه ٠٠ أى بالدور الذى يلعبونه فى اللعبة ٠٠ ولكن ، ما هى هذه اللعبة أولا ؟ ٠٠ هذا ماينبغى كل ناشىء أن يعرفه ٠٠ والتعليم هو الذى يجيبه اليه ٠٠ فاما أن ننبئه صراحة بما نعتقده عن اللعبة ، والا كنا مجرد متظاهرين بالتعليم ٠٠ ونتيجة ذلك أن ينشأ الأغبياء مسوقين بآراء قديمة ، فى حين

ينشأ الأذكياء مؤمنين بأن هذه الحياة خدعة جوفاء .. فهم يهيمون ويحومون دون أن يلتقوا بحقيقة .. بل هم يروغون من الحقيقة اذا صادفوها ، وهذا ماألمسه فى مرضاى ، اذ يفضون الى بأكاذيب ! .. ومن ثم فقد جعلت عقيدتى : « واجه الحقائق .. خذ الدنيا على علاتها ، وخذ نفسك على ماهى عليه » .. والحقيقــة الرئيسية الاولى ، هى أن التدرج ، أو سير عملية الحياة ، لايحفل برغباتنـا ، ولا بمخاوفنا ، ولا بآرائنا الخلقية وما الى ذلك .. انه يضعنا أمامه ويجربنا ، فاذا لم نصمد للتجارب ، قضى علينا ونفض يديه منا . فما الذى ينبغى أن يكون عليه التعليم الصحيح اذن ؟ .. علموا الصغار ماهى الدنيــا .. لقنوهم كل قاعدة وخدعة تعلمها الجنس البشرى فى لعبته ..قولوا لهم : «كونوا كما أنتم.. كونوا أنفسكم » ، اذ لاوراثة هناك للخواص المكتسبة .. فليضع كل انسان كل نفسه فى سير عملية الحياة ، فاذا كانت تتطلبه فانها تتقبله ، والا فانهـا تتخلص منه .. ولا حيلة له فى الامر ! »

★ ★ ★

• وساد الجميع صمت رهيب .. وكان مستر «هس» مستغرقا فى التفكير، ثم بدا كأن الصمت ايقظه ، فأجفل ، وقال : « أنكم لم تختلفوا كثيرا فيما بينكم كما تخالون .. انكم تنتهون الى أن الانسان يعيش حياة موزعة ، فيها خضوع وانصياع .. فسير « اليفاز » يرى أن الكون فى رعاية اله حكيم ، ودود ، يقود العالم الى نهايات لانفقهها ، وان الحياة والكون ليساسوى نقطة بداية لسلسلة من تطورات النفوس الخالدة التى لاتموت .. فدور الانســان اذن أن يركن الى السلطة العليا ، ولايضايقها أو يغضبها .. أما نظريتك يادكتور « باراك » فهى أكثر خطورة : فأنت تقول ان الهك ـ سير عملية الحياة ـ فوق كل معرفة وتحكم ، فلا نستطيع ان نعدله أو أن نحبذه .. وهكذا حال « القدر » .. ومن ثم فليس علينا سوى أن نتبع الاضواء التى تلقيها معرفتنا وغرائزنا .. وهنـا تلتقى بسير «اليفاز» ، فانكما تنحنيان للشىء الكائن : هو ينحنى فى رضىوثقة، وأنت تنحنى فى اكتئاب ، وفق الطريقة الحديثة !.. أما أنا ، فلا أنصاع ! اننى اتمرد متذرعا بقوة روح الاله التى فى نفسى .. اننى اتمرد ، لالمجرد أن أبدى تحديا واهنا ضد الفوضى السوداء والقسوة المترتبتين عن الفضاء والزمن ، وانما اتمرد من أجل الســيادة .. اننى ممتلىء النفس زهوا بالاله الذى فى قلبى .. اله جسور يركب الاخطار ، وقد يعيد النظام الى هذه الفوضى التى تتقاذفنا كما تلعب الريح بأوراق الشجر ! .. اله قد يسيطر على هذه الفوضى فى النهاية ويصوغها وفقا لارادته .. هذه هى روح حيــاتى وتعاليمى ، رغم ما انتابهما من أخطاء وفشل .. انها كفاح ضد كائن معتم يخيم على الكون ويسعى لكى يسحقنا جميعا .. كفاح ضد الفوضى ، وضد الخنوع »

وكان يفكر جاهدا ، محاولا أن يشق طريقه وسط الظلمات التى تـكتنف فكره ، ليصل الى الحقيقة .. ورطب شفتيه بلسانه وقال : « ان غاية ومادة كل تربية حقيقيـة هى أن نعرف النــاس بمعركة الاله .. أن نعلمهم كيف بدأت

الحياة على هذا الكوكب المنعزل ، وكيف سارت ، وكيف نهض الانسان عبر العصور ، وخلال الوحوش .. نعلمهم طبيعة الصراع الذى يذكيه الاله عن طريق الانسان ، ثم ننتزع الناس جميعا من أنفسهم لتتألف منهم حياة مشتركة واحدة ، وجهدا واحدا مع الله .. ان موضوع خلافنا هو ماهية كفاح الاله .. انه كفاح يخالجه الأمل فى الفوز ، ولكن دون ما ضمان لهذا الفوز .. انك يادكتور « باراك » تقول : « كونوا أنفسكم » .. اما أنا فأقول : « يجب أن تتخلصوا من أنفسكم .. يجب أن تفقدوها فى شىء أعظم .. فى الله ! » .. لقد قلت يادكتور « باراك » ان فى سير عملية الحياة ارادة .. ولكنى لأرى ارادة الا فى أنفسنا وخلال أنفسنا . ان فى أن « نكون أنفسنا » تناقضا ، لأننا لانملك أن نكون أنفسنا .. لقد حدثتكم عما فى الطبيعة من فوضى وشر ، فتعالوا أحدثكم عن التعاسات التى لاحد لها ، والتى تترتب على فوضى الانسان ، وتستمر جيلا بعد جيل حتى يتحد الناس فى الروح والحق ، أو يفنوا بسبب تفرقهم وعدم اتحادهم .. ولقد كنت فى بعض الأوقات واثقا من أن الله سينتصر لنا وينقذنا .. ولكن الظلال تكتنف الآن روحى .. »

★ ★ ★

◆ **ومضى** يضرب الأمثال على ما ترتب على هذه الأسباب من اقتصار الناس على أن يأخذوا دنياهم وأنفسهم على علاتها ، دون أن يعبأوا بالتاريخ .. بين كيف أن الحرب العالمية الأولى - التى كانت مستعرة الأوار - قضت على الملايين ، وصبت النكبات على الجنس البشرى ، وقطعت أواصر العلاقات الانسانية .. واستطرد قائلا : « **ستقولون أن الدنيا ستتلقى من هذا الدمار درسا ، وأننا سننشىء عصبة الأمم (١) ونضع للحروب نهاية .. ولكن ، على أى أساس ستقوم عصبة الأمم هذه ؟.. أى أسس أقمتم خلال السنوات الأربع الأخيرة سوى الدمار والأطلال ؟.. هل هناك رأى مشترك أو تفاهم مشترك فى عقول البشر ؟..**

---

(١) كتب « ويلز » هذه القصة فى أواخر الحرب العالمية الأولى .. وقد أثبتت الأيام بعد نظره ، ففشلت عصبة الأمم .. وها هى الأمم المتحدة توشك أن تلحق بها !

لا ٠٠ فكيف يتحد البشر اذن دون ما آراء مشتركة ؟ ٠٠ لقد أخفقت المدارس فى انقاذ العـالم ! » ٠٠ وعقب ذاكـرا أن الفريق الذى سيقدر له النصر فى الحرب ، سيخرج منهوك القوى ، والذهن ، والموارد ٠٠ ثم اســتطرد : « لست أشيع القنوط ، ولكن أى خير فى أن نزعم الأمل والنجــاح وسط الفشل والنـكبات المدلهمة ؟٠٠ ما جـــدوى أن نقول ان الجنس البشرى سينتصر « بطريقة آليـة » على روح الشر ، فى حين أننا نراه يفقد نقطة اثر نقطة ، بل يفقد فؤاده ؟ »

٠٠ وعاد يردد نظريته عن « روح الله فى قلوب البشر » ، فصاح الدكتور « باراك » بأنه لا يرى فى هذه العبارة سوى كلمات منمقة ، وقال : « اننى أنشد أشياء أحســها وألمسها ٠٠ أريد دليلا عمليا على هذه النار التى لاتخمد ٠٠ مامعناها فى الأمور الواقعية التى تتألف منها حياتنا اليومية ؟ ٠٠ اذا كانت هذه النار لا تتقد فى قلب مستر « هس » وحده ـ كما يقول ـ وانما فى قلب كل منا أيضا ، فلابد أن تكون شيئا ينســينا خلافاتنا ، وينســينا أنفســـــنا ، ويجمعنا فى صف واحـــد ٠٠ ولـكن ، ضد من ، أو ضـــد ماذا ؟ لست أرى لهذا الاتحاد قوة ولا قيمة ٠٠ انما أعتقد أننـــا يصارع بعضنا بعضا بالفطرة وبحكم الضرورة ، واننـــا فى هذا الصراع يصقل بعضنا مواهب بعض ٠٠ **فالصراع مـن أجل البقاء يسفر عن خير للجنس البشرى !٠٠ ولكن مستر « هس » لا يؤمن بالصراع ، وانما يريد بدلا منـه أن نعيش معا ونعمل معا ٠٠ فلماذا ؟٠٠ لأى غرض ؟٠٠ اذا ساد السلام والوئام كل المخلوقات فلسوف يقف الانسان عن الحـــــركة والسير ، بينما يتابع الزمن مضيه ٠٠ ان توقف البشر عن التنافس معناه التوقف عن الســـير !٠٠ ففى سبيل أى هدف اذن سنعيش حياتنا ؟** »

وأطرق مستر « هس » مفكرا ، ثم قال : « لنر أولا ضـــد

ماذا تكافح روح الاله ! ٠٠ لنسلم بأن « سير عملية الحياة » قد صنع كل ما فى الانسان من خير وشر ٠٠ وان روح الاله تنبعث من هذا السير كأنها جزء من عملية الحياة ٠٠ وهذا السير ـ الذى هو الهك ـ وحده يستطيع أن يميز بين الخير والشر ، أما بالنسبة لمن عداه فالخير يمتزج بالشر ، ومن الشر ما يثمر أمورا طيبة ، ومن الأمور الطيبة ما ينتج شرا ٠٠ فالخير والشر مجرد معان لنا وحدنا ، أما الهك ـ « السير » ـ فهو لا يعبأ ٠ انه يخلق ، ويدمر ، ويحابى ، ويعذب ٠٠ لكنه رغم اهماله هذا أتاح لنا فرصة ٠٠ فالحياة فرصة ، وما لم نشد قبضتنا على الحياة وعلى سير عملية الحياة ونحن فيها ، فان هذا السير يخرج عن متناول سيطرتنا ، ولا يلبث أن يمحونا جميعا ٠٠ اننى أقدر منكم على أن أتعمق فى تأملى ، لأن الصحة لا تحجب بصرى ٠٠ لن يأتى بعد الانسان انسان اسمى ، ما لم يرد الناس أنفسهم أن يخلفهم شىء ٠٠ لسوف يمحونا سير عملية الحياة بنفس عدم الاكتراث الذى صنعنا به ، ما لم تبعثنا روح الاله التى تسرى فينا على أن نسيطر على هذا الكون من أجله ومن أجل أنفسنا ٠٠ فطبيعة سير عملية الحياة ـ الذى تتخذه الها ـ هى الفوضى ٠٠ والانسان هو الفرصة للخلاص من هذه الفوضى ٠٠ »

★ ★ ★

◆ **وانتقل** الى الحرب فقال ان الدرس الوحيد والتحسن الوحيد المترتبين عنها ، لن ينجما الا اذا واتى الناس الهام قدسى ليقولوا : « كل هذا وما اليه يجب أن ينتهى » ٠٠ ولكنهم لا يقولون هذا ، بل يكرسون قدرا كبيرا من الطاقة والمقدرة الآدميتين ، للفناء والعدم ! وانهم ليفتنون فى ابتداع أساليب وأدوات القضاء على بعضهم بعضا ، لا عن

باعث من الشر ، وانما لأن كل مخترع ـ مهما تكن طيبته واستقامته ـ يؤدى دوره ٠٠ انه يأخذ نفسه على علاتها ، ويأخذ دنياه على ما هى عليه ٠٠ واستطرد قائلا : « انهم يعيشون فى عالم غير منسجم ولا متناسق ، بدون تفاهم مشترك ، ولا خطة جماعية ٠٠ يعيشون فى دنيا جاهلة بتاريخها الحقيقى ، غير مدركة لمستقبلها ٠٠ انهم انساقوا الى هذه الفظائع لأنهم تنقصهم التربية والتعليم العالميان ! »

ومضى يضرب مثلا بالالمان : كيف أن الطفل يكون كصفحة الورق البيضاء ، أو كالعجينة القابلة للتشكيل ، فيعلمونه الأنانية ، والجشع ، والارتياب ٠٠ ويلقنونه انه ينتمى الى جنس أسمى من أى جنس آخر ٠٠ **وهكذا يعلمه مدرسوه التعصب ، والشك ، والكراهية ، والازدراء لجميع العناصر الأخرى ٠٠ ومن ثم يرى فى قتاله ضد تلك العناصر «بطولة» !٠٠ ويجد تحت يديه آلات بديعة الشكل ، مصقولة ـ كالغواصة ـ ليفتك بها بأخوته من البشر ٠٠ لماذا ؟٠٠ «لأن التعليم الهندسى الفنى للناس ، كان أفضل من تعليمهم التاريخى والاجتماعى » ٠٠ ومن ثم لم يلموا بفكرة « الجماعة الانسانية الموحدة » ٠٠ الفكرة التى هى لب التاريخ الحقيقى والتعاليم الأصلية للاله !**

ويسهب مستر « هس » فى وصف فظائع الحرب : الوحشية التى تثيرها فى نفس المهاجم ، والشك والتوجس اللذين يفريان أعصاب المتربص المنتظر ٠٠ ثم ينتهى المحارب الى أن يسائل نفسه اذا حانت له فرصة التفكير بعد أن يصاب وينقل الى المستشفى : « ماذا كنت أفعل ؟٠٠ وماذا فعلت ؟٠٠ وماذا فعلت بى هذه الدنيا ؟٠٠ لقد جعلت منى قاتلا ٠٠ ثم عذبتنى وضيعتنى ٠٠ على حين أنى كنت أضمر لها الخير ! »

ويعقب « هس » قائلا : « أو ليس كل منا على هذه الشاكلة ؟ ·· أليست هذه قصة الشباب والأمل ، يسيران خطوة فخطوة فى دنيا أسىء فهمها ، ويساقان الى الشر ، والى القبح ، والى الموت ؟ ·· اننى أفتح عينى كل صباح على دنيا مغرقة فى الفقر والجهل ·· دنيا تغمرها بحار الجوع ، والمرض ، والتعاسة ·· لقد منحنا الفراغ ، والحرية ، والذكاء ، فما الذى فعلناه لنمنع تلك الكوارث ؟ ·· ان الدنيا كالغواصة ، وكل منا يشبه الجندى العامل فى الغواصة ·· وبدلا من أن نعيش فى اشراق الشمس ونعيم الحرية والامان ، نعيش متقلصى الاعصاب ، مقرورين ، فى خطر مرير ، لأننا فى حرب مع اخوتنا البشر ··

« هذا جوابى عن الشطر الأول من سؤآلك يا دكتور ·· لقد ساءلتنى : ضد ماذا تكافح روح الاله التى تعمر نفس الانسان ؟ ·· وجوابى أنها تكافح ضد هذه الاضطرابات العقلية ·· ضد هذه الجهالات ، التى تدفع الحياة فى طريق مسدودة غير ممهدة ! ·· ان الله الذى فى أفئدتنا يصيح بنا لينقذنا من هذه الدروب المسدودة بالأنانية ، والظلام ، والقسوة ، والالم ، التى لا بد لجنسنا أن يموت فيها ·· انه يصيح يدعونا الى الطريق الواسعة ، الممهدة ، السهلة ·· طريق الخلاص ·· انه يدعو الى وحدة منظمة للجنس البشرى »

* * *

◆ **وكانت** الحيرة قد زايلت مستر « هس » وأخذ يتكلم فى حماس ، وعيناه تومضان ، وقد تضرجت وجنتاه ، ولم تعد نوبات الألم تقطع عليه استرساله ·· ومضى يقول : « الشطر الثانى من سؤالك يا دكتور ، هو : ما الذى تكافح من أجله روح الاله ؟ ·· الى أين تفضى بنا الطريق

الواسعة ؟٠٠ لنفرض أن البشر كانوا قد تلقوا تعليما أفضل ٠ سأفترض أن كل امرىء صار متعلما ، أى على معرفة ودراية بالتاريخ ٠٠ أجل يا مستر « فار » التاريخ الحقيقي للجنس البشرى ٠ **لن أفترض أن البشر بلغوا من المعرفة فوق ما لديهم اليوم ، ولكنى سأفترض ان هذه المعرفة بدلا من اختزانها على غير نظام فى كثير من العقول ، وكثير من الكتب ، وكثير من اللغات ، نسقت ووضعت فى مكان يسهل الوصول اليها فيه للافادة منها واستخدامها ٠٠ بحيث لم تعد مستورة ولا محجوبة عن أحد !٠٠ وسأفترض ، فوق هذا ، ان كل البشر يقرأون ويتحدثون بلسان واحد !**

« ستقولون أن هذه افتراضات متعذرة ، ولكنها ليست مستحيلة ٠ ان بضعة من الرجال ثابتى العزم ، يستطيعون أن يدفعوا الجنس البشرى نحو هذه الحال ، حتى يبلغها بعد عدد من الأجيال ٠٠ واذ ذاك ، تصبح الخلافات والفرقة العنيفة التى تضنى الجنس البشرى مستحيلة ، ويعيش الناس متيقظين الى الحقائق المتعلقة بأصلهم المشترك ، ومنبتهم المشترك ، ومصيرهم المشترك ٠ وفى هذا الجو الطلق ، النقى ، تزداد النار – التى هى الاله – توقدا ، لأن معظم الذين يخفقون فى معرفة الله ، انما يخفقون لأن المعرفة تعوزهم ٠٠ **ان دنيانا اليوم ، دنيا طيش وكراهية وجنون ، ولا أمل فى تغييرها الا بعزيمة نظار المدارس والمدرسين ٠٠ كيف تأملون فى تغييرها بغير التعليم ؟٠٠ اننى حين سألتكم أن تتصوروا دنيا متعلمة ، لم أسألكم أن تتصوروا معجزة تحدث « انقلابا » فى الفطرة البشرية ٠٠ فهذه الدنيا لن تجرد الناس من الطمع ، والطيش ، والنزوات ، وانما ستجردهم من الأعذار والمواراة ٠٠ ستحول الشر فى نفوسهم الى ما يشبه المرض الذى يتأهبون**

فى لحظات صفاء عقولهم لأن يعالجوه ويبرأوا منه دون ما تردد ٠٠ هذه هى الدنيا التى يعمل نظار المدارس والمدرسون منا الذين أوتوا نار الله الخالدة المضيئة فى قلوبهم ، على تحقيقها ، جيلا بعد جيل ٠٠

« ان الناس فى الدنيا الراهنة يعيشون لأنفسهم ، ويضيعونها فى الحياة التى ينهجونها ٠٠ أما فى الدنيا التى نسعى اليها ، فسوف يهبون أنفسهم لاله البشر ، فيضمنون الحياة ٠٠ سيغيرون من نظمهم ، وعاداتهم ، وأساليبهم ، بحيث يستخدم كل البشر ، على أكمل وجه ، فى العمل المشترك للجنس البشرى ٠٠ فى تحويل العالم الممزق الى جنة واحدة للجميع ٠٠ انهم لن يحلوا معميات العلم المادى الا اذا حلوا أولا مشكلاتهم الاجتماعية والسياسية ٠٠ ان من الواضح اليوم أن الدنيا تستطيع أن تنتج الكفاية من الغذاء والرفاهية لكل انسان ، اذا أمكن ـ بتعليم عالمى شامل ـ تمكين روح الوحدة من التغلب على الميل الى الخلاف والفرقة ٠٠

« لست أعتقد أن فى وسع أحد منا أن يتبين ما يمكن أن يؤديه التنظيم المنسق للذكاء البشرى ، من أجل الجنس البشرى ! ان العجائب التى أنتجها البحث العلمى حتى اليوم ستبدو ضئيلة الى جانب مايمكن أن يجديه البحث العلمى اذ ذاك على البشرية ! لسوف تزداد سيطرتنا على المادة ، وعلى الحياة ، وعلى أنفسنا يوما بعد يوم ٠٠ بل ان كل هذه المعرفة ، وهذه السيطرة ، وهذا الجمال ، التى نتصورها نحن الذين نرقب فجر هذا التطور ، ليست سوى بداءات لكل ما يمكن أن ينبعث من الظلال والعذاب الذى نعانيه اليوم !

« انك لم تكن تصدر عن تفكير يا دكتور باراك ، حين قلت ان الجنس البشرى سيكف عن الحركة والسير اذا انتهت المنافسات ٠٠ فالواقع انه اذا مانمت ارادة جماعية

موحدة ، فلن يكون ثمة اندفاع اعمى نحـو الحيـاة ، ولا صراع أعمى للابقاء على الحياة ٠٠ بل ان الميزات التى تخدم الغايات الجليلة للجنس البشرى ، ستكون موضـع رعـاية وتنمية ٠٠ أما الذين أوتوا خلالا ومواهب ضـئيلة ، فسوف يرشدون الى حـدود مقدرتـهم ٠٠ ولن يقتصر هذا المستقبل على الجنس البشرى وحـده ٠٠ ستصبح الدنيا كلها انسـانا واحدا ، يعكف على صنع جنتهفى الأرض لنفسه ، ولا يسود نوعه فحسب ، وانما يسود كل حيـاة على الأرض ، فيقضى على القســوة ، ويروض الأنواع الاخـرى ويســتألفها ٠٠
سيستل من الذرة طاقتهـا ، ويرفـع عن الفضـاء حجب الأسرار ، وينتقل من كوكب الى كوكب ، كما نخطو الآن من حجر الى حجر ، عبر مجرى مائى ٠٠ حتى يقف فى أنوار الحضرة الالهية ، ويكشف تحت هذه الأنوار غريمه الذى يوسوس له ويسخر منه ٠٠ ليس هـذا حلما ، وانمـا هـو حقيقة ٠٠ فأنا الآن أقف وقد فارقت باحدى قـدمى هـذه الحياة الضيقة التى طالما كنت حبيسا بين حـدودها ٠٠ اننى لأبصر نور الله ، ولكننى فى بعض الاحيان أحس كأن غريما لى يجلس فوق كل دنياى ، يسـخر منى ، ويحجب جـذوة الأمل الضئيلة عن عينى ٠٠ »

★ ★ ★

◆ **وأرسل** « هس » زفرة عميقة ، فسأله الدكتور : « هل الاله الذى تتحدث عنه هو ما يعرفه البشر بالله ؟٠٠ آن عقلى الذى لا يقبل غير الحقائق الواقعة الملموسة ، يجعلنى عند ذكر هذه الكلمة أتذكر الكهنوت ، والتعصب ، والاضطهاد ٠٠ لماذا لا تسمى هذه السلطة العليا : الانسانية ؟ »

ـ لأنها ، كما بينت ، ليسـت روح الانسـان ٠٠ ان الانسانية هى التى صنعت الغازات السامة والغواصة ، لأن

روح الانسان مفعمة بالحسد والغيرة والعدوان والتعصب ٠٠ والخوف ، والكراهية ، والتكتم ، والتآمر ٠٠ أما هذه الروح التى فى أعماقى ، هذه النار التى أسميها الله ، فلست أدرى كيف اتقدت ٠٠ كأنها جاءت من خارج كيانى ٠٠
سأعمد الى الاستعارة والتشبيه كى أشرح لك ، بقدر ما أستطيع : ان هذه الروح أقرب الى أن تكون شخصا منها الى أن تكون شيئا ، ومن ثم اسميها « هو » ٠٠ وليس « هو » شكلا ذا طابع ، وانما هو نخبة ٠٠ يجمع ويجلى ويعزز كل ما هو كريم فى الدوافع الطبيعية التى تحرك العقل !٠٠ « هو » يذم ويحرم القسوة وكل شر ٠ اننى لن أزعم القدرة على شرح ما لست أملك شرحه ٠٠ آن ما أنبئك به الآن هو ما « أحسه » أكثر مما أنا أعتقده ٠٠ اذ يبدو لى أن الرغبة فى الخلق والابتكار التى تستعر بين جوانحى ، شىء يختلف فى طبيعته عن عملية تطور المادة التى تسير عمياء ٠٠ انها قوة تجرى على عكس قوة الفوضى والحيرة والخلل ٠٠ على أن الذى أطمئن الى أننى أعرفه ، هو أنها اذا ما اشتعلت فى نفس انسان ، فانها تضىء عقله ، وتسيطر على ضميره وتسيره ٠٠ انها تدعوه الى أن يعيش عمره عاملا مكافحا فى سبيل وحدة الجنس البشرى ، وتحريره ، وفوزه !

وعند هذا الموضع من المناقشة تدخل القدر ، اذ وصل سير « الفيوس » ــ الجراح ــ ولم يكونوا قد فطنوا فى غمرة الجدال الى أنه تأخر طويلا ٠٠

٦ ـ الجراحة

◆ **ما أن استنشق مستر « هس » المخدر ، حتى خيل اليه أنه انتقل الى حال أخرى ٠ لم يبد له أنه فقد الحس ، وانما خيل اليه أن سير « اليفاز » ومستر « داد » ومستر « فار » قد انضموا الى الدكتور « باراك » فاستأنفوا مجلسهم على كثيب من رماد ، تحت سماء تتوهج ضوءا ٠٠ بينما تلاشى سير « الفيوس » والممرضة والغرفة !**

وكأنما كان اجتماع الأولين حلما ، ولكنه كان حقيقة ٠٠ حقيقة لاتبلى ٠٠ تلك الاكوام من الرماد خارج اسوار المدينة ٠٠ أنه مسرح لتجربة لا تنتهى ، وجدال خالد ٠٠ كان «هس» ـ أو « جوب » ـ هو «أيوب» الذى جلس فى هذا المسرح منذ آلاف السنين ٠٠ وسير اليفاز هو « اليفاز التيمانى » ، ومستر « داد » هو « بلدد الشوحى » ، ومستر « فار » هو « صـــوفر النعمانى » ٠٠ اصدقاء أيوب الثلاثة ٠٠ أما الدكتور « اليهو باراك » فكان « اليهو برخئيــل البوزى » ـ من عشيرة رام ـ فى القصة الخالدة ، قصة النبى أيوب !

كان من الغريب أن خطر بالخيال أن هؤلاء الرجال كانوا بين ناظر مدرسة ، وطبيب ، ومدرس ، وصانع أسلحة ٠٠لقد ظلوا عصورا وهم جلوس على الرماد٠٠ وفوقهم السماء الشاسعة مرصعة بالشمس والنجوم ، تفيض بالنور ٠٠ وكان النور قد شع مذ تكلم « اليهو » ٠٠ ليس نورا فحسب ، بل كان هناك أيضا صوت واضح ، جلى ، خشعت له روح « أيوب » وسكنت ٠٠ صوت يقول : «من هذا الذى يظلم مجلس القضاء بكلام بلا معرفة ؟ » ٠٠ وفى جهد رفع « أيوب » بصره ٠٠ وكأنما كان يشرق هناك واحد هو الكل ، شمل القوى والممـالك ٠٠ وكأنما كان على وجهه غشاء أوظل ! كأنما كان ثمة شبح معتم ينحنى على الدنيا بأسرها ، يتأملها فى فضول وشر ٠٠ وكأنما كان هذا الشبح المعتم لايزيد عن حجاب شفاف أمام ضياء دائم لانهاية له ٠٠ ولكن ، أترى هذا الحجاب كان امام الضوء ، أو أنه كامن فى جوفه ينبعث منه فى امتداد وانـــكماش متواليين ٠٠ وكأنما كان الصوت الذى تكلم صوت الله ٠٠ ومع ذلك كان الشك يوحى من وقت لآخر بأن رنة الصوت كانت للشيطان !

واذ تـكلم الله ، انكمشوا جميعا وتضاءلوا كأدق ما يمكن ان يرى بالعين المجردة ٠٠ وصغر المنظر حتى بدا كلعبة صغيرة ٠٠ بدوا كنقط غير حقيقية على صفحة ورقة رفيعة ضئيلة ، فى هيلولة لاغور لها ٠٠ « من هذا الذى يظلـم القضاء بكلام بلا معرفة ؟ » ٠٠ ولكن الله لم يكن يتكلم ـ فى هذا الحلم الذى راود مستر « هس » وهو مخدر الحواس ـ بالصوت ، وانما بالضوء ٠٠ ومضات سريعة من لهب تجمعت خلال مخه المخدر ، ثم بدأت تنبض فى دوائر متسعة ٠٠ سادرة فى الاتساع ٠٠ وخيل اليه أنه ـ على غير ارادة منه ـ أجاب : « اذن ، امنحنى المعرفة »

وكان الرد صوت الشيطان الساخر٠٠ فقد تجلى الشيطان لـ «هس» فى شكل وجه معتم اضناه الزمن ، ولكنه لايزال بادى النشاط ، يرسل دوائر من وهج فى الفضاء ، كما يرسل السابح الأمواج نحو الشاطىء ٠٠ وقال الشـيطان : « وأى وعاء أحضرت لتتلقى فيه المعرفة اذا وهبناك اياها ؟ »

قال « هس » : « باسم الله الذى فى قلبى أطلب المعرفة والقوة »

ـ ومن تكون ؟ ٠٠ معلم احداث كان يلقى دروسا فى التاريخ سيئة الاعداد٠٠ ويحلم بأنه يربى الشبان ليتنقلوا بين النجوم !

ـ بل انا الانسان ٠٠ ان كل انسان تطلع نحو هذا النور الالهى ٠٠ انا كل

انسان فكر أو عمل أو اراد أمرا للجنس البشرى ٠٠ انا كل الرواد والزعماء والمدرسين الذين توالوا على الانسان ٠٠
ـ قد تسبر غور المعرفة ، أو تقيس ابعاد الفضاء ، ولكنك لن تجد لها نهاية !
ـ سأظل أسير واقيس الى الأبد ٠٠ سأهزمك ٠٠
ـ ولكنك لن تقضى على !
ـ سأكافح لأشق طريقى خلالك الى الله ٠٠
ـ ولن تصل اليه ابدا !

★ ★ ★

◆ وبدا كأن صوتا آخريتكلم ٠٠ وانجاب حجاب الشيطان جانبا برهة ، بينما قال الصوت الالهى : « وهكذا تسير الحياة الى الأبد ٠٠ ولا مسير لها الا هكذا٠٠ اذ كيف تصارع اذا كان ثمة يقين من النصر ؟٠٠ لماذا تصارع اذا كانت النهاية مؤكدة ؟ ٠٠ كيف تصعد اذا لم يكن هناك غور تهوى اليه ؟ ٠٠ ليست الظلال السوداء والشرور التى حولك سوى مبررات الحقيقة ٠٠ لقد ظل صوت أيوب يشكو خلال القرون وسيظل يشكو٠٠وخلال القرون تتوهج نار ايمانه ثم ترتعش وتنذر بالانطفاء ٠٠ ولكن ، هل أيوب على حق فى شكاواه ؟ ٠٠ لقد اصطبغ ذهنه بلون الحظ التعس ٠٠ لقد رأى الدنيا بأسرها تعكس عذاب بدنه ٠٠ ولكن هل هناك شر أو قوة أو عذاب فوق طاقة الانسان المحتملة ؟ واذا كانت حياة الوحوش والبشر مظلمة ، لابهاء فيها ، أفليس لهم ـ فى ناحية أخرى ـ تركيب جسمانى بديع لامثيل له ؟ ٠٠ لقد جدفت لأن الخلية البشرية قد يخرج منها انسان معتوه ، فلماذا أيها الانسان يجىء هذا المخلوق معتوها ؟ ٠٠ أليست لك ارادة أو ادراك حتى تتألم من وجود أشياء كهذه ، فتسلط علمك وذكاءك لتجنب هذه النتائج ؟ ٠٠ ليست الظلمات والقبح والشر والقسوة سوى تحد لاستثارة همتك ٠٠ ففيك تكمن القوة التى تستطيع أن تسيطر على كل هذه الأشياء ! »

واخذت العبارة الأخيرة تتردد فى أضواء خلال السحب المخيمة على ذهن « هس » ٠٠ وعاد الصوت يقول : « لقد أكثرت من اللجاج حول الألم ، وما الألم سوى محنة سريعة الزوال ، فلا تلبث أن تنسى اذا ما انتهت ٠ ولولا الذاكرة والخوف ماكان الألم شيئا ٠٠ انه تغيير ، وانذار ٠٠ وكيف كانت تصبح الحياة بلا ألم ؟ ٠٠ ان الألم لايستبد الا بالجبان الضعيف القلب ٠ وفى قدرة الانسان أن يحكم كل الأشياء ! »

★ ★ ★

◆ وأخذ الجدل يزداد سرعة فى ذهنه ، ثم ازداد فجأة اشراقا ، وقد أخذت تتخلله خواطره وهو يفيق تدريجا من تأثير المخدر : « لقد انجابت عن روحى غمامة ٠٠ » ٠٠ « لقد كنت فى غياهب ظلام دامس ٠٠ فى مياه عميقة ! » ٠٠ بينما عاد صوت الله يقول : « ألم تتخلل حياتك ضحكة ؟٠٠ ألم يبعث نسيم

الصباح الغبطة فى كيانك يوما ؟ ٠٠ ألاتعرف شيئا عن عناق الأحباء ولقاء الشفاه ؟ ٠٠ ألم تسبح فى البحر يوما والشمس تلفه بضيائها ، ولا أرسلت صوتك طربا وأنت تتسلق جبلا ؟ ٠٠ لقد مات ابنك ميتة الشرف ، أفليست فى ذلك الشرف فرحة ؟٠٠ لقد كان طاهرا ، مستقيما ، فهلا تجد فى ذلك ما تحمد الله عليه ؟ ٠٠ ألم تستشعر متعة مداعبة الأطفال يوما ؟ ٠٠ ولافرحة الحصول على رد من أحد تلاميذك يفيض عن السؤال الذى وجهته اليه ؟ ٠٠ اتنكر متعة التلذذ بالطعام الشهى والشراب العذب ؟ ٠٠ ألا تعرف شيئا عن العمل الذى يحسن المرء أداءه ، ولا عن النوم اذ يواتى المرء فى أعقاب يوم مضن ؟٠٠ الا مجال للغبطة لدى الفلاح الذى حرث الأرض السمراء ، حين يرى الخضرة تنبت فيها ؟٠٠ وعندما تشق مقدمات السفن الضخمة الماء ، وتحلق الطائرات فى السماء ، أيظل الانسان فى رأيك عاجزا ، مستضعفا ، لاحول له ؟ ٠٠ أن المرض والنحس البسيط حجبا النور عن عينيك »

وأحس « هس » فى منامه كأنه يشق طريقه وسط غابة كثيفة ، ويقترب من الخلاء . وهو يخوض فى شباك وقضبان متشابكة ٠٠ وكلما اقترب من الفضاء أحس بأنه لايزال بعيدا عنه ٠٠ وادرك أنه فى حلم يقترب من نهايته ، فصرخ : « أجبنى يا الهى !٠٠ فلشد ماعبث بى الشيطان ٠٠ اجبنى قبل أن تغيب عن بصرى ثانية ٠٠ أعلى حق أنا فى كفاحى ؟ ٠٠ أمعيب أنا فى أن ارتفع عن أرضى الضئيلة الى هنا ٠٠ فوق النجوم ؟ »

– معيب مادمت تجرؤ ٠٠

– هل أتغلب ، وأسود ؟

– قد تظل الى الأبد تتغلب ، وتجد عوالم جديدة لتغلبها ٠٠

– قد ؟ ٠٠ اننى ابغى وعدا ٠٠ اجبنى !

وفى بطء اشرقت الأفكار فى مخه : « ستظل تغلب طالما بقيت جرأتك وشجاعتك ٠٠ قد يدلهم الظلام ، وقد تكون المعركة الراهنة قاسية ، وحشية ، تنتهى بخاتمة شريرة غريبة ٠٠ ولكن النصر لك فى النهاية ، اذا ظللت شجاعا . كل شىء يتوقف على الشجاعة التى تعمر قلبك ٠٠ والكون كله ، والحياة ، لا تسير الا بالجرأة والشجاعة ٠٠ ولوفترت هذه الشجاعة ، لخبت النار المقدسة ، ولتداعى كل شىء وانمحى ٠٠ ولتبدد الخير والشر ، والفراغ والزمن ٠٠ فلا يبقى شىء ٠٠ لاشىء ! »

وأخذت أصداء « لاشىء » تتردد فى رأسه ٠٠ ورأى الكون يدور فى سرعة مطردة ، لايكاد يلاحقها العقل ، فيرتطم بعضه ببعض ٠٠ وسمع صوته يصرخ فى الخواء : « هل تدوم شجاعتى » ٠٠ ولكن ، ما من جواب ٠٠ ثم بدايسترد حواسه ٠٠ ولاح لبصره المهتز شبح الجراح والطبيب !

٧ ـ الحصاد المبارك !

◆ وانقضت ثلاثة أسابيع ٠٠ لم ير الجراح والطبيب جراحة أفلحت أكثر من هذه التى أجريت لمستر « هس » ٠٠ وظهر ان التـــورم لم يكن خبيثا ، وان الاشتباه فى « السرطان » كان خاطئا ٠٠ وتغيرت الحال الذهنية لمستر « هس » تغيرا عجيبا ٠ لم يعد يحس بتلك القوة المعتمة المتسلطة تخيم على حياته ، وعلى الكون ٠٠ وعاودته شجاعته الطبيعية ! ٠٠ وانـكسرت هجمات الألمان علـى باريس ، وانقلبت عجلة الحرب ضدهم ٠٠ وبدأت فكرة قيام سلام عالمى منظم تسود اذهان الجموع ٠٠

ومات قريب لمستر « هس » عن ثلاثين ألفا من الجنيهات أوصى بنصـفها له وبالنصف الآخر لمدرسة (ولدينجستانتون) ٠٠ ولقى سير « اليفاز » ومستر « داد » معارضة شديدة من بقية أعضاء مجلس ادارة المدرسـة فى مشروعهما لاحلال مستر « فار » محل مستر « هس » ٠٠ وكان بعض تلاميذ هذا الأخير فى انجلترا فى عطلات قصيرة ، فحملوا الأنباء الى زملائهم فى جبهة القتـال ، وسرعان ماكونوا لجنة راحت تبعث بالنشرات والرسائل من الميـدان ، تهيب بمجلس الادارة أن لايحرم مدرستهم من ناظرها ٠٠ وكتب له أحدهم يقـول : « اذا كنت قد فقدت ابنك ياسيدى ، فان بعضا منا هنا يشعرون بأنهم ابنـاء لك ٠٠ اننى اعجز عن وصف مايكنون لك من حب ، فلقد درجوا على أن يروا فيك أبا لهم ٠٠ لاسيما أولئك الذين فقدوا الأب فى الصـغر ٠ قط لم يجد ناظر مدرسة ولا أب بنفسه كما جدت أنت بنفسك ! ٠٠ ان معظم من يخوضون القتال يشعرون بأنهم حيارى مضيعون ، أما نحن أبناء (ولدينجستانتون) فقد أخذنا الحرب كما نأخذ أى عمل يوكل الينا، وعندما يعود السلام ويقوم عالم جديد . سنجد المجال للعمل ٠٠ هذه هى روح (ولدينجستانتون) ٠٠ ان من قابلتهم من ابناء المدارس الأخرى لايكادون يتبينون طريقهم ٠٠ انما يحملهم على القتال حكم العادة والانسياق لتقليد من يحيطون بهم ٠٠ فاذا حدثتهم عما وراء الحرب ، لم تقو مداركهم على فهمك ، لأن مدرسيهم دفعوا بهـم فى دروب ضيقة مسدودة ٠٠ انهم يأخذون الحرب على انها قتال ضد أشياء ، لا من أجل غايات ٠٠ ان قيمة تعاليم (ولدينجستانتون) هى انها تبين لنا الطريق الذى علينا ان نسلكه فى أيامنا القادمة ٠٠ انها تجعل من كل منا لاعبا فى فريق واحد يرشده الخالق ! »

وعجب مستر « هس » وهو نائم فى فراشه ٠٠ « الدروب المسدودة » ٠٠ لقد تحدث عنها فى هذيانه ٠٠ وأخذ يقول لنفسه : « أعتقد أن من الممكن تعريف التربية والتعليم بأنهما انتشال العقول من الدروب المسدودة ٠٠ ان كلا منا سيظل هائما فى درب مسدود ، مالم نشق طريقا نلتقى فيها لنسير معا ٠٠ »

وبهذا الأمل شرع يفكر فى الخطط الجديدة لمدرسة (ولدينجستانتون) ٠٠ وفيما هو كذلك ، أقبلت مسز « هس » وفى يدها وريقة ٠٠ وهتفت فى صوت كأنه الهمس : « هس ٠٠ انه منه ٠٠ من ابننا ! »

ونسى الضمادات ، وهم بالجلوس فى فراشه صـــائحا : « اهو حى ؟ ٠٠ أسير ؟ » ٠٠ فهزت رأسها ، وبكت ٠٠

وهتف وهو يتخلل بأصـــابعه شعرها فى حنـــان : « كم كنت شريرا ٠٠ شقيا ! »

من رسائل النساء

أقصر طريق.. الى الطلاق!



قصة ساخرة للكاتب الفرنسي "مارسيل بريفو"



تلخيص : فرج جبران

قصة ٠٠ لها أكثر من مغزى !

◆ «الدراسة» التى أقدمها لك فيما يلى ، قد تبدو فى الظاهر - لأول وهلة - قصة عادية « تافهة » ، مثل عشرات القصص الفرنسية «الخفيفة» !٠٠ لكنك لو أمعنت التأمل فى مغزى كل ناحية من نواحيها، لوجدت فيها درسا جديا عميقا يعالج موضوعا من أخطر الموضوعات التى تعرض للنساء فى حياتهن اليومية ، وان آثر مؤلفها - الكاتب الكبير « مارسيل بريفو » - أن يضعها فى هذا القالب المستساغ الذى يسهل فهمه وهضمه ، ويكتبها بهذا الأسلوب الساخر الذى انفرد واشتهر به ٠٠ فأنت تصادف كلما تقدمت فى قراءة القصة ، مبضعا حادا يخز الناس والمجتمع وخزات قصيرة سريعة تكشف الداء وتشير الى الدواء، تاركة لضمير كل مريض بذلك الداء أن يستيقظ ، ويتنبه الى عواقب أفعاله الوخيمة ٠٠ ريثما ينتقل المبضع الحاد فى يد المؤلف ليكشف داءا آخر ويجد له الدواء !٠٠ وما الدواء أو العلاج الحقيقى لجميع هذه الأمراض الخلقية والنفسية سوى شىء واحد ، فى متناول كل «مريض» ٠٠ شىء واحد ، وان كانت له أسماء متعددة ، فقد تسميه : الضمير٠٠ أو الوعى الخلقى ٠٠ أو ادراك العواقب ٠٠ أو الخوف من العقاب ٠٠ أو مائة اسم واسم أخرى !

من مدام « اردفيل » ٠٠ الى صديقتها مدام « ديموستييه »

- ١ -

◆ **أنت** تعرفين ، ياعزيزتى أليس ، اننى زوجة مخلصة أمينة لزوجها ، لم تحاول فى يوم من الايام أن تخون زوجها ٠٠ حتى مع أحد أولئك الذين كنت اذا رأيت الواحد منهم أقول لنفسى : « قد يكون من بواعث السرور أن أعبث مع هذا الرجل ، ولو الى حد الغزل ٠٠ ولكن ، لا ! اننى لن أخون زوجى ! » ٠٠ رغم أنى كنت أحس أحيانا أن من السخف أن أظل زوجة وفية الى هذا الحد ، فى الوقت الذى كنت أصادف فيه كثيرات من السيدات المتزوجات ممن لهن مغامرات كثيرة مع الرجال !

وهكذا بقيت زوجة مخلصة ٠٠ ولم يكن هناك شىء يمكن أن يجعلنى أحيد عن طريقى ، كما أن زوجى كان يروق فى نظرى ويحبنى كثيرا ويبرهن لى على حبه بشتى الطرق !



وكنا نكون أسرة سعيدة !

الا أن النكبة حلت بسبب شقيقتى ! شقيقتى التى تكبرنى بمقدار ١٥ عاما ٠٠ وكانت تعيش معنا فى المنزل ، فكانت لى بمثابة « حماتين » لا « حماة » واحدة !

مسكينة شقيقتى « أنيتا » ! انها طيبة القلب على كل حال ، ولكن كيف كان يمكن أن تحتمل رؤيتى أنا وزوجى ونحن نتبادل القبلات طول النهار ، فى حين انه لم يكن لديها ماتقبله الا الصور المقدسة ! ٠٠ وكانت تعود الى فراشها فى ليالى الشتاء الباردة فتجد نفسها وحيدة فريدة ، فى الوقت الذى تعرف أن شقيقتها الصغرى تنعم فيه بالدفء الى جانب زوجها !

مسكينة شقيقتى أنيتا !

لقد أثر كل ذلك فى نفسها ، وكان طبيعيا أن يؤثر ! ولذلك فقد بدا عليها من الهرم بعد انقضاء عام زواجنا الأول مايوازى فى حقيقته هرم خمسة أعوام !٠٠ وفى العام الثانى لزواجنا قال لى زوجى مرة وهو يحدثنى : «ان شقيقتك أصبحت لا تحتمل فيجب أن نزوجها ! »

وبدت لى فكرة زواج « أنيتا » مضحكة فى بادىء الامر ٠٠٠ فان بعض المخلوقات الانسانية تبدو وكأنها من جنس يختلف عن الجنسين المعروفين : اللطيف والخشن ! وكأنها من جنس لايصلح للمعاشرة ٠٠ الا اننى بعد امعان التفكير فى الامراقتنعت بأن ليست هناك وسيلة للتخلص منها غير هذه الوسيلة !

وقال زوجى : « من الممكن أن تتزوج ، فانها تملك مبلغا من

المال لايستهان به ، دعيني أسعى لزواجها ٠٠ »

وصارح شقيقتي بما ينوى ، فظننته يمزح فى بادىء الأمر ٠٠ الا انها مالبثت أن أدركت أنه جاد فيما يقول ، فبدا التأثر على وجهها ـ وكان تأثرا ممزوجا بالفرح الحقيقى !

وفى اليوم التالى اصطحب زوجى معه الى المنزل رجلا قال انه يريد الزواج من شقيقتى ، وكنت أتوقع أن أرى فلاحا مضحك الشكل ، ولكن كم اشتدت دهشتى عندما رأيت رجلا فى الثلاثين من عمره ، « مقبول » الشكل ، منظم الملبس ، وكان من زملاء زوجى فى المصرف الذى يشتغل فيه ٠

وقال لى زوجى : « انه رجل حريص نبيه ، ولكنه يشكو من ضائقة مالية ، ولاشك أنه سيتزوج منها ، وبهذا يتحقق أملنا ! »

وسار كل شىء طبقا للخطة المرسومة ٠

- ٢ -

◆ **وانقضى** أسبوعان ٠٠ وكان الرجل يزور شقيقتى كل يوم وفى أى وقت يشاء ، حتى أخذنا نستعد لاعلان الخطبة الرسمية ٠٠ غير أننا فوجئنا فى صباح أحد الأيام بخطاب منه يعلن فيه أن كل شىء بينه وبين شقيقتى قد انتهى « بسبب اختلاف الثروة ، والفرق بين سنه وسنها ، الامر الذى يدعو الى الشك فى حقيقة نواياه لو تم هذا الزواج ! » ٠٠ ثم ختم خطابه بالقول انه يحفظ لها فى نفسه تذكارا جميلا !

وهكذا انتهى كل شىء ! وقال زوجى بعد أن قرأ الخطاب : « انه رجل غبى ، ولن يدخل البيت بعد اليوم ! » ٠٠ وفعلا طلب اليه عدم التردد على المنزل ، فما كان من شقيقتى « انيتا » الا ان اتهمت زوجى بأنه المسئول عن كل ما وقع من خلاف ، وانه قد طرده من المنزل انتقاما منها هى ! ٠٠ ولما كانت لاتحبه أصلا فقد تضاعف بغضها له ، وعلى اثر ذلك أخذت تحرضنى على الثورة ضده ، وعدم الاهتمام به ، وتشجعنى على العبث والغزل

مع غيره من الرجال ! ومالبثت أن اتهمته بأنه يتردد على منازل ممثلات خليعات بدعوى انه يؤدى واجبات وظيفته !

وكنت أهز رأسى وأضحك وأنا استمع لحديثها ، فلقد كنت كبيرة الثقة بزوجى ..

هل تعرفين ماذا فعلت بعد ذلك ؟

لقد توجهت الى أحد مكاتب الاستعلامات السرية وطلبت منه أن يراقب زوجى بول !.. وجاء التقرير من المكتب بأن زوجى يتردد فى ساعة معينة من كل مساء على « شقة » تقع بالطابق الأرضى فى أحد منازل شارع (باسانو) . وتمادت « انيتا » فى تحريضى ضد زوجى حتى قبلت الاشتراك معها فى مؤامرة صغيرة كان من نتيجتها أن وصل الى يدى خطابان ثبت لى بعد الاطلاع عليهما أن زوجى على علاقة بامرأة أخرى !

ومع ذلك فقد كنت ، أنا الحمقاء ، على استعداد تام للصفح عنه !.. غير أن شقيقتى لم تسمح لى بذلك بل حالت بينى وبينه نهائيا ، وشجعتنى على طلب الطلاق !

- ٣ -

◆ الطـــلاق !!

لقد كنت أعتقد أن طلب الطلاق ليس أصعب منالا من حجز مكان فى دار الأوبرا !

أوه ياصديقتى ! اياك أن تطلبى الطلاق ، فانه لا يمـــكن أن يخطر ببالك كل مااخترعه القوم من عقبات توضع فى طريق كل من تطلب الطـــلاق من زوجهـــا ، حتى تسأم وينتهى الأمر بعدولها عن طلبها !

فلكى تطلب امرأة الطلاق يجب الالتجـــــاء أولا الى محرر الدعاوى ، ليقوم بكتابة العريضة .. ثم ينبغى البحث بعد ذلك عن محام لكى يترافع فى الدعوى .. وأخيرا يجىء دور القضاة ، ورئيسهم !

هذا الى جانب عدد لايحصى من المراسلات و « المشاوير » !

ومما زاد القضية تعقيدا أن زوجى الخبيث طلب هو الآخر الطلاق ٠٠ وأخذت شقيقتى انيتا تلح على حتى جعلتنى أهجر منزل زوجى !

وذهبنا ، أنا وهى ، الى مسكن تديره بعض الراهبات بشارع (فارين) ، وكان مخصصا للنساء فقط ٠ ولم نشعر بسأم فى ذلك المنزل اذ كان يمكن لأى امرأة فيه أن تعرف بسهولة جميع الطرق التى يمكن بها أن تطلق من زوجها !٠٠ ووجدت بذلك المنزل ست نساء ، كل منهن تبغى الطلاق ، وكان من بينهن أربع نساء صغيرات السن واثنتان مسنتان ٠ وكم كان يسرك لو سمعت أحاديثنا عن الرجال وحملتنا عليهم ،وخاصة عندما كانت تشترك معنا فى الحديث شقيقتى « أنيتا » وهى التى لم تجرب الزواج بعد !

انك ، ياعزيزتى ، لو تركت فتاة فى ذلك المنزل لمدة ثمانية أيام فقط لما أمكن أن تخرج منه الا وقد عاهدت نفسها على أن تظل طول حياتها دون زواج !٠٠ ومع ذلك فقد كانت السيدتان المسنتان تبديان أحيانا رغبة فى زواج جديد ، اذ كانت لهما بعض آمال فى المستقبل !

وقد عينت لنا رئيسة الراهبات محرر الدعاوى الذى ينبغى أن نذهب اليه ، وكذلك المحامى ـ ويبدو أن الاثنين كانت لهما صلة وثيقة بهذا المنزل ـ وأؤكد لك أن المسئولين عن ادارة المنزل قد أحسنوا الاختيار ، فقد كان كل من محرر الدعوى والمحامى من النوابغ حقا !

كان الاول ـ محرر الدعوى ـ يدعى « كارتلين » ، وكان رجلا كبير الجسم طويل الشاربين ـ وأنت تعرفين كم أعجب بأصحاب هذا الشكل (أو تذكرين شقيق زميلتنا اوجينى الذى أغرمت به مدة دراستى فى مدرسة الدير ؟) ـ أما المحامى ، فاحدسى :

من هو ؟.. لقد كان « دارتناى » .. صديقى دارتنــاى ، بل « صديقنا » دارتناى اذا شئت ، فقد كان يسـعى الى مغازلتك أنت أيضا !

وقد بدا عليه الاضطراب الشديد حين دخلت مكتبه ، وقال : « كيف ؟ أنت ! انت .. بلانش ! » – (فلقد كان دائما ينسى اسمى الحقيقى ويدعونى « بلانش » !.. ولعل هذه احـدى سيئاته !) – وأمسك بيدى ثم قبلها ، فأحسست باضطراب خفيف . على أننى تظاهرت بالبرود وعدم التأثر ، وقلت له : « سيدى ! ليس هذا وقت العبث ، فقد حضرت الى هنا لأفاتحك فى مسألة جدية هامة ، وقد أرسلتنى اليك الراهبـــة « الأم ايكاريس »

فسألنى « دارتناى » وقد بدت عليه الدهشة : « أأنت قادمة من طرف الأم آيكاريس؟! اذن فأنت قد جئت لطلب الطلاق !»

وأجبته : « نعم ! هذا ماجئت من أجله ! »

ولا أظن أن محاميا من المحامين اضطرب وهو يسمع جوابا من موكله كما اضطرب هذا المحامى ! وقبل أن أفكر فى الدفاع عن نفسى كان « دارتناى » قد أمسكنى بيده وطوق خصرى بذراعه ، ثم عانقنى وانهال على بسيل من قبلاته وضماته وهو يقـول : « الطلاق ! آه يابلانش ! كم أنا سعيد بهذا الخبر ! اننى أعبدك حبا كما تعرفين منذ زمن ! »

وبدأ يغازلنى ويحاول اغرائى .. وكانت المدة التى انفصلت فيها عن زوجى قد أثرت فى أعصابى ، فكنت على وشك أن أفقد صوابى .. غير أنى نطقت بهذه الجملة التى أنقـذت شرفى . قلت له : « هنرى ! هنرى ! اننى لاأريد أن أخون زوجى «بول» .. تذكر اننى مازلت امرأة متزوجة ! »

لكنه قال على الفور : « ماذا تقولين ؟ وأين هو زوجك هذا ؟ انك لست متزوجة الآن ! »

ولم أعرف بماذا أجيبه ، ووجدت أن منطقه سليم ٠٠ فقلت أحدث نفسى : « ان مايقوله حقيقى ٠٠ فأنا على أى حال لست متزوجة الآن ! ولست ملزمة بأداء أى واجب ، فماذا أصنع كى أقاومه ؟ يجب أن أتدبر الأمر ! »

ولكن فى الوقت الذى كنت أتدبر فيه الأمر ، وأفكر فيما يجب أن أصنع لأقاومه ، كان هو مستمرا فى المغازلة ٠٠ حتى اضطربت ولم أجد وسيلة للمقاومة ٠

ولما لم أجد ماأقوله ، أخذت فى البكاء ٠٠ فأخذ يهدىء من روعى ، بأدب وظرف ، حتى شعرت فى الحال أن هذا هو الزوج المنشود ! ولم يكن فى وسعى أن أتبين حقيقة شعورى فى تلك اللحظة ، فقلت له : « هنرى ! يجب أن تتزوجنى ! »

ولم تبد عليه الدهشة فأجاب : « بالتأكيد ٠٠ انت الزوجة التى يحلم بها كل رجل نبيه رقيق الاحساس ! » ـ كم كان مغرورا ، معتدا بنفسه ! ـ ثم استطرد يقول : « نعم ! أنت جميلة ٠٠ رقيقة العاطفة والاحساس ٠٠ هائمة ! »

وبدا على وجهى الخجل وأنا أسمع هذا الاطراء ، فقلت له : « اذن فسوف تتزوجنى بمجرد أن يتم طلاقى من زوجى ٠٠ أليس كذلك ؟ »

فقال : « بالتأكيد ٠٠ ولكن ! »

قلت : « هل هناك : ولكن ؟ »

فأجاب فى تردد وخجل : « اننى ٠٠ متزوج ! »

وكانت صدمة مؤلمة لى ٠٠ فقد كنت أتوقع سماع أى شىء عدا هذا الجواب !

وقلت له : « سيدى ! لقد تصرفت معى تصرفا معيبا ، فليس من اللائق أن تعبث بشرف امرأة بهذه الطريقة ! ٠٠ انك عندما رأيتنى لأول مرة ، وأنا ما أزال فتاة صغيرة ، بادرت بمصارحتى بأنك تحبنى الى درجة العبادة ٠٠ ومع ذلك يبدو

انك لم تتعجل فى حياتك شيئا قدر ماتعجلت الزواج ٠٠ اذن فأنت لم تكن صادقا فى حبك !؟ »

وأحسست بحزن شديد لما وقع ٠٠ وازداد ألمى عندما قارنت بين موقفى الذليل فى هذه اللحظة ، وشعورى فى الماضى وأنا أتدلل على « دارتناى » ، حتى أدخلت اليأس الى قلبه بعد سعيه الطويل المتواصل !

لكنه عاد يقول : « لقد لجأت الى الزواج بعد أن أدركت أننى أمام امرأة شريفة للغاية ، وأنه ليست أمامى أية فرصة للنجاح !٠٠ ولذلك فقد التمست النسيان عن طريق الزواج ! »

قلت له : « اذن ، طلق زوجتك ٠٠ وتزوجنى ! »

فأجاب : « هذه فكرة لا بأس بها ، وسأبحثها بامعان ، ولكن يجب أن نهتم أولا بقضية طلاقك حتى لايتعطل تنفيذ المشروع ، وسيكفى شهر واحد للانتهاء من كل شىء ، فمتى أراك مرة أخرى ؟ »

وتظاهرت بأننى لاأفهم مايقول ، وأجبته متجاهلة : «سأبعث اليك بمحرر الدعاوى » ٠٠ فقال : « لست أريد أن أرى وجه محرر الدعاوى يابلانش ٠٠ وانما أريد أن أراك أنت ! »

٠٠ ومازال يلح على ، حتى انتزع منى وعدا بالعودة اليه ــ ووعد بأن يلتزم جانب الحكمة والأدب عند عودتى اليه ! ــ وفيما هو يودعنى عند باب مكتبه ، سألنى : « وما اسم محرر الدعاوى الذى تتعاملين معه ؟ »

قلت له وأنا أبحث عن اسم الرجل ، وكانت الراهبة ايكاريس قد كتبته لى : « ان اسمه « كارتلييه » ! »

فبدا عليه الامتعاض الشديد ، وقال : « كارتلييه ! كارتلييه! كارتلييه دائما ! لقد تحدثت بشأنه أكثر من مرة مع الراهبة « ايكاريس » ، ولكنها تصر دائما على أن ترسل اليه النساء ! هل تحبين الاستماع لنصحى : لاتذهبى الى كارتلييه ! »

فسألته : « ولماذا ؟ »

قال : « لايليق بامرأة صغيرة جميلة مثلك أن تذهب الى هذا الرجل ٠٠ ان أخلاقه غير حميدة ، وله شهرة سيئة ! »

فسألته : « من أى وجهة ؟ »

قال : « انه يحاول دائما اغراء موكلاته ! »

فابتسمت وأنا أسمع مايقول ، ثم تساءلت : « وأنت !٠٠ ألا تصنع مثله ؟ »

فصاح : « أنا !؟ ان هذا ليس من عادتى ، وعلاوة على ذلك فاننى رجل رقيق الاحساس لطيف المعشر ٠٠ أما هو فانه رجل قاس ! »

وضمنى الى صدره ـ لكى يثبت لى أنه رجل رقيق الاحساس لطيف المعشر ! ـ وفيما كنت أغادر منزله ، كرر تحذيره قائلا : « لاتذهبى اليه ٠٠ انه رجل فظ ! »

- ٤ -

• ماذا كنت تفعلين ، يا عزيزتى ، لو كنت مكانى !

أما كنت تتوجهين الى « كارتلييه » مباشرة ، لكى تثبتى لنفسك أن المرأة الأمينة لا تهاب الرجال ؟٠٠ ولكننى مع ذلك عدت الى المنزل ، وأرجأت اتخاذ أى قرار فى الموضوع الى اليوم التالى ، ريثما أستشير الراهبة « ايكاريس » من جديد ٠ ولم أصمم على مخالفة تعليمات دارتناى الا عندما سمعت الراهبة المحترمة تكرر على مسمعى من جديد أن كارتلييه هو « أنزه » محرر للدعاوى فى باريس !٠٠ وكررت كلمة « أنزه » مرتين !

ولما واجهت محرر الدعاوى ، عرفت فى الحال سبب مانال من شهرة فى ميدان اغراء النساء ٠٠ فان عينيه الزرقاوين اللتين يواجه بهما من يحادثه ، تؤثران فى الشخص الآخر حتى لا يكاد يدرك ماوراءهما !٠٠ انها لخسارة كبيرة أن يصبح هذا الرجل محررا للدعاوى ٠٠ كان يجب ان يشتغل بالتصوير أو التمثيل !

وقد صارحته بذلك ٠ لكنى لم أصارحه به فى الزيارة الاولى ٠٠ بل فى الثانية !٠٠ وسأقص عليك كل ماحدث :

فأولا لم يحدث شىء مما كنت أخشاه ! وقد تظاهر كارتلييه فى بادىء الأمر بأنه جم الأدب ، لايتأثر بسرعة ـ وهذا هو الذى وصفوه بأنه رجل فظ ! ـ وبعد انقضاء ربع ساعة فقط على زيارتى له كان قد فهم القضية كلها وبدأ يلخصها لى قائلا : « ان زوجك على علاقة بنساء أخريات ، رغم أنه لطيف المعشر

فى منزله • وشقيقتك صعبة الاحتمال والمعاشرة ، وهى التى دفعت بك الى طلب الطلاق ـ رغم ترددك فى بادىء الأمر ـ والآن قد استقر رأيك على السير فى اجراءات الطلاق الى النهاية ، اليس كذلك ؟ »

وكان هذا هو ما أريد حقا، ولم يبق بعد ذلك الا أن انسحب واغادر كارتلييه •• دون أن يحدث شىء ما !

وقد أحسست بدهشة ، فان المرء ليكره على أى حال ان يذهب الى مكان ما بعد أن تسلح بكل ذخيرته من الشجاعة ، ثم يفاجأ فى النهاية بأن لم يكن هناك أى خطر يتهدده !

هل كان دارتناى كاذبا فيما قال ؟ اننى لم أحاول أن أؤثر على كارتلييه ، ولـكن لاشك أن كل امرأة تشعر بالغيظ اذا أحست أنها لم ترق فى عـين شخص أعجبت به هى ! •• وهكذا أحسست بجرح فى كبريائى ، ولم أعـد أحتمل البقاء مع ذلك الرجل الذى لم يدرك سبب مابدا على وجهى من امتعاض•• فودعنى وقد ظهرت عليه أعراض الدهشة !

وعند ما عدت الى المنزل وجلست مع النزيلات ، فتحت باب الحـديث عن كارتلييه ، فلم أسمع منهن غير المديح والاطراء فى الرجل •• واجمعن على أنه رجل عملى ، وكررن ما ذكرته الراهبة ايـــكاريس من أنه « أنزه » محـرر للدعاوى !•• ثم طرقنا بعد ذلك باب الحديث عن أخلاقه الشخصية ، فلاحظت أن حمرة الخجل قد علت وجوه بعضهن ، واغلقن باب الحديث فى هذا الموضوع فى الحال !•• فسألت نفسى : « هل أساء الرجل اليهن جميعا من هذه الناحية ، ولم يعف الا عنى أنا •• وحدى ؟! »

وأخيرا عثرت على سيدة صغيرة السن جميلة الشكل كانت تطلب الطلاق من زوجها لأسباب تافهة تتعلق بحجرة النوم ، وقد اعترفت لى هذه السيدة بكل شىء اذ انتحيت معها ركنا من الأركان وأخذت أشكو اليها كارتلييه بدعوى أنه غازلنى عند ما ذهبت اليه ، فما كان من المسكينة الا أن اعترفت لى بكل ماحدث بينها وبينه !

لـكن المسألة لم تنته عند هذا الحد ، فقد قررت أن أعود الى مكتب محرر الدعاوى لأكتشف بنفسى حقيقة امره • وقد استجمعت أطراف شجاعتى كلها حتى أبدو بمظهر عدم الاكتراث أمام هذا الشيطان الذى كنت قد بدأت أشعر نحوه بالكراهيـة !

وكنت فى كامل زينتى ، فلما دخلت الى حجرته اقتربت من مكتبه وأنا أتظاهر بأننى أبغى قراءة عبارة وردت فى أوراق قضيتى الموضوعة أمامه • ولامس وجهى شاربه الـكبير ، فلم تنقض لحظة واحدة حتى بدا عليه تغير كبير من اثر هذا الاحتـــكاك •

وكانت ثمة مغامرة هائلة !

لاشك أن المرأة الشريفة تخطىء كثيرا عند ما تغتر بقوتها وتحاول أن تجرب قوة دفاعها أمام ثورة الرجل وقسوته•• انها تعرض نفسها لأعظم الأخطار !•• وقد أثبت « كارتلييه » فعلا انه رجل فظ • وقد قلت له هذه الكلمة فى وجهه

بكل قوة وشجاعة عند ما غادرت مكتبه بعد المغامرة بلحظات قليلة ·· هل يمكن أن تصدقي يا أليس أن الرجل عاد بعد المغامرة فورا الى مكتبه وجلس يقلب أوراق القضية بكل هدوء ، كأن لم يحدث شيء !؟

وأؤكد لك انني لن أعود اليه مطلقا الا اذا اضطررت الى ذلك ، فقد كنت ثائرة ضد ما وقع ، وان أخذت ألتمس العذر لنفسي قائلة : « ما دمت امرأة مطلقة فأنا حرة ، غير مقيدة بشيء من الواجبات · ولا شك أن « دارتنـــاى » سيتزوجني ، واذ ذاك أخلص له ·· ولكنني ، حتى الآن ، لست ملزمة نحوه بشيء ! »

وقد ثبت لي أنه ليست هناك وسيلة للسير في الطريق القويم الا بالمحافظة على المبادىء بكل دقة !

- ٥ -

◆ وكان علي بعد ذلك أن أقوم بزيارة القاضي الذي سيفصل في القضية ، والمفروض أنه يحاول ، بادىء ذي بدء ، أن يصلح مابيني وبين زوجي ويزيل كل خلاف، وكنت قد اتعظت بما حدث لي قبل ذلك ، فرأيت أن أستشير السيدة الصغيرة السن التي صارحتني بكل شيء عن كارتلييه · وكان موعد نظر قضيتها يسبق موعد نظر قضيتي بثمانية أيام · وقد قالت لي تحدثني عن القاضي :

ـ انه ليس شديد الخطر ، وهو متوسط السن على أي حال · وقد برع في مظاهر التحية على طريقة المدرسة القديمة ! فاذهبي اليه دون خوف ولا وجل ، ويجب أن تتلطفي معه ·· لأن في وسعه ـ كما تعلمين ـ أن يعارض في طلاقك !

يعارض في طلاقي ؟! لو خطرت لي هذه الفكرة منذ أسبوعين لما تركت أثرا في نفسي ، ولتقبلتها كما أتقبل أية فكرة أخرى دون أن أحسب حسابا لأختي انيتـا ! اما اليوم ، وبعد ما كان بيني وبين دارتناي وكارتلييه ، فقد كان يخيل الي أن اعادة السلام بيني وبين زوجي أمر مستحيل ، وعمل غير لائق من الوجهة الاخلاقية !

·· ولذلك فقد تلطفت مع المسيو « كودراي » القاضي ، عند ما ذهبت لأقابله· وقد وجدته رجلا متوسط الحجم ، احمر الوجه ، أطلق شعر عارضيه · وعند ما دخلت الى مكتبه وجدته منهمكا في أعماله ، يقلب أوراقه الكثيرة ويدون آراءه في مختلف الأزواج والزوجات ·· وفي النهاية فتحت موضوع الحديث في قضيتي فقلت له : « ان زوجي كان يتردد كل مساء يا سيدي القاضي على منزل في شارع (باسانو) لدى امرأة اسمها هنرييت دي كوتني ·· »

فقاطعني بقوله : « كل مساء ! كل مساء ! ان زوجك ليستحق الاعجاب اذا كان قد تمكن رغم ذلك من الاحتفاظ بعلاقته معك ! »

·· ثم بدأ يغازلني ، فكان تارة يمر بيده على وجهي ، وهو يبتسم لي ويظهر لي عطف الأب على ابنته ، حتى بدأ يضيق صدري في النهاية ! ولكن لم يكن

فى وسعى أن أوقفه عند حده أو أمنعه من هذا العبث ، اذ تذكرت ما قالت لى السيدة الصغيرة السن من آن فى وسعه آن يعارض فى طلاقى !

ولما انقضت ثلاثة أرباع الساعة على هذه‌الحال ، عاد الى مقعده ، ثم قال لى : « اقتربى من هنا يا ابنتى ! »

وأطعته ٠٠ فأمسك بيدى ، وبدأ يلقى على عظة قصيرة كان فى أثنائها يمسك بيدى ، ويزداد اقترابا منى ، وهو يقول : « ان الطلاق يا ابنتى أمر خطير ! تصورى مركز امرأة فى المجتمع ليس لها من يتولى حمايتها ، (وهنا شعرت بيده تتحسس ذراعى من أسفل الى أعلى !) وأنت شخصيا لايبدو عليك مظهر المرأة التى تكره زوجها (وهنا وضع قبلة على خدى !) أو مظهر المرأة التى تريد أن تنفصل عنه لمجرد أنه تردد بضع مرات على منزل بشارع « باسانو » ٠ تذكرى يا ابنتى عدد الأيام السعيدة التى قضيتها الى جانب هذا الزوج ٠٠ استعيدى ذكريات الزواج الهنيئة (وهنا طوق خصرى بذراعه !) واذكرى كذلك شهر العسل ٠ فما قولك بعد هذا ؟ »

يا للغرابة ! لقد اشتد تأثرى لهذه الذكريات التى أثارتها فى نفسى كلمات القاضى ، حتى اننى لم أبال بحركاته ٠٠ بل فكرت حينئذ فى زوجى بول !٠٠ مسكين زوجى ٠ لقد كان رجلا لطيفا ، كريما ، مسليا ، عطوفا ! ولقد بدا لى مما قاله القاضى أن فكرة العودة اليه والدخول تحت سيطرته مرة أخرى ، ليست الا شهر عسل جديد سأقضيه معه ! وكنت استمتع بهذه الفكرة الجميلة حين افقت منها وأنا اصيح قائلة :

ــ سـيدى !



وكان الغضب قد استولى على ، لأن القاضى استغل الفترة التى غبت فيهـا عن صوابى وأنا غارقة فى الحلم الجميل بقرب العودة الى أحضـان زوجى ٠٠ استغل هذه الفترة وسمح لنفسه بأن يقبلنى فى فمى !

ويظهر آن‌القضاة فى بلادنا لايخافون شيئا ، لأن الرجل لم يرتـدع ، فلم يسعنى الا آن آرفع يـدى وأهوى بها على خده فى صفعة قوية لم يتلق مثلها طول حياته ـ اننى على ثقة من ذلك !

لكنه لم يغضب لهذ الصفعة ، بل أمسك بيدى وقبلها وهو يقول :« لحسن حظك اننى لا أرتدى لباسى الرسمى ٠

والا لكلفتك هذه الصفعة خمس سنوات من السجن ! »

وعند هذه الكلمة افترقنا ، دون أن يشعر أحدنا بحقد يذكر ضد الآخر ـ اذ كان قد اكتفى بما حدث ، بسبب سنه ـ وأما من ناحيتى فانه كان قد حدثنى عن زوجى بول حديثا ممتعا أعاد الهدوء الى نفسى ، وذكر لى ما لم أكن أجرؤ على أن أعترف به لنفسى : وهو أننى ٠٠ ما زلت احبه !

- ٦ -

◆ **وعدت** بعد ذلك الى منزل شارع (فارين) الذى يضم جميع الغاضبات من أزواجهن ، الراغبات فى الطلاق منهم ، فوجدت شقيقتى « أنيتا » تنتظرنى وهى مسرورة قريرة العين بين هؤلاء النسوة اللواتى يكرهن أزواجهن ولا يتحدثن عنهم الا بالشر !٠٠ وما ان رأتنى حتى بادرتنى بهذا السؤال : « أرجو أن تكون قضية الطلاق سائرة فى طريقها المرسوم ؟ »

فأجبتها فى حدة : « دعينى وشأنى ! ان تحريضك لى ضد « بول » هو السبب فى كل شىء ٠٠ فأرجو ألا تتحدثى عنه بشر بعد اليوم ! »

ولكنها أجابتنى بذلك البرود الذى أحسدها عليه ، والذى لا نجده الا فى هؤلاء العانسات اللواتى يعرفن كيف يبعثن الكراهية الى القلوب ويسممن الأفكار : « ولماذا لا تذهبين للقائه اذن ؟!٠٠ انك تعرفين مكانه ، فى ذلك المنزل الموجود بشارع (باسانو) ، ويمكنك لو ذهبت الى هناك أن تشربى الشاى مع عشيقته هنرييت دى كونتى ! »

عشيقته ! هنرييت دى كونتى ! ان هذا حقيقى على أية حال ٠٠ وهذه المرأة مازالت حية ترزق ، وقد رأيت صورتها ! ولا شك أن زوجى بول لا يكاد يفترق عنها الآن !

واذ تذكرت كل ذلك قلت لشقيقتى انيتا : « أنت على حق ٠٠ يجب أن أطلقه ! » ٠٠ ثم انسحبت الى حجرتى وأخذت فى البكاء ، غير أننى لم أشعر بالحقد القديم ضد « بول » ، ولم

أحس بالغضب السابق لخيانته ·· بل حدثتنى نفسى قائلة : « لم تعد لك الآن حقوق على زوجك تدفعك الى اظهار الغيرة والحقد عليه ! » ·· ثم قلت لنفسى : « **وعلى أى حال ، ليس لى أن ألومه ·· فقد خنته كما خاننى هو من قبل ، وأصبحنا « خالصين » !·· بل ربما كان لزوجى على بعض الدين !** »

وانقضت على ذلك ثلاثة أيام ، تلقيت بعدها دعوة للتوجه الى المحكمة · وعرفت انها دعوة لمحاولة ازالة الخلاف بينى وبين زوجى قبل السير فى اجراءات الطلاق ·

وذهبت الى المحكمة فى عربة ومعى شقيقتى أنيتا · وسرت فى حجرات وردهات متعددة حتى وصلت الى حجرة الانتظار التى تؤدى الى قاعة المحكمة · وكان قلبى يدق بشدة ، ثم تزايدت سرعة دقاته ، لا لخوفى من أن يصدر الحكم ضد مصلحتى ، أو خوفا من الطلاق ·· بل كان السبب هو توقعى رؤية زوجى بعد لحظة قصيرة !

وكانت حجرة الانتظار غاصة بالمنتظرين على اختلاف أشكالهم ، وخاصة من الفلاحين · وكان الرجال يجلسون على حدة وقد انتحى كل منهم ركنا من الأركان وجلس وحيدا كئيبا ، وعلى وجهه أمارات الحزن والكمد ·· أما النساء فكانت تصحب كل منهن أمها ، أو احدى قريباتها ، أو صديقاتها المسنات (فلكل منهن « أنيتا » خاصة بها على وجه التأكيد !)

ودرت ببصرى أبحث عن زوجى بول ، فلم أره فى بادىء الأمر · الا أن انيتا ظلت تبحث عنه ببصرها حتى عثرت عليه ·· فقبضت بكل قوتها على ذراعى وقالت : «هاهو التعس !·· اياك أن تهتمى بالنظر اليه ! »

ولم أهتم بالنظر اليه ، ولكننى مع ذلك اختلست نظرة واحدة ألقيتها على ذلك « التعس » !·· **كم كان جميلا ! لقد**

أصابه شيء من الهزال ، الا انه كان لا يزال محتفظا بجماله ورزانته . وكان قد وضع بعض زهرات البنفسج فى عروة سترته ، كما كانت قبعته أنيقة ، تزيده بهاء ، ورباط رقبته من أحدث الأنواع ! وقدخيل اليه أن كل المنتظرين فى المحكمة ينتسبون الى طبقة أقل من طبقته ، وأنهم لا يليقون الا بأن يكونوا خدما له ، ينظفون ملابسه ، أو يمسحون حذاءه ، أو يفتحون باب عربته !

ومر بخاطرى فى ذلك الوقت المحامى « دارتناى » ، ومحرر الدعاوى « كارتلييه » ، والقاضى .. فقلت لنفسى : « ان زوجى أجمل منهم جميعا ! » ـ وهكذا وجدت نفسى أتحدث عن بول بوصفه « زوجى » مرة أخرى ! ـ بينما بدأت أنيتا تكرر على الدرس فتقول : « يجب أن تتظاهرى بالثبات وعدم الاكتراث ، انهم سيحاولون الآن اصلاح ذات البين ، وسيحاولون الجمع بينكما ، فاذا انتابك أى نوع من أنواع الضعف فلتذكرى عشيقته هنرييت دى كونتى !.. ولكن ، أين تنظرين ؟ »

وكانت قد تنبهت أخيرا الى أن نظراتى تتجه الى « بول » ، ورأته وهو يغمز لى بطرف عينه . وكنت أفهم ما يقصد بهذه الغمزات ! كان ينظر الى بعينى العشيق لا الزوج .. وكأنه يريد أن يقول لى : « **حبيبتى بلانش ! لقد فعلت كل شيء حتى أمكنك أن تأتى بى الى هذا المكان ، ولقد أصابنى من وراء ذلك شقاء عظيم ! ولكننى رغم ذلك ما زلت أحبك !** »

وحاولت أنا أيضا أن أرد عليه بلغة العيون ، فقلت له : « **يازوجى العزيز ! اننى أكون سعيدة جدا لو أمكننى أن أقبلك الآن فى فمك ! ولكنى لا أجرؤ على ذلك أمام شقيقتى أنيتا** »

وكانت انيتا قد اكتشفت هذا الحديث الخفى ، فأوقفته فى الحال ـ بمنتهى القسوة ـ وألزمتنى بتحويل نظراتى الى ناحية

أخرى . وما لبثت أن سمعت صوتا يصيح : « قضية بلانش اردفيل » !

وهمست أنيتا فى أذنى قبل أن أدخل الى قاعة المحكمة : « تشجعى واذكرى عشيقته هنرييت دى كونتى ! هنرييت دى كونتى ! » .. وأخذت تـــكرر على مسمعى هذا الاسم البغيض حتى وصلت الى باب القاعة ، ودخـــل زوجى ، ثم دخلت أنا الأخرى . وقال لنا الحاجب : « انتظرا هنا الى أن يأتى الرئيس ونائبه .. وسيحضران فوراً »

ثم خرج من القاعة وتركنى وحدى مع .. زوجى !

وجلس بول على أحد المقاعد . أما أنا فتوجهت الى النافذة وأخذت أطل منها على الفضاء ، كى أستعيد رباطـــة جأشى وهدوئى ، وأخذت أكرر القول لنفسى : « هنرييت دى كونتى ! هنرييت دى كونتى ! » .. حتى شعرت فى النهاية برغبـــة شديدة فى التوجه الى ذلك السيد الأنيق الجالس على مقعده فى الحجرة ، وصفعه على وجهه بشدة !

لـكنى شعرت بذلك السيد وهو يترك مقعده ويسير متجها الى ، فقد كان لحذائه صوت مسموع .. وأخذت رائحـــة البنفسج تدنو منى !

هل كنت غبية ؟

لم أجرؤ ، وأنا أشعر به يتقدم متجها الى ناحيتى ، على النظر اليه .. وأحسست اننى سأصاب بدوار وأسقط على الأرض ! .. بل انى تمايلت فعلا وكدت أقع ، لولا أن تلقانى « زوجى » بين ذراعيه !

فلتلصقى بى يا عـــزيزتى « أليس » كل أنواع التهم .. ولتقولى اننى امرأة لا أستحق الاحترام ! ولكن كان بودى أن أعرف ماذا كانت تفعل أى امرأة أخرى لو كانت مكانى ! — ولست أرى بأسا فى أن يوصف المرء بالجبن لأنه يحب شخصا

آخر ٠٠ بل ويجزل له الحب !

وسمعت صوتا أعرفه حق المعرفة ، يردد القول : « يخيل الى أن كل شىء قد انتهى على خير ما يرام ! » ٠٠ وكان ذلك صوت رئيس المحكمة القاضى « كودراى » ، الذى دخل لحظتئذْ الحجرة فى سكون تام ، لكى يرى ما تم ! وكان معه مساعده ، وقد وجدانا جالسين على المقعد نتحدث فى هدوء ، واحـــدى يدى فى يد « بول » !

وقد أحسست عنـــدئذ بشىء من الاضطراب ، منعنى من الحديث ، غير أن رئيس المحكمة توجه بالحديث الى بول فقال : **« ها أنت ترى يا سيدى أنه ليست هناك وسيلة لعقد الصلح بين زوجين أنجع من تركهما وحدهما مدة خمس دقائق ! ان الحب هو وسيلة الاصلاح فى هذا العالم ٠ وهذا موضوع حيوى أود أن أعالجه فى محاضرة عامة ألقيها على الناس ! »**

وكم كان الرئيس بارعا ! فقد أمرنا أن نخرج من باب خلفى خاص حتى لا نمر أمام الحمقى فى الحجرة الخارجية فيثير مرورنا ابتسامهم الساخر !

وكان كل همنا بعد ذلك أن نفر من شقيقتى أنيتا ، ولذا فقد غادرنا دارالمحكمةبسرعة بعدأن ركبنا أولعربة مرت بنا ، كما يفعل العاشقان فى أول عهدهما بالحب !

والآن ٠٠ اسرع ! اسرع أيها السائق !٠٠ اسرع الى منزل بول ٠٠ بل منزلنا ! »

كل هذا حسن ٠٠ ولكن أنيتـــا ؟٠٠ ودارتنـــاى ؟٠٠ وكارتلييه ؟٠٠ ماذا يكون شأنهم جميعا ؟!

أما أنيتا فاننى لم أرها بعد ذلك ! ولم تعن بالرد على خطابى الذى أرسلته اليها لأبرر موقفى ٠ وقد أحزننى موقفها هذا ، ولكن عزائى أن شقيقتى قد عرفت سبيلها فى الحياة وانضمت الى زمرة السيدات الغاضبات من أزواجهن فى المنزل الذى

تديره الراهبات بشارع (فارين) ، وكل مهمتهــا الآن أن تحرض كل سيدة على الانفصال عن زوجها وعلى طلب الطلاق اذا بدا منها أى ميل لعقد الصلح !

أما « دارتناى » و « كارتلييه » فكان يجب أن أعود اليهما كى أدفع لهما قيمة اتعابهما - اذ لم يكن من اللائق أن يذهب اليهما زوجى - ليدفع هذا الحساب ! - وهل يمكن أن يصدق أحد أن الاثنين خطر لهما بمجرد رؤيتى أن يعاملانى معاملة امرأة صغيرة السن فى متناول يدهما ، بعد أن رفعت الـكلفة بينى وبينهما !٠٠ الا أنهما ما لبثا أن أدركا أن هذا لم يعد ممكنا ، فانتزعا الفكرة من رأسيهما !

وانني لأعجب حقا وأتساءل : هل فقد الاثنان وأمثالهما كل وازع أخلاقى حتى نسوا أو تناسوا ، رغم درايتهم بالقانون ، أن المرأة المتزوجة ليست الا شيئا صغيرا مقدسا يملكه زوجها٠٠ من أعلى الرأس الى أخمص القدمين ؟!

أما أنا ، وقد عرف عنى دائما التمسك بأهداب الأخلاق الفاضلة ، فقد أدركت فى الحال ما على من واجبات والتزامات ، وبدأت أتقيد بها دون عناء !٠٠ وقد أخذت أحس - والسرور يملأ قلبى - ان « بول » يحبنى ويهيم بى غراما ، كما كان الحال أثناء شهر العسل تماما ٠٠ بل انه قد استعاد حبى له وتأثيره على ، حتى كدت أقص عليه منذ اليوم الأول لعقد الصلح ، ودون مناسبة ، كل ما حدث لى خلال الأزمة التى تخللت حيــاتنا الزوجية وكدت فيها أطلق منه ٠٠ **غير أننى - فى آخر لحظة - أغلقت فمى وامتنعت عن الاعتراف والخوض فى الموضوع ؟**

وأظن اننى أحسنت صنعا !!

« بلانش »

عندما ترفع الستار..



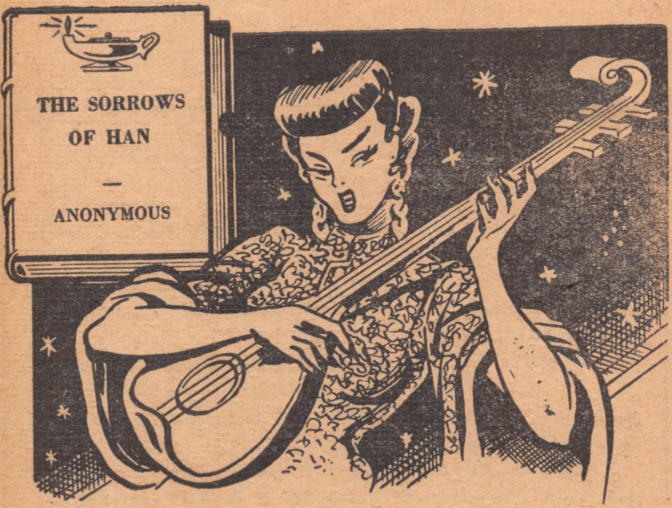
روائع المسرح العالمى
(التمثيلى .. والغنائى)

عزيزى القارى :

قدمت لك فى هذا الباب فى الاعداد الماضية المسرحيات العالمية الآتية :

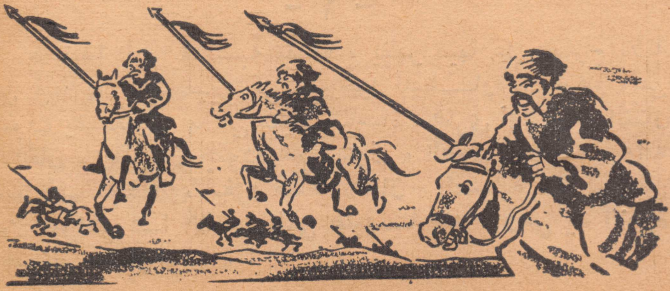
• خطايا الحب : لأوسكار وايلد • نزاهة الحكم : جوجول • سلاح المرأة : اريستوفان • فولبون : بن جونسون • جيوكندا : دانونزيو • كلام الناس : جوزيه اشيجاراى • مدرسة الفضائح : شيريدان • سيرانو دى برجراك : روستان • لعبة الحب والموت : رومان رولان • مروحة الليدى وندرمير : وايلد • فاوست : جيته • أوديب الملك : سوفوكل • فى سبيل الحب : جون درايدن • وليم تل : شيللر • الام : مكسيم جوركى • الملك يلهو : فيكتور هوجو • الجنس الآلى : كاريل كابيك • الابن الاكبر : جالزورثى • هرنانى : فيكتور هوجو • ترويض النمرة : شكسبير • الحياة نفاق : لويجى بيراندللو • اغلال الحب : ستيف باسير • المنافق (طرطوف) : موليير • بيت الليل : تييرى مونييه • علموهم الحب : روجيه فردينان • زوج مثالى : أوسكار وايلد • سالومى : أوسكار وايلد • مدرسة الارامل : جان كوكتو • برهان الحب : جان انوى • لوسيد : بيير كورنى • كيف نقع فى حبائلهن : بروفانس

واليوم ، أقدم لك هذه المسرحية الساخرة للكاتب الفرنسى مارسيل بريفو



أحزان "هان"!

قصة تمثيلية من روائع المسرح الصيني



مسرحية مشهورة .. لمؤلف مجهول !

• تدور هذه المأساة التاريخية - التى لا يعرف أحد اسم مؤلفها ! - حول أحداث وقعت فى الصين القديمة حوالى عام ٥٠ قبل الميلاد ، هى تضحية الأميرة العذراء « شاوكوين » بحياتها فى سبيل مقاومة غزو « التتار » !.. وقد كانت هذه التضحية الفريدة بمثابة النبع الذى استمد منه شعراء الصين ورساموها ومؤرخوها الوحى والالهام .. كما ظل قبر الأميرة المشهور - طيلة أكثر من ألف عام - كعبة الحجاج الصينيين ، يزورونه فيحنون أمامه هاماتهم ، اجلالا وخشوعا لذكراها التى ما تزال حية عاطرة فى أذهان عشاق الشعر الصينى الى يومنا الحاضر !.. بل ان أهل الصين يتداولون الاعتقاد بأن قبر الأميرة قد ظل مزدهرا بالخضرة على الدوام ، حتى خلال صقيع الشتاء القارس وحر الصيف اللافح !

وتتميز هذه المسرحية - كما يتميز الفن المسرحى الصينى على وجه العموم - بالبساطة الاخاذة ، والخلو من التعقيد ، سواء فى العواطف أو فى المواقف التى تعرضها المسرحية .. فترى الأحداث تسير من البداية الى النهاية سيرها المفجع الذى لا مفر منه ، فى انتظام الخط المرسوم .. مع اقتصاد فى الاضاءة والظلال ، يتمشى به الاخراج مع هذه البساطة التامه فى التأليف

فتعال معى نعيش هذه الصفحات الممتعة فى جو الصين القديمة ، منذ أكثر من ألفى عام :

- ١ -

• تبدأ الرواية بشبه مقدمة ، يظهر فيها على المسرح ثلاثة من أبطالها الرئيسيين كى يشرحوا للنظارة أدوارهم التى سوف يضطلعون بها فى سياق المأساة : **فنرى أولا زعيم التتار « الخان » يعلن ان جنوده هم « غول » الصين الرهيب ، وانه سيزحف بجحافلهم ليغزو مملكة « هان » الصينية ، ما لم يتلق من أمبراطورها الأتاوة التى طلبها منه : وهى يد الاميرة الحسناء « شاوكوين » !**

ثم يترك « الخان » المسرح فيدخله فى أثره رئيس وزارة مملكة « هان » ، وهو سياسى شرير يصارح النظارة بأن مهمته هى أن يخدع رؤساءه ، ويضطهد مرؤوسيه !.. **ولسوف يحاول اقناع الامبراطور باقصاء مستشاريه الحكماء والانغماس فى ملذات الخمر والنساء والغناء !.. « وبهذه الوسيلة يمكننى ان أضاعف من قوتى وسطوتى ! »**

وينسحب رئيس الوزارة من المسرح ليظهر على خشبته الامبراطور نفسه ، الذى يحدد دوره فى الرواية بقوله : **« عندما مات أبى العظيم تبدد شمل « حريم » قصرنا . لكن وزيرى المخلص قد أخذ على عاتقه أن يملأ جناح الحريم من جديد .. وسوف ينتقى لهذا الغرض أجمل عذارى المملكة وحسانها، ويزودنى بصورة لكل منهن تعيننى على اختيار التى تروقنى ، وهكذا يدخل الفرح والبهجة الى قلبى.. فالمجد لوزيرى من أجل خدماته الموفقة ! »**

ولكن لا يكاد يرفع الستار عن الفصل الأول حتى نعلم أن الوزير الأول غير قانع بالمجد الذى يريقه عليه مولاه ، وانما هو يطمع فى بريق الذهب ويفضله على سناء المجد : **« اننى أنقل الى حيازتى سبائك الذهب الضخمة ، ولا أعبأ بأنهر الدماء التى تسيل من جراء خططى الشريرة .. كل ما أشتهيه أن تتراكم الثروات فى يدى مدى حياتى ، وليست تهمنى لغات البشر بعد موتى ! »**

وطبقا لهذه الخطة المرسومة يحرص الوزير على انتقاء العذارى بنسبة ثرائهن لا جمالهن ، فهو لا يقدم الى الامبراطور غير اللواتى دفع له أباؤهن الرشاوى الضخمة !.. وبهذه الصورة وقع اختياره حتى الآن على تسع وتسعين عذراء ، ولم تبق على اكتمال « الحريم » غير واحدة !.. ولقد رأى لتوه عذراء اسمها « شاوكوين » ، ذات جمال « يطعن القلب كالسهم » ، وليس فى المملكة بأسرها من تضارعها جمالا ،

لكن أباها ـ لسوء الحظ ـ لا يملك الاتاوة المطلوبة ٠٠ والوزير يشكو من انه حين طالبه بالمائة أوقية من الذهب ، أجابه بأن ثروة ابنته هى حسنها !

لكن الوزير الشرير يفكر فى خطة جهنمية للتخلص من هذا الحرج : « **سوف أشوه صورتها التى أحملها الى الامبراطور ، الى حد يجعله حين يراها يلقى بها فى زوايا النسيان ، فتعيش فى الحريم منبوذة حبيسة ، ولئن تعذر على أن أحصل من هذه الفتاة على الذهب ، فسوف أقنع على الاقل بعملة الانتقام !** »

- ٢ -

◆ **فاذا** كان الفصل الثانى فنحن فى قصر الامبراطور ، حيث تقيم « شاوكوين » منذ أمد ، شبه منفية ، أو منسية ، بعد أن استبدل الوزير بصورتها صورة فتاة قبيحة ثم عرضها على مولاه ٠٠ فلم يعبأ هذا بالالتفات اليها بطبيعة الحال ٠

الوقت ليل ٠٠ وقد عمدت شاوكوين الى الغناء والعزف على العود ، كى تبدد وحشة وحدتها الكئيبة وتحتال على انفاق ساعات الليل الطويلة ٠٠

ويبلغ غناؤها سمع الامبراطور ، فيطرب له أشد الطرب ، ويرسل فى استدعائها من جناح الحريم ٠٠ ولا تكاد تمثل امامه حتى يدهشه أن يجد وجهها أجمل من صوتها :

الامبراطور : كيف حجبت عن عينى هذه اللؤلؤة ذات الجمال الذى لا يقدر بمال ؟

شاوكوين : عندما اختارنى وزيرك يا مولاى طلب من أبى رشوة كبيرة ، عجز أبى عن دفعها ، فعمد الوزير الى تزييف صورتى كى أظل ملقاة فى زوايا الاهمال والنسيان !

الامبراطور : آننى أجعل منك أميرة من أميرات مملكة

« هان » ٠ ومنذ الساعة تكونين الجوهرة المدللة فى تاجى ٠٠ أما الوزير فسوف يقطع رأسه على الفور !

لكن الوزير يعلم بأمر الامبراطور قبل أن ينفذ ٠٠ فيلوذ بالفرار الى جهة أخرى ، ليجنى الثمار السامة لخططه الشريرة !

- ٣ -

◆ **فاذا** كان الفصل التالى فنحن فى خيمة « الخان » زعيم التتار ٠٠ وقد طلب الخان من أمبراطور الصين ، بصفة أتاوة ، أميرة من حريم القصر ، لكن الامبراطور رفض طلبه ٠٠ ومن ثم نجد الخان غاضبا حانقا ، يهدد ويتوعد بغزو مملكة « هان » !

وفى تلك اللحظة يدخل الخيمة وزير الامبراطور ، الهارب من العقاب ، وقد أحضر معه الصورة الحقيقة للأميرة :

الوزير : تأمل ، أيها الخان العظيم ، هذه الصورة لأجمل عذراء فى قصر الامبراطور !٠٠ عندما جاء مبعوثك ليطلب أميرة من المملكة نصحت الامبراطور بأن يرسل اليك هذه العذراء ٠ قلت له :« لا تدع حربا تنشب بين شعبين عظيمين من أجل امرأة ، أيا كان جمالها ! »



٠٠ وبسبب هذه النصيحة أمر الامبراطور بقطع رأسى ، لولا أن هربت ومعى هذه الصورة التى أقدمها اليك الآن أيها الخان العظيم

الخان (ينظر الى الصورة) : لم يكن يدور بخلدى قط أن هذا الجمال يمكن أن يوجد على الارض! ٠٠ ومنذ الساعة ستكون أمنيتى الوحيدة أن أحصل على هذه الأميرة ! سوف أجعل

زواجي منها شرطي الوحيد لاستمرار السلام بين الشعبين ٠٠ فاما أن تأتي هي الى خيمتي ، أو أغزو أنا قصر الامبراطور !

- ٤ -

◆ **فاذا** كان الفصل الرابع فقد عدنا الى قصر الامبراطور ، حيث أبلغ انذار الخان الى جلالته ، فوجد نفسه راغبا عن قبوله ٠٠ وفي الوقت عينه خائفا من عواقب رفضه !٠٠ **فهو يحب الاميرة حبا يملك مشاعره ، ويجعله عاجزا عن فراقها ٠٠ لكنه أيضا يحب شعبه ولا يجرؤ على تعريضه لمخاطر الغزو وأهواله !٠٠** ولكي يظفر الامبراطور الحائر بفسحة من الوقت يتدبر خلالها الأمر ، يقول لرسول الخان في لهجة الود الخالص : « يمكنك أن تمضي الى جناحك فتنال قسطا من الراحة بعد رحلتك الطويلة الشاقة ٠٠ وفي أثناء ذلك سنعقد مجلس وزرائنا تمهيدا لاتخاذ القرار الصائب »

وابان اخلاد الرسول للراحة ، تعرض الاميرة على مولاها أن يسلمها الى الخان كي ينقذ المملكة من غزو التتار : « **فانه لواجب على خادمتك الوفية يامولاي أن تواجه النفي بشجاعة في سبيل افتداء وطنها** »

لكن الامبراطور يتردد ، بينما يناشده مستشاره أن يقبل تضحيتها : « أتوسل اليك يامولاي أن تذكر حبك لشعبك ! »

حيال ذلك يوافق الامبراطور ، على مضض ، وتتأهب الأميرة للرحيل : « **انني أمضي الى المنفى مختارة من أجل وطني ، وان كنت لا أقوى على فراق مولاي الحبيب** »

- ٥ -

◆ **فاذا** كان الفصل التالي فقد دخل مبعوث الخان على الأميرة يستحثها على الاسراع :

الأميرة : فى البداية كانت صورتى المزيفة التى جلبت على التعاسة ٠٠ واليوم تجلبها على صورتى الحقيقية !٠٠ يبدو أن الهناء ليس من نصيبنا على الارض ٠٠ وعلينا أن ندفع ضريبة الجمال خبزاً ممزوجا بالدمع والألم !

الرسول : مرة أخرى دعينى آستحثك على المبادرة بالرحيل ياصاحبة السمو ٠٠ فلقد تأخرت عن الموعد الذى حدده لى جلالة الخان !

الاميرة : اننى لن أتجمل وأتزين من أجل الخان ٠٠ وسوف أترك كل ثيابى الجميلة وورائى ٠٠ فعندما أصير فى حضرته يجب أن يكون جسمى ، مثل قلبى ، متشحا بالأسى والحزن المرير ٠٠

وتمضى الأميرة فى ركابها ، تاركة الامبراطور فريسة لأفكاره السوداء :

الامبراطور : ان الجندى الوحيد الشجاع فى مملكتنا امرأة ٠٠ انها وحدها التى جرؤت على الاستسلام للمصير الذى يتراجع المحاربون عنه مذعورين !

المستشار : لا تطيلن التفكير فيها بمرارة يامولاى !

الامبراطور : اواه ، ان ذكراها لن تمحى من قلبى أو قصرى ٠٠ الليلة يجب أن تعلق صورتها فى القصر وتوقد الشموع فى ابهائه على الدوام ، تخليدا لتضحيتها المقدسة !

- ٦ -

◆ **فاذا** كان الفصل التالى فقد وصلت الأميرة آلى ضفاف نهر « آمور » ، فى حراسة رسول الخان :

الأميرة : أى مكان هذا ؟

الرسول : انها مياه التنين الأسود ، الحد الفاصل بين بلاد التتار وبين مملكة الصين



الأميرة : وهـذا الرجـل ، من يكون ؟

الرسول : الخـان العـظيم ، زوجك المقبل

الأميرة (بينمـا يقدم الخان اليها كأسـا من النبيـذ) : اننى أشرب نخب امبـراطور مملكة « هان » ٠٠ آخر نخب أتنـاوله على هـذه الأرض ٠ وسوف انتظره فى العالم الآخر!

ثم تلقى بنفسها الى النهر ، فيحـاول الخـان جهـده أن ينقذها ٠٠ ولكن دون جدوى !

الخان : لقد ماتت ، سفيرة الأحزان والنوايا الطيبة ٠ ان الامبراطور قد دفع الأتاوة ، ولن أطالبه بأخرى !٠٠ وانى لأتبين الآن أن عداءنا مع مملكة هان كان عقيما ، ومنذ الساعة سوف يكون بيننا سلام ، وصداقة متينة توطد دعامتها ذكرى تضحية نبيلة !٠٠ أما وزير مملكة هان فقد أثبت أنه خائن لكل من وطنه ولى ، وسوف أسلمه الى مولاه كى ينال جزاءه الذى يستحقه !

- ٧ -

◆ **فاذا** كان الفصـل الأخير فنحن فى قصر الامبراطور ، الذى لم يعلم بعـد بنبـأ موت « شاوكوين » ، فجلس فى صومعتها بالقصر يستعيد ذكراها ٠٠ ويغلبه التعب والنعاس فينام ، وتظهر له الأميرة فى نومه :

الأميرة : بعد أن سلمت أسيرة الى العدو الغاشـم ، كى أخفف من حدة العداء البربرى بين المملكتين ، لذت بالفرار ٠٠

فخذنى يامولاى بين ذراعيك من جديد !

جندى من التتار (يظهر فى الرؤيا) : بينما كنت نائما عمدت الأميرة الى الفرار ٠٠ لكننى طاردتها حتى اقتنصتها ، وسوف أعيدها الى مولاى

ويحملها الجندى ويذهب ، فيستيقظ الامبراطور من نومه مذعورا :

الامبراطور : أهكذا لم أكد استردها حتى فقدتها ثانية ؟ **(يسمع صيحات الاوز البرى)** لكأنها صيحات الضالين ، بين الشمال والجنوب ، صيحة الشجاعة التى لا تقهر والحب الذى لا ينطفىء !٠٠ صيحة الأميرة التى فقدتها الى الأبد ، الى الأبد !

٠٠ وكأنما جوابا على هذه الرؤيا الحزينة ، يدخل على الامبراطور رسول يحمل اليه نبأ موت الأميرة !

« كان الامر كله من تدبير وزيرك السابق يامولاى ٠ وقد سلمه الخان الى أيدينا كى تنتقم منه ، وأرسل يعرض علينا السلام والصداقة الدائمين ، بين بلدينا ! »

الامبراطور : اذن فاقطعوا رأس الخائن ، وعلقوها فى صومعة الأميرة ٠٠ ان حياتى منذ الآن سوف تشوبها الاحلام الحزينة وتطاردها الأشباح ٠٠ وأوراق الخريف تتساقط حول رأسى ، فان غرام شبابى قد مات !٠٠ **غرام شبابى قد مات ٠٠ لكن ذكرى تضحيتها النبيلة لن تموت !٠٠ فليبق القبر الذى يضم تراب جسدها الفانى مزدهرا بالخضرة ٠٠ على الدوام !**

حدث ذات يوم



من قصص التاريخ ومآسيه

عزيزى القارىء :

فى هذا الباب ، قرأت معى فى الاعداد السابقة ، القصص الآتية على التوالى :

فضيحة « كارولين » ملكة انجلترا
عشيقة نابليون (مارى فالفسكا)
امرأة وملك (مدام دى مانتون)
« تيبريوس » قيصر روما
الحب أقوى من الموت
لوكريشيا بورجيا
نيرون : الطاغية السفاح
ليدى هاملتون
مارى انطوانيت
مصرع القيصرية فى روسيا
بولين بونابرت : ملكة الغواية
مأساة ملك بافاريا
الحب والجريمة تحت سماء فلورنسا
غرام الاميرة اليزابيث تيودور
ديزيريه : خطيبة نابليون
أوليمبيا : والدة الاسكندر
بيرنيس : ملكة فلسطين
تيودورا : الراقصة الامبراطورة
« سانوهى » أو (المصرى)
كريستين : ملكة السويد
رمسيس الثانى

واليوم ، أقدم لك حياة الملكة العاشقة التى قتلت زوجها !



الملكة العاشقة التى قتلت زوجها!

ماري ستيوارت

قصة حياتها الدامية .. ونهايتها المفجعة!

طفولة كئيبة

◆ **عجزت** عن أن تلهو وتلعب فى طفولتها ، فاستعاضت عما فاتها باللعب واللهو فى سن النضوج الكامل .. وكان ذلك أقوى عامل أدى الى انهيارها !

هى ابنة الملك جيمس الخامس ، فقدت أباها فى ذات اليوم الذى ولدت فيه !.. وفى اليوم السادس من عمرها صارت ملكة اسكتلندة !.. ومنذ البداية استخدمت كبيدق - أو كلب - فى لعبة « الشطرنج » السياسية لبلادها ! وكان اللاعبون الذين يحركون هذه الدمية الصغيرة الجميلة التى ماتزال فى القماط ، هم نبلاء اسكتلندة ، الذين قال فيهم سفير فرنسا يومئذ : « **ان المال والمصلحة الشخصية هما النفيران الوحيدان اللذان تستجيب هذه العصبة من الأنذال لندائهما !.. أما أن تحاول اعادتهم الى صوابهم بتذكيرهم بواجبهم نحو ملكتهم ، أو أن تحدثهم عن الشرف ، والعدالة ، والفضيلة .. فهذا أمر لا يغريهم بغير الضحك !** »

وبين أيدى هؤلاء النبلاء - قاطعى الطريق ! - قضت الملكة الطفلة شطرا من طفولتها بلا حول ولا طول ، فى جو من الهمس المريب ، ومؤامرات الاختطاف ، والرحلات الفجائية من قصر الى قصر !.. ففى بداية الأمر حاول جماعة منهم أن يبيعوها الى ملك انجلترا «هنرى الثامن» ، كى تصير عروسا لابنه ادوارد.. بينما سعى فريق آخر لبيعها الى هنرى الثانى ملك فرنسا كى تصير عروسا لابنه فرانسيس !.. لكن أمها أفلحت فى حمايتها من مؤامرة الفريقين بأن خبأتها فى قصر (ستيرلنج) .. **فنفد صبر الملك الانجليزى ، الذى كان قد دفع الثمن وأصر على استلام « البضاعة »** ، **لاحبا فى مارى نفسها بل طمعا فى ضم**

اسكتلندة الى التاج البريطانى !٠٠ فلما لم تصل الملكة الطفلة أرسل جيشه فغزا بلادها وقتل عشرة آلاف رجل فى معركة (بينكي) !٠٠ ولم تكن مارى قد أكملت الخامسة من عمرها حين تلقى وطنها هذه الطعنة « الأولى » الدامية ، من أجلها !

وعلى اثر ذلك نقلت الملكة الصغيرة اللاجئة فى رحلة سرية الى جزيرة تتوسط بحيرة (مونتيث) ، وكان قد جاء دور فرنسا فى ارسال قوة استكشافية تبحث عن مارى ٠٠ وفى هذه المرة سلمت أمها الغنيمة الغالية الى شاريها ، فنقلت الملكة الصبية - وكانت فى الشهر الثامن من عامها السادس - الى ميناء (بريست) يوم ٧ أغسطس سنة ١٥٤٨ ، كى تزوج من وارث العرش الفرنسى ٠ وكان عريسها ما يزال فى الرابعة والنصف من عمره !

زواج تعس !

◆ **واستقبلها** القوم بأبهة الملك الكاملة ، وأعطوها كل ما أرادت من مطالب أو أمنيات - عدا فرصة اللهو واللعب ، شأن غيرها من « الأطفال » ! - ثم لقنوها الاغريقية واللاتينية ، وعلموها كيف تنظم الشعر ، ودربوها على فن ادخال السرور على قلوب الآخرين - لا فن تلقى المسرة من الآخرين ! - وكتب رئيس أساقفة (اللورين) الى أمها خطابا قال فيه : « ان ابنتك مثالية وممتازة فى كل شىء ، بحيث لا توجد لها مثيلة فى كل المملكة ! »

وكان صادقا ٠٠ ففى فرنسا بأسرها لم تكن توجد مخلوقة أخرى فى مثل « تعاسة » هذه الصبية المراهقة التى لم تكن يوما طفلة !٠٠ هذه الملكة التى حرمت من متعة تستمتع بها بنات الفلاحين ، هى متعة اللهو الحر البرىء فى طفولتها وصباها ٠ **وحين كبرت ، أنكروا عليها حتى متعة الحياة الزوجية السلمية من الشوائب ، فان زوجها وارث عرش فرنسا كان فتى مريضا لم**

يستطع يوما أن يهبها حبه الكامل ، فعاشت متخمة بالمجد ، كملكة لفرنسا وملكة لاسكتلندة فى آن واحد ، لكنها قاست ظمأ الحرمان من شتى متع الزواج السعيد !

وانقضت سنوات وهى تسهر على راحة المريض وعلاجه كلما داهمته نوبة الحمى المتقطعة ، وأخيرا أسلمته ذات يوم الى الراحة الكاملة وارتدت ثياب الحداد !

وطبقا لتقاليد البلاط الملكى فى فرنسا وقتئذ بقيت محتجبة فى جناحها بالقصر أربعين يوما ، مغلقة نوافذه فى وجه اشعة الشمس ، حتى لقد صار مخدعها المضاء بالشموع ليل نهار أشبه بالقبـــو !

وحين انتهت فترة الحداد ، انسلت من ظلمة قبرها عائدة الى ضباب وطنها اسكتلندة ٠٠ وكانت الآن ـ بحكم التجارب التى مرت بها ـ « عجوزا » فى الثامنة عشرة !

تشبع ظمأها الى الحب !

◆ لكن العجوز عادت فتفتحت أكمامها كزهرة فى ربيع العمر ، فقد وجدت دمية مغرية تلهو وتلعب بها ، هى جسدها الدافىء الجميل ! لقد آن لهـا أن تعوض ما فاتها فى الماضى وتنتقم لطفولتها الكئيبة ، بالسعى لا الى السلطان والمجد فحسب ، بل والى اشباع ظمئها الى الحب والعواطف الحارة ، عن طريق زيجة مناسبة هذه المرة ، برجل ذى قوة ومكانة ٠٠ نبيل من سلالة ملكية ترنو أطماعه الى عرش انجلترا ٠٠ فقد أرادت مارى « ملكة اسكتلندة » أن تصبح « ملكة انجلترا » أيضا ، ولم لا ؟ ان « اليزابيث » صاحبة العرش المجاور ليست فى رأيها سوى دخيلة متطفلة ، تنحدر من أم سليطة فاجرة هى (آن بولين) ٠ واذن فهى ـ مارى ـ أحق منها بعرشها ٠٠ فضلا عن أنهـا سوف « تطعم » دمها الملكى الأصيل بدم فى مثل نقائه واصالته ، يسرى فى عروق رجل خلق للحب والمرح ، زوج يصلح لأن يكون ملكا ٠٠ وبعـدئذ يتعاون الاثنان على طرد الملكة الزائفة وانتزاع عرشها منها ، ثم يحكمان الجزر البريطـانية بأكملها !

ولكن ترى هل يوجد الزوج الذى تتوافر فيه هذه الصفات والمؤهلات ؟ نعم ، انه « هنرى دارنلى » ، ابن « الايرل أوف لينوكس » ، ويبلغ من العمر تسعة عشر عاما ٠ وهو ـ مثلها ـ من أحفاد الملك هنرى السابع ، ويمتاز

بجرأة فى منادمة الملوك والأمراء ، علاوة على أنه (على حد تعبير مارى ذاتها) : جميل الشعر ، حليق اللحية ، ماجن فكه ، ولا يصبر على حقوقه ٠٠ بل انه أجمل الشبان طويلى القامة ، وأكثرهم تناسبا فى جسمه »

وتزوجت مارى من « دارنلى » المذكور ، وبذلك اكتسبت لنفسها دمية جديدة مؤقتة تلهو بها ، وعدوين دائمين خطرين ، هما : جارتها الملكة اليزابيث ٠٠ وشقيقها غير الشرعى « جيمس ستيوارت »

كانت اليزابيث ابنة عم مارى ، تنحدر مثلها من سلالة هنرى السابع عن طريق أبيها ، لكنها كانت نقيضتها فى عدة أمور : كانت مارى مغامرة مندفعة ، وخيالية حالمة ، ومقامرة جريئة حادة العاطفة ٠٠ أو على حد تعبير البابا ذات مرة : « جسم امرأة وروح رجل » !٠٠ أما غريمتها اليزابيث تيودور ، فانها كانت سياسية حكيمة ، وواقعية متزنة ، تسعى الى فريستها سعيا مبنيا على تقدير سليم ٠٠ أو بعبارة أخرى « جسم رجل ، وروح نمرة ! »

لكنهما كانتا تتشابهان في شيء مشترك : ان كلاهما عاشت من أجل هدف واحد ، هو أن تزيح الأخرى عن طريقها !٠٠ ورغم ذلك فان كلا منهما حرصت فى رسائلها الى الأخرى على أن تغمر غريمتها بعبارات الحب والمودة ، وتخاطبها بقولها : « يا أختى العزيزة » ٠٠ و « يا ابنة العم المحبوبة » ٠٠ و « كم يسعدنى أن أراك سعيدة » ٠٠ الخ

أخوها يتآمر ضدها !

◆ وطبقا لهذه الخطة كانت اليزابيث من أولى من هنأن مارى بزواجها من اللورد دارنلى ، فى الوقت الذى أرسلت فيه ـ سرا ـ شقيق غريمتها غير الشرعى جيمس ستيوارت ، أو ايرل أوف موراى ، كى يبث الفتن ويثير القلاقل فى اسكتلندة ، بغية الخلاص من مارى بأية وسيلة ، ولو بموتها !٠٠ وكان جيمس يحقد على أخته بسبب ظفرها بالعرش دونه ، وزاد من حقده زواجها من اللورد دارنلى ، الذى أبعد العرش عن قبضته أكثر فأكثر ٠٠ وهكذا رحب بالمهمة التى عهدت بها اليه اليزابيث ، وسارع فوضع نفسه على رأس الوفد الذى انتدب لمحاربة أخته سرا ، ممنيا نفسه فى حالة نجاحه فى التخلص من مارى بأن يدبر بعد ذلك خطة مماثلة للتخلص من اليزابيث بدورها ، والانفراد دون الاثنتين بحكم انجلترا !٠٠ وهكذا لبث كل من الثلاثة يدبر خطته فى الخفاء ، ويحفر الحفر لأخته أو أخيه !

وفى شبكة هذا « العنكبوت » الثلاثى للكراهية المتبادلة ، كانت الملكة مارى هى المظلومة ، من حيث فرص النجاح التى هيأتها الظروف لها ٠٠ فان عرشها كان دائما مزعزع الأركان ، غير آمن الجانب ٠ كان أشبه بجزيرة « كاثوليكية » وسط بحر « بروتستنتى » هائج ! وكان وصولها الى اسكتلندة

عند عودتها من فرنسا قد قوبل من الشعب مقابلة غير ودية ، بل مقابلة جافة .. كان كل الذين خفوا الى استقبالها فى ميناء (ليث) نفرا ضئيلا من الصيادين والفلاحين ،وحين وصلت الى أدنبرة ـ العاصمة ـ كانت من أولى تجاربها البغيضة فيها الحملة التى شنها عليها الكاهن ذو الطبع النارى « جون نوكس » ، زعيم حزب الاصلاح فى اسكتلندة . فطبقا لآراء نوكس كان ثمة سبيلان فقط للحياة : سبيله هو وسبيل الشيطان ! كان يعتبر نفسه المعبر الأوحد عن ارادة الله على الأرض ، والويل لمن يرفضون الانصياع لمقتضيات هذا الاعتبار !.. فلو نبذت مارى الكنيسة الكاثوليكية ـ التى كان نوكس يسميها « مجمع الأبالسة » ـ لوفرت على نفسها الكثير من المتاعب . لكنها برغم طيشها كانت جريئة فى التمسك بعقائدها الكاثوليكية ، فأبت أن تتزحزح عن موقفها قيد أنملة !

على أن صلابة ايمانها كانت مقرونة باستهتار طائش بالعرف والتقاليد ، فكان فى مسلكها تناقض صارخ ، دعا البعض الى أن يطلقوا عليها : « مارى ذات العقل السماوى والقلب الأرضى ، أو الدنيوى ! » .. وقد أمدت أعداءها بفرص كثيرة وأسلحة عديدة يهاجمونها بها . كانت تلهو بخاطبى ودها كما تلهو الصبية بالدمى واللعب التى تملكها !.. فاقترن اسمها فى البداية بشاعر فرنسى يدعى « شاستلار » ، لم يلبث أن ضبط مختبئا فى مخدعها !.. ثم تلاه سكرتيرها الايطالى « ريزيو » ـ وكلاهما دفع حياته ثمنا لجرأته ! ـ وفى كلا المرتين زعمت مارى أنها بريئة ، برغم الظواهر المضادة لزعمها .. لكن أحدا لم يؤمن ببراءتها ، وفى مقدمة الجميع اليزابيث وجيمس .. وهكذا بدأت الحلقة تضيق حولها شيئا فشيئا !

ورغم ذلك فانها استهترت بسمعتها ومضت فى غيها ، وبين الغى والجريمة الجدية خطوة واحدة !.. وكانت مارى قد ملت زوجها ، وخاب أملها فيه ، فلم تجد فيه المعين الذى يشد أزرها فى كفاحها من أجل عرش انجلترا .. لقد توسمت فيه أن يكون محاربا ، فاذا هو يتكشف عن « غندور » متانق !

لكن اسكتلندة لم تكن تعدم الرجل المحارب ، والعاشق فى آن واحد !.. الرجل الذى يجمع بين الجرأة فى الحرب والجرأة فى الحب !.. انه يدعى « جيمس هيبورن » ، أو « ايرل أوف بوثويل » . انه جندى قوى الشكيمة ، ومغامر ليس أحد من سيفه غير لسانه !.. فياله من رجل يصلح لأن يكون شريكا للملكة فى حياتها !

ولكن دون هذه الشركة الزوجية كانت ثمة عقبتان : زوج مارى .. وزوجة بوثويل !

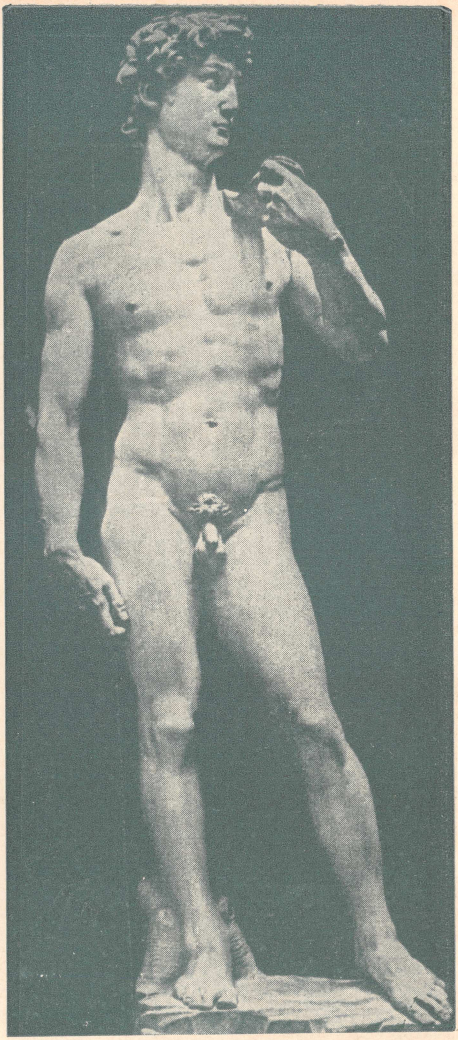
أما زوجة بوثويل فقد كان الايرل مستعدا لأن يطلقها !.. وأما زوج مارى فقد كان الايرل نفسه مستعدا لأن يقتله .. كى يخلفه !

وقد قتله فعلا ، بموافقة مارى .. بل بمعاونتها واشتراكها !



العبد فى الأغـــلال !

تمثال من بدائع فن « ميكيل انجلو » ،
يعرض بمتحف « اللوفر » بباريس



العملاق ! التمثال المشهور الذى نحته ميكيل انجلو للنبى « داود » وهو يتأهب لاطلاق مقلاعه على « جوليات الجبار » . ويعتبر التمثال من أشهر معالم مدينة فلورنسا

الجريمـــة المروعة !

• كان « الملك » غير المرغوب فيه قد تبين نفور الملكة المتزايد منه وبغضها المتضاعف له ، فأوى الى قصر منعزل فى جلاسجو ، حيث عاش مع أبيـــه « ايرل أوف لينوكس » فى حراسة حامية من الخدم والحراس ٠٠ فـكيف الوصول اليه فى قلعته الحصينة ، واستدراجه الى موعد خاص مع الموت ؟

تآمرت مارى وبوثويل معا فوضعا خطة عملية « جهنمية » !٠٠ كان صاحبنا يقضى فترة النقاهة من اصابة خطيرة بمرض الجدرى ، فذهبت مارى ـ بدافع من العطف المفاجىء ـ تزور زوجها « المسكين المهمل المحبوب ! » ٠٠ وربتت بأناملها الرقيقة على جبينه ، وهمست بكلماتها المعسولة فى أذنه : « لم تبقى فى هذه القلعة الموحشة الكئيبة ، ذات الجدران الرطبة والهواء المكتوم ؟ دعنى آخذك الى دار هادئة فى أدنبرة ، حيث استطيع ان أتردد عليك كثيرا وأسهر على تمريضك حتى تسترد صحك !٠٠ »

واقتنع دارنلى بـكلامهما ، وسمح بأن يحملوه ، وهو ما يزال مريضا ، الى تلك الدار الهادئة فى أدنبرة ! ـ وكانت تقع فى بقعة منعزلة عن كل جوار ، وسط واد يطلقون عليه « وادى اللصوص » ! ـ وهنالك تطلع المريض الشاب، الذى كان وجهه مايزال يحمل بثور الجدرى ، وان بدت عيناه أجمل ماتكونان ضحكا ومرحا ، تطلع الى شهر عسل ثان مع المرأة التى ما يزال يكن لها أعنف الحب وأخلصه ٠٠ وفى خلوة معها ، رجاها أن تقطع له شريحة اللحم التى جاءوه بها ضمن طعامه ٠٠ ثم تعلق بها وقد أعماه الشوق عن أن يلحظ ارتعاشـــة الاجفال التى اختلجت بها شفتاها وهى تقبله ٠٠ قبلة يهوذا !



وتوسل اليها ان تقضى الليلة معه، لكنها اعتـــذرت بأمر هام من أمور الدولة يقتضى وجـودها فى القصر فى نفس الليلة ! ٠٠ وفى ساعة متأخرة من الليل ، ليل الاحد ٩ فبراير سنة ١٦٦٧ ، عادت الملكة من حضور حفل زواج اثنين من خدامهـــا المخلصين ـ وكان بوثويل بدوره ضمن الحاضرين ـ وبعد أن استغرقت مارى فى النعاس ، دق الباب طارق ملح ٠٠من الطارق؟٠٠ الملكة لايمكن ازعاجها الآن ، فلقـــد تعبت من الرقص !

لكن الطارق يلح فى الطرق : « عندى أنباء هامة عاجلة ! » .. وتوقظ الملكة .. وتتلقى الأنباء : أن زوجها الملك « هنرى دارنلى » ، قد توفى على اثر نسف الدار « الهادئة » التى يقيم فيها .. والفعلة مجهولون !

الهزيمة .. والفرار الى المنفى !

• واقتربت مارى ستيوارت خطوة أخرى من قمة أطماعها : لقد صار لها زوج - بوثويل - يشاطرها جرأتها .. وابن - من هنرى دارنلى - يرث عرشها .. لم تبق غير خطوة واحدة أخرى وتتحقق كل أحلامها : التخلص من .. اليزابيث !

وانها لمهمة يسيرة فيما تحسب . ان بوثويل أكفأ محارب فى الجزر البريطانية غير منازع .. وجنود جيشه من « قاطعى الرقاب » لايرهبون وحشا ولا انسانا ولا شيطانا ! وكان بعضهم قد تقدم الى السلطات ببلاغ يتهم فيه بوثويل بالاشتراك في قتل دارنلي ، فتوجه« المتهم » الجسور الىقاعة المحاكمة فى شبه مظاهرة مؤلفة من أربعة آلاف من الرجال المسلحين ، الأمر الذى أرهب القضاة فحكموا « ببراءته من أية مظنة تتصل بالاشتراك فى نسف الملك ! » فخرج شاهرا سيفه في وجوه الناس ، وراح ينهب شوارع المدينة متحديا كل من تسول له نفسه أن يتهمه ! .. ويومئذ قالت مارى وقلبها مفعم بالغبطة : « بقيادة رجل كهذا سوف يكتسح جنودنا كل من يعترضهم!»

ولكن حين وقعتالا زمة ، أظهر جنودها جعجعةأكثر مما أظهروا طحنا !.. صاحوا بالعدو ، وهددوه بالويل والثبور ، وعظائم الأمور ! .. فلما التقوا به « ذابوا وتبخروا كضباب الصباح ! » .. فقبل بوثويل زوجته الملكة مودعا على عجل - وكانت قد خفت الى الميدان لتشهد المعركة عن كثب - ثم امتطى جواده ولاذ بالفرار .. الى المنفى !

وجعل ثمن لرأسه ، حيا أو ميتا ! .. فأبحر الى « النرويج » فى قارب صغير ، نجا من الغرق بمعجزة ! .. ثم جازف بالذهاب الى الدنمرك ، حيث غرر بفتاة بريئة .. واخيرا وقع فى أيدىالسلطات الرسمية فى (كوبنهاجن) .. وبعد عشر سنوات من الحبس الانفرادى ، مات مجنونا !

تلك كانت نهاية فارس « مارى ستيوارت » الثالث ، الذى خلفها وحيدة مع ضميرها ، فريسة تعسة لمطاردة حامية من جانب عدويها اللدودين : اليزابيث .. وجيمس ، الشقيق الغادر !

ولم يلبث الاخير ان بدد البقية الباقية من حلمها الامبراطورى فأجبرها - بموافقة اليزابيث - على التنازل عن العرش لابنها الصغير جيمس .. ونصب الخال نفسه وصيا على الملك الصبى ، وجعل يترقب الفرصة المناسبة كى يتبوأ العرش مكانه !

لكن حلمه ، هو الآخر ، تبدد على حين غرة .. فبعد سنوات من التآمر ، وتدبير المكائد ، والولوغ فى دماء ضحاياه ، تلقى أخيرا جزاءه العادل عن جرائمه : ميتة عنيفة خطتها يد الاقدار ! .

الصراع الرهيب بين الملكتين !

◆ وهكذا بقيت الغريمتان المتصارعتان تواجهـــان كلتاهما الأخرى فى المهزلة المفجعة للمطامع الاشعبية .. وراحت اليزابيث تلهو بابنة عمهـــا الاسكتلندية كما يلهو القط بالفار .. وكم امتعها أن تسقيها كأس انتقامها فى جرعات صغيرة ، وهى تمط شفتيها وتبتسم لعذاب ضحيتها !

.. فقد ورثت القاسية خبث أبيها ـ هنرى الثامن ـ وطبيعته الغادرة ، التى أغرته بأن يقتل الكثيرات من زوجاته ! .. ونشأت اليزابيث تعتقد أن الانسانية تتألف من بليون من الاصفار على رأسها رقم واحد صحيح هو : هى! .. ومن ثم راقها أن تأخذ حظها الكامل من اللهو بأحدى هؤلاء الاصفار ـ مارى ستيوارت ـ قبل أن تمحوها من الوجود محوا !

وتنفيذا لهذه الخطة أهدتها أول الأمر خاتمها الملكى « رمزا للصداقة من ملكة محظوظة الى شقيقة لها .. فى محنة ! » .. ثم اتخذت فى انتقامها خطوة أكثر جرأة وقسوة ، بغية اطالة « المحنة » التى تعانيها « شقيقتها » ، فوسطت من رشا نبلاء اسكتلندة الذين انتهت اليهم مقاليـــد الأمور ، كى يزجوا بمارى فى سجن قصر (لوخليفن) .. وحرصت على أن تتم الرشوة على يد وسيط ، كى لاتعلم يمينها ماتفعل يسارها !

وأخيرا ، حين تمكنت مارى من الفرار من سجنها ، دعتها اليزابيث الى بلادها ، مخاطبـــة اياها كما يخاطب العنـكبوت الذبابة : « هلا لجأت الى رحابى ؟ .. ان خاتمى الذى يحـــلى اصبعك سوف يـكفل لك الامان دائما داخل بلادى .. وسوف تجدين فى : جارة طيبة ، وشقيقة عزيزة ، وصديقة مخلصة ! »



وبعد متاعب وعقبات وصـــلت اللاجئة الى الشـــاطىء الانجليزى : « لقد قاسيت مرارة الجوع ، والبرد والحر ، والاسر ، والجروح ، والفـــرار على غير هدى أميالا طويلة على ظهـــر جواد ، دون ما راحة ولو لدقيقة واحدة .. ثم استلقيت على أرض الطـــريق الصلبة ثلاث ليال ، لاشراب لى غير لبن الوعول التى تعمر القفر ، ولاغذاء لى سوى طحين الشوفان ! »

واخيرا .. فى يوم ١٦ مايو سنة ١٥٦٨ وضعت الملكة المنفية قدمها على الساحل الانجليزى ، فاذا جارتها وشقيقتها وصديقتها الوفية اليزابيث تستقبلها .. لاكضيفتها ، بل كسجينتها ! .. ثم أبت أن تلقاها وجها لوجه، وأعدة بأن تحافظ على سلامتها من كل أذى ! وكعادتها مزجت جرعة الاسر المرة بقليل من السكر الزائف فكتبت الى سجينتها تقول : « أعدك وعد ملكة أن مامن اغراء أو نصيحة من أحد سوف تؤثر على كى انقلك الى مكان يعرض حياتك أو شرفك للخطر ! »

١٩ سنة فى السجن !

• **وفى** غياهب السجن احتفظت اليزابيث بابنة عمها مارى تسعة عشر عاما ! .. ناقلة آياها من سجن الى سجن كافلة لها ابرع الاطباء كلما أصابها مرض ، مشجعة آياها حين تسترد صحتها على الخروج للصيد والقنص .. ودائما كانت تحيط بجوادها كوكبة من الفرسان السجانين أطلق عليهم « حرس الشرف » ، فكانوا يشيعونها بالتحيات ويسمحون لها بكل حرية عدا واحدة : الحرية !

لكن السجانة ضاقت آخر الامر ذرعا بسجينتها ، وقررت أن تتخلص منها خلاصا نهائيا ! .. وكان الدافع المباشر الذى بدأ الازمة حادث غاية فى التفاهة : فقد تلقت اليزابيث تقريرا من « الكونتة شروسبيرى » - الزوجة الشريرة لآخر حراس الملكة السجينة - تحدثت فيه كاتبته عن علاقات السجينة الغرامية مع زوجها « ايرل أوف شروسبيرى » !

.. فلما بلغ النبأ مسامع مارى بادرت الى كتابة خطاب الى اليزابيث نفت فيه التهمة عن نفسها فى خيلاء وترفع . وانتهزت الفرصة فصبت جام غضبها وحقدها ، لا على رأس الكونتة الواشية فحسب ، بل وعلى رأس الملكة الباغية بدورها ! .. فقد عددت معايب غريمتها ، واخطاءها ، ونقائصها ، فى قائمة طويلة وافية شافية ، وان حرصت على أن تصوغ حملتها فى قالب مقنع فتزعم أنها قصدت بها أن تكون

تحذيرا وديا من « صديقة » تبغى الارشاد والنصح ! ..
وتحت ستـــار هذا الزعم نقلت مارى عن لسان الكونتـــة شروســبيرى انها نسبت للملـــكة اليزابيث قائمة حافلة بالتهم : منها انها أمرت يوما بقطع يد ساقيها لأنه أظهـــر « لخمة » وارتباكا أثناء تقديم الطعام والشراب لها ! .. ومنها انها تتهالك على الملذات غير المشروعة ، بدافع من انزعاجها بسبب شيخوختها الباكرة .. ومنها أن فى ساقها قرحـــة خبيثة ـ وهى اشارة توحى بأنها قد ورثت عن أبيها مرض الزهرى **ومنها أخيرا ، وهى أقسى طعنة فى القائمة ، انهـــا « ليست مثل سائر النساء ! »** . **وكانت اليزابيث تعتقد أن أحدا سواها لايعرف سرها الرهيب ، سر شـذوذها الجثمانى الذى يحـــرمها من المتعة الطبيعية التى تعـــرفها كل امرأة صحيحة البدن !** .. ولـــكن هاهى ألد عدواتهـــا تقذف فى وجهها بالحقيقة الرهيبة !

الشرك !

◆ **ومنذ** تلك اللحظة ، لم يعـــد الصراع بين الغـــريمتين صراع لهو بين قطة وفأرة .. بل تحتم أن ينتهى العداء بينهما على وجه السرعة نهاية حاسمة . وتنفيذا لهذه الغاية وضعت اليزابيث خطة جهنميـــــة خليقة بأن تنسب الى الداهيـــة مكيافيللى ! : دبرت مؤامرة صورية على حياتها هى ، وساقت مارى ـ عن طريق الوسطاء كالعادة ـ الى تزعم هذه المؤامرة !

ووقعت مارى فى الشرك .. لم يـــكد يبلغها نبأ مؤامرة تدبر لقتل اليزابيث وتنصيبها هى على عرش انجلترا مكانها ، حتى انزلقت الى الفخ بقدمها ورحبت بالخنجر المقدم لها والمعد للقضاء عليها هى !

وكانت أداة التآمر « برميل بيرة » كان يرسل كل أسبوع الى السجن ، من أجل الحراس والجنـــود ، ومن ثم وضـــع

جواسيس اليزابيث فى تجويف سدادته المصنوعة من الفلين رسالة حسبتها السجينة صادرة من أعوانها الموهومين ٠٠ **وكان ذلك أول الخيط ، فقد انتظمت بين الطرفين بعد ذلك سلسلة من المراسلات الخطيرة التى تضمنت تفصيلات المؤامرة المعدة للقضاء على اليزابيث ٠٠ وغنى عن البيان أن تلك المراسلات جميعها قد وقعت فى يد مفتعلتها : اليزابيث !**

وكان الحماس الذى الهبته المؤامرة فى دماء السجينة التى توشك أحلامها الضخمة أن تتحقق ، قد أغراها بأن تتورط فى سرد مشروعاتها المقبلة التى سوف تنفذها فورا بمجرد فرارها من السجن : انها ستعود الى اسكتلندة بغير ابطاء ، وهناك تجمع شمل قواتها المبعثرة وجيوشها القديمة ثم تغزو بها انجلترا ، بمساعدة فرقة من الجنود سوف يرسلها اليها ملك أسبانيا ، الذى ستكافئه بدورها بأن تهبه تاج العرش الاسكتلندى أثناء حياتها ، ثم حق وراثة تاج انجلترا ذاته بعد وفاتها !

واغتبطت اليزابيث بتقدم المؤامرة المدبرة خطوة بعد خطوة ٠٠ ولم يبق لبلوغها غايتها غير الحصول على مستند بخط مارى تصرح فيه باعتزامها قتل غريمتها بعد انتصارها عليها ! ٠٠ وفى سبيل هذا الهدف راح زبانية اليزابيث يستثيرونها ويستحثونها على الوقوع فى الشرك ٠٠ حتى تحقق لهم ماأرادوا وكتبت مارى الرسالة المنشودة ، توافق فيها على اعدام اليزابيث « مغتصبة » عرش انجلترا!

وحين تمت الخطة المرسومة ، وافتضح أمرها للضحية التعسة ، طالبت مارى بأمنية واحدة : أن تعد لها ميتة لائقة فى موكب عظيم ! فان خيلاء الدم الازرق لم تفارقها حتى فى ظلال القبر !

وكانت الميتة لائقة ، لا بمارى فحسب ، بل باليزابيث نفسها .. فقد مشت « مارى ستيوارت » الى الجلاد ، تختال فى أبهى حللها !

ولم تمانع اليزابيث فى اجابتها الى طلبها .. فانه لم يكن بالأمر الهين أن تنتصر على امرأة مثل .. « مارى ستيوارت » !

عندما يجتمع :

ســــــوفوكليس

وأندريه جيـــــــد

وطـــه حســـــين

و«مطبوعات كتابى»

فى كتاب واحد .. تكون النتيجة

تحفة لم يسبق لها نظير فى عالم

المطبوعات العربية



« اندريه جيد »

ترقبها فى ١٣ ديسمبر الحالى .. لتقرأ فيها أروع نموذج من الأدب اليونانى القديم ، الذى يعد بمثابة المشعل الذى أضاء الطريق ورسم النبراس لأدباء العالم فى جميع العصور ، منذ ذلك التاريخ الى اليوم .. فما نبغ أديب الا وكان قد استمد زاده الفكرى من أدب اليونان .. وما تثقف قارىء الا وكان أدب اليونان هو الخميرة الأولى لثقافته .. وسوف تقرأ فى المقدمة الطويلة الممتعة التى صدر بها الدكتور طه حسين ترجمته لقصص « أوديب » الثلاث التى سيصدر بها العدد الجديد من مطبوعات « كتابى » ، كيف كانت قصة « أوديب » هى الموضوع الخالد الذى كتب فيه كل أديب عالمى الأفق جاء بعد سوفوكليس : كتب فيه فولتير ، وكورنى ، وعشرات غيرهم .. لكن أحدا لم يبلغ فى قصته عنه ، ذلك المستوى الذى بلغه « سوفوكليس » فى الآداب القديمة ، و « أندريه جيد » فى الآداب الحديثة .. لذلك اختارت « مطبوعات كتابى » أن تجمع لك فى كتاب واحد ، زهيد الثمن ، أعظم ثلاث قصص كتبت عن « أوديب » فى جميع العصور ، وهى : « أوديب ملكا » ، وتكملتها « أوديب فى كولونا » (وكلاهما لسوفوكليس) ، ثم «أوديب» الحديثة ، لأندريه جيد .. واعتزمت أن تقدم لك القصص الثلاث مترجمة بأقدر قلم فى العربية يستطيع ان يترجم عن سوفوكليس واندريه جيد ، وهو قلم :

طـه حسـين

..والى اللقاء على صفحات «أوديب» فى ١٣ديسمبر الحالى



مدرسة الوالدين

للباحثة الفرنسية
الدكتورة سوزان برونيه

فتياتنا.. المراهقات!

تلخيص : كليم ابو سيف

فتياتكم المراهقات ٠٠ فى حاجة الى رعايتكم !

◆ قدمت لك فى العدد السابق من « كتابى » ، الجزء الأول من البحث الذى ألقته الباحثة الفرنسية الدكتورة « سوزان برونيه » ، فى سلسلة المحاضرات التى نظمتها « مدرســـة الوالدين » بجامعة باريس ، وتناولت فيه مرحلة المراهقة عند الفتيـات ، فتحدثت عن أحلام المراهقات ، وأشارت الى الفروق بين فتاة اليوم وفتاة الأمس ، وحذرت الآباء من اظهار أى شعور ينم عن سخريتهم ببناتهم ، فى تلك المرحلة المضطربة من حياتهن !

فاذا رأيت ابنتك وقد بدأت تميل الى العزلة والانطواء على نفسها ، وقد أضحت متيقظة الى انفعالات جديدة تسرى فى كيانها ، فاعلم انها على أبواب تلك المرحلة الدقيقة ، وانها فى حاجة الى رعايتك الدائبة لها ٠٠

والبحث الذى أقدم لك الجزء الثانى منه اليوم ، يرشدك الى السبيل ٠٠ وينير أمامك الطريق !

نشوء فـكرة الاستقلال عند الفتاة !

◆ من المؤكد أنه ليس من السهل أن نسمو بالفتاة الى مراتب الحب المثالى الذى يشيع الحياة والنشاط فى طاقتها البشرية كلها ، ولكن هذا هو السبيل الوحيد الذى يعيد اليها اتزانها ، ويفتح أكمام نفسها الى ما فى الحيـاة من سمو ونبل

ولما كانت الفتاة متأهبة للتحول الكبير الذى طرأ عليها ، وواعية له تماما ، فان هذا يدفعها الى الرغبة فى الانفراد باتخاذ قرارات مستقلة ، لأنها تشعر بأنها لم تعد طفـلة الأمس ، بل فتاة اليوم ! ٠٠ ومن هنـــا كان تمردها ، وعصيانها ، ولجاجتها فى مناقشة والديها فيما يصدرانه اليها من أوامر ٠٠ فهى تقول لا لتظهر بمظهر صاحبة الرأى المستقل !

ولنضرب لذلك مثلا : فهذه « فرنسواز » مشغولة باعداد حقيبة الكتب ، بعد أن انتهت العطلة المدرســـية وفتحت المدرسة أبوابها ٠٠ ووقفت الأم لتراقبها ، فاذا بها تلاحظ أنها تحشو الحقيبة بأشياء تافهة لاتمت الى دروسها بصلة ، بينما تهمل وضع كتبها وأدواتها اللازمة فى الحقيبة !

وتغلق « فرانسواز » الحقيبة ٠٠ وهنا تتدخل الأم لتفهمها بأنها تركت كتبها وأدواتها المدرسية المهمة خارج الحقيبة التى حولتها الى سلة من المهملات ٠٠ فعليها أن تعيد فتحها وترتيبها من جديد !

٠٠ ولكن فرنسواز تجيبها بقولها : « اننى أعرف جيدا مايلزمنى ومالا يلزمنى ! »

والواقع ، أن الذى تريده « فرنسواز » هو أن تأتى غير الذى تريده أمها ٠٠ لماذا ؟ ٠٠ انك لو سألتها لما عرفت لذلك سببا بالضبط ٠٠ انما هى تستشعر



رغبة ملحة فى التصرف بمفردها ، مستقلة بآرائها ! ‥ وهى تحس بأن فى ارغامها على عمل شىء لاتريده ، حدا من حريتها ٠ فكم من مرة تسمعها تخاطبك بقولها : « اننى حرة أفعل ما أريد ! » ‥ فاذا اردت ان تفهمها بأن فى رفضها اتباع قواعد معينة للسلوك ، مايعرضها للسخرية ، ويثير حولها الشائعات والاقاويل ، أصمت أذنيها ، وأبت الاصغاء الى أى نصح أو ارشاد !

فلماذا نتخلى عنها ونتركها لنزواتها ؟ ‥ ولماذا نتنازل عن السلطات المخولة لنا عليها ؟ انا لوفعلنا ذلك لارتكبنا خطأ فاحشا بلا جدال ، وسوف نزيد من متاعبها لأنها ما زالت فى حاجة الى ارشاد ، نظرا لقصر ادراكها ‥

وهناك أساليب عديدة وطرق شتى للتفاهم معها ، دون استفزاز مقاومتها وثورتها ‥٠ فاذا رغبنا فى توجيه الأوامر اليها ، فما علينا سوى أن نخاطبها بلهجة « آمرة » جديدة ٠ فلهجة الأمر العنيفة التى كانت تتقبلها وهى طفلة ، والصياح والتهديد والجز على الأسنان ، كل هذا لم يعد يخيفها ، بل انه يزيدها اصرارا على العناد !‥ والذى ينبغى أن يتبع الآن هو الحزم فى غير خشونة ، والنصح المصوغ فى صوت قوى ، خال من الانفعال أو الغضب اللذين يبعثان على الخجل والاستخذاء

على اننا كثيرا مانسمع أما تقول غاضبة : « انها تثيرنى ! ثم كيف تريدون منى أن أخاطبها كما لو كانت أميرة صغيرة ؟! » ‥ هذه الأم الثائرة تنسى ان ابنتها تجتاز أقسى فترة فى حياتها ‥ثم نحن نسأل هذه الأم الشاكية : « اذا مرضت ابنتك وأمرك الطبيب بموالاتها بعلاج دقيق لتشفى وتسترد عافيتها ، فهل تضنين عليها بالملازمة والعلاج ، مهما يكلفك ذلك من مشقة وتضحيات ؟‥ فاذا كنت تفعلين ذلك راضية من أجل صحة ابنتك الجسمانية ، فكيف تضنين به عليها من أجل صحتها المعنوية ؟! » وفى الحياة العائلية ، لحظات مؤاتية يستطيع الآباء اقتناصها ليتبادلوا مع أبنائهم أحاديث قصيرة ، فى جو مشبع بالتفاهم والهدوء ، اللذين يساعدان مساعدة فعالة على اقناع الأبناء بوجهة نظر الآباء فى الأمور التى تكون موضع خلاف بينهما ٠ والمهم ، أن يتصرف الآباء من جانبهم تصرفات قائمة على خطط مدروسة وأسس حكيمة ، لا أثر فيها للشطط والجموح ‥

أتركوا لهن ٠٠ بعض الحرية !

◆ ومن الحكمة أن نترك للفتاة حيزا من الحرية تجرى فيه تجاربها الأولى فى تحمل المسئولية ٠ فالزجر المستمر ، والنصائح المتكررة فى كل ساعة من ساعات النهار ، ونقد كل حركة تصــــدر من الفتاة ، وكل مسلك تسلكه ، وكل كتاب تقرأه ، وطريقتها فى تصفيف شعرها وفى زينتها ٠٠٠ كل هذا من شأنه أن يستثير غضب الصغار ويستفزهم الى عدم الاحتفال بأية نصيحة أو الاصغاء الى أى توجيه !

وتميل الفتاة فىهذهالمرحلة ، الى المعارضة ٠٠ للمعارضة فقط ، ولكن هذا لايعدو أن يكون « وعكة » نفسية عابرة ،هى وليدة الأفكار الأولى التى تمر بذلك العقل الصغير الذى يحاول أن يشق طريقه الى الحياة العملية ٠ فهى اذا أبدت وجهة نظرها ، أصرت عليها بقوة ، اذ تعتقد أن آراءها كلهـــا جديدة ناضجة ٠٠ وهى تتمسك بها تمسك المخترع باكتشافه الأول ! ٠٠ ومن بواعث سرورها أن تشعر بأنها أصبحت قادرة على الحكم بنفسها على الحياة ، والحب ، والمجتمع ، وجميع المشاكل التى تشغل بال الرجال ٠ كما انها تقتنع كل الاقتناع بأن فى مقدورها أن تعرف كل شىء ، وأن حكمها على الأشياء يفوق حكم الكبار الذينتعتبرهم قد شاخوا، وباتوا متأخرينعن العصرالذى يعيشون فيه !

ومع ذلك ، فإن أفكارها تبدو متقلبـــة لاتثبت على حال ٠٠ فاذا حاولت اعتناق بعض الآراء ، تلقفت رأيا من هنا ورأيا من هناك ، دون أن تلقى بالا الى ما قد يكون فى تلك الآراء من تعارض أو تناقض ٠ فهى تؤيد هذا الرأى يوما ، وتؤيد رأيا يناقضه يوما آخر ٠ وهى تتطور اسبوعا بعد أسبوع ، وشـهرا بعد شهر ٠ وفى هذا تشبه أخاها المراهق ، فى التعبير عن الآراء بلهجة حاسمة قاطعة ، ضاربة عرض الحائط بالحقائق التى يتعذر عليها فهم كنهها !٠٠

وتهدف الفتاةالمراهقة الى أنتكون موضع اهتمامالآخرين ؟٠٠ولشدماتجزع اذا رأت نفسها كما مهملا لايؤبه له اذ ينبغى - فى ادراكهـا الصـغير وطبقا لمنطقها - ان يعجب الناس بثيابها ، وان تصوب نحوها الأعين وهى سائرةفى الطريق ، وكأنها تهتف لها قائلة : « كم أنت جميلة ٠٠ كم أنت جذابة ! »٠٠ وتتطلع الى صور احدى نجوم السينما ، فتحاول أن تجعل زينتها على غرار زينة تلك النجمة السينمائية ، فاذا احست بأنها لاتثير اهتمام احد والتفـاته ، غمرتها التعاسة وملأها القنوط !

٠٠ كانت « اندريه » معجبة بنفسها ، واثقة من ذكائها ، تتوهم أن ليس بين قريناتها من تدانيها دقة احساس ، وعمق مشاعر ، وسعة ادراك لحقائق الأمور ٠٠ وكانت هذهالأوهام تسحرها وتسعدها الىابعد حد ! ٠٠وبينماهى غارقة فى هذه النشوة ، اذا بها تقرأ مقالا عن المراهقة والمراهقين والمراهقات ، فتفاجأ بأن تعلم أن ما ينتابها ان هو الا شعور عام ، يستولى على جميع من فى سنها ، ومن يجتازون المرحلة التى تجتازها !

.. ويالها من خيبة أمل كبرى ، حين ترى نفسها كسائر الفتيات الأخريات ، لاتنفرد عنهن بامتياز خاص أو بذاتية مستقلة !

وتلك الرغبة في « التفرد والامتياز » تتضح بمظاهر شتى ، كالطريقة التى تصطنعها فى الكلام والحركات والايماءات ، وفى ملبسها وزينتها ، وتزجيج حاجبيها ،وتلميع أظافرها وصقلها . وكلما ازدادت شكا فى جمالها وجاذبيتها ، ازدادت عناية بنفسها وهيئتها . وتظـل على هذه الحـال ، حتى اذا لم تأت كل هذه المجهودات المضنية بنتيجة تلفت الأنظار اليها ، ضربت بكل تلك الادوات عرض الحائط ، ولجأت الى أساليب أخـرى لا تمت الى الأولى بصلة ، عساها أن تفلح في بلوغ ما تصبو اليه !

وأكثر مايخدش أحاسيس الفتاة ويخجلها ، هو أن تحس بأن رصيدها من الصفات والخصائص التى تلفت الأنظار رصيد محدود ، سواء أكان ذلك فى المدرسة أو فى المصنع ، أو فى أثناء العمل الذى فرض عليها أن تزاوله . ولذا فان الملاحظ أن عدد الفاشلات وأنصاف الناجحات يفوق عدد الناجحات اللامعات فى العادة وان كان شعور الصغار بمرارة الفشل أعمق وأشد ايلاما من شعور الكبار ، لأن الميل الى الزهو عند الصغار أقوى منه عند الكبار !

كتبت « أنى » فى مذكراتها السرية هذه العبارة : « لكم أود أن أحرر نفسى من جميع القيود لأفرضها بعد ذلك فرضا ، واجعل الناس يعترفون بوجودى! .. ولكن ما أقصر باعى فى هذا المضمار ! .. اننى لاأعرف كيف انفذ الى افهام الناس ، واحتل مكانى بينهم .. ولكن هذا لايعنى أنى فشلت ، فاننى لم أبلغ بعد السابعة عشرة من عمرى ! »

ان هذه الفتاة تتعذب ، لأنها ترى نفسها فى موضع أدنى من الموضع الذى تطمع فيه ، وتصبو اليه .. وهى تتعذب لأن الآخرين لايريدون أن يقدروها حق قدرها .. فاذا اردنا منعها من الشطط والاسراف ، فان واجبنا يدعونا الى أن نبصرها بقيمتها الحقيقية ، التى تبالغ هى فى تقديرها ، غرورا بنفسها .. وعلينا أن نفتح عينيها على الحقائق مجردة من الزخرف والكذب ، وأن نقنعها بأنه لن يعيبها أن يكون حظها من التفوق والامتياز محدودا ، فكل مخلوق بشرى له هذا النصيب المحدود ، كما أن له حسناته وعيوبه ، وان الانسان مهما يبلغ من نقص فى بعض نواحيه فان له قدرة عجيبة خارقة على التطور والتقدم والنمو !

الأبناء يجسمون عيوب آبائهم !

◆ وفتاتنا المراهقة ، أضحى اليوم فى مقدورها أن تحكم على حقيقة المجتمع والحياة : ان الحياة التى تعودتها فتاتنا وهى طفلة ، حياة زاهية ممتعة ، بريئة . أما الآن ، فقد بدأ اللثام يسفر رويدا رويدا عن حقائق الحياة المجردة عن الزخرف والطلاء ، فاذا بها ترى ما فى الناس من مثالب ورذائل ، وما فى الخلق الانسانى من عورات : فمن ظلم ، الى أحقاد ، الى أنانية وشهوات وخيانة وغطرسة وبخل ..

أما أعنف ما يصدمها فى هذه المرحلة فهو اكتشافها ما فى أبويها من نقائص وعيوب • وهى ترى تلك العيوب مجسمة ، لأن الأبناء يبالغون عادة فى تقدير عيوب آبائهم ، اذ يعتبرونهم مثلا أعلى لكل شىء نبيل !•• فاذا صدموا باكتشاف عيب فيهم ، دفعتهم خيبة الأمل الى التهويل من هذا العيب !

فهذه « ماری کلود » تبدو عليها امارات التعاسة ، وينتابها أحيانا شعور مبهم يجذبها نحو ذلك المجهول الذى يسمونه « الموت »!•• والسبب فى ذلك انها عرفت ـ لسوء حظها ـ أن لوالدها نزوات خارج المنزل ، تكلفه وتكلف أسرته غاليا •• ولاحظت أن والدتها تتعذب من جراء ذلك ، وتتنازعها عوامل متناقضة متضاربة من التسليم بتلك الحال والثورة عليها •• ولذا باتت مارى كلود تتمنى أن ترى اليوم الذى يصلح فيه والدها من حاله •• ولكنها يئست من رؤية حلمها يتحقق ، فاذا باليأس يدفع الى نفسها بشعور عجيب •• انها هى أيضا : آثمة !

وهذه « هيلين » ابنة بالتبنى ، ولكن والديها يخصانها برعاية عظيمة ويبالغان فى العطف عليها •• ومع ذلك فهى توسوس الى نفسها بهذه الهواجس : « لماذا لايكون لها ابوان حقيقيان كالآخرين ؟•• وكيف أمكن لابويها الحقيقيين أن يتركاها ؟ » •• ومن الطبيعى ان هذه الهواجس تجعلها تشعر بأنها فى مرتبة أدنى من مرتبة زميلاتها وصديقاتها ، وينتج عن ذلك أن ينتابها الشك فى مستقبلها !

وكانت « هنرييت » ماتزال طفلة عندما ظهر فى أفق العالم مايسمونه « السوق السوداء » • فلما كبرت ، وأصبحت فتاة ناضجة ، وجدت نفسها مضطرة الى التحايل لتشترى حاجياتها من السوق السوداء •• ثم هى ترى امامها كيف برع الكبار فى هذا الميدان •• وعليه ، فانه يصبح عسيرا عليها ـ وقد نشأت فى هذا الجو ـ أن تخضع للمبادىء الخلقية القويمة !

تزعزع الايمان عند المراهقات !

◆ لماذا صنع العالم هكذا ؟!

هـذا سؤال تجد جميـع فتياتنا فى البحث عن جواب له ، كما يبحثن عن اجابات لكل الأسئلة التى تشغل أذهان الفلاسفة ـ والقليل من بناتنا من يحيين فى سن المراهقة حياة سلبية ، لايتساءلن فيها عن بعض الأمور الغامضة ـ وفى هذه المرحلة ، تتناول الفتاة بالنقد جميع الآراء التى فى طفولتها • وهذا هو السبب الذى يدفعها الى اجتياز مرحلة أزمة دينية فى هذه السن ، لأنها تقارن التعاليم الدينية التى تلقتها فى البيت بتلك التى تسمعها فى المدرسة أو المصنع ، فتجد نفسها مدفوعة الى الشك فى كل ماكانت تؤمن به حتى اليوم • ومن ثم فعلى الآباء أن يتوقعوا حدوث مناقشات عنيفة تدور بينهم وبين بناتهم حول هذا الموضوع !

وليست كل فتاة تشابه الأخرى فى هذا الصدد • فبينما نرى «جنفييف» وادعة النفس ، ترى فى المسيحية السلام الذى تنشده لروحها القلقلـة ، وتستشف فيها الحب الالهى الذى يدعو جميع الناس الى احضانه ، اذا بالفتاة

« جان » تكتب فى مذكراتها السرية ما يأتى : « ليس للحياة لون .. انها قاتمة .. فعندما ماأقرأ كتابا ممتعا يخيل الى اننى محمولة الى آفاق عريضة مملوءة بالنبل ، وأنسى أثناء قراءته الفراغ الذى يمتد تحتى ، والذى سيجذبنى اليه اذا ما فرغت من القراءة !.. ان العالم مفعم بالشناعات والحــروب والدم والدموع !.. اننى لأتساءل دائما : كيف يستطيع الله النظر الى كل هذه الويلات ؟!.. وكيف يطيق - سبحانه - رؤية الأطفال يموتون بالآلاف فى الهند من الجوع ؟!.. لا ! .. لم أعد قادرة على الايمان بوجود الله ! »

ولكن « رينيه » ترى غير هذا الرأى .. فقد كتبت فى مذكراتها تقول : « من حسن الحظ اننى فى هذا العالم المضطرب قد عثرت على حقيقة لايتطرق الى الشك فيها .. هذه الحقيقة هى : وجود الله !.. ولكنى أعترف بأننى أعرفه معرفة « مشوشة » للغاية وغير واضحة على الاطلاق ، وان الفكرة التى كونتها عنه صبيانية جدا . ولكنى قرأت بعض الكتب والابحاث الدينية لأجعل الحياة تسرى فى ايمانى !.. وقد تمكنت عن طريق هذه الكتب - أو خيل الى انى تمكنت - من الوصول الى نتيجة مرضية : فقد عرفت بأنك ، لكى تجد الله ، يجب أن تبحث عنه فى غيرك من الناس ، وذلك بأن تحب غيرك بنفس القوة التى يحبنا بها الله ! »

ألا ما أجمل أن تتفتح أكمام تلك العقول الفتية عن هذه العبارات الأخاذة ، والأفكار التى مهما شابتها بعض الأخطاء فهى تبشر بمستقبل مشرق ، تهدأ فيه ثائرة نفوس فتياتنا القلقة ، ويعود اليهــن الايمان قويا .. بالله .. وبالحياة !

المراهقات يتعجلن الشباب !

◆ وتتعجل فتاتنا قدوم الشباب والكهولة بصبر نافد لأن كل ما تصبو اليه لايتحقق فى حاضرها مادامت لاتزال بعد صبية . فهى ترغب فى أن تسرع بها السن الخطى ، لأنها ترى فى المستقبل : الزوج ، والأولاد ، والنشاط المهنى الذى يوائم مزاجها وملكاتها !

أما العاملات وفتيات الريف الصغيرات ، فانهن يتخيلن السنين القادمة من حياتهن أقسى من سنى حياتهن الحاضرة . ولهذا تجدهن أكثر من غيرهن بحثا عن الحياة العاطفية ، وجريا وراء الخيالات والأحلام !

وكثيرا ما تسائل نفسك فى دهشة : « ما أعظم التغيير الذى طرأ على ابنتى فى الأربع أو الخمس سنوات الأخيرة ؟! » .. والواقع أن لك عذرا فى دهشتك من عظم التغيير الذى طرأ عليها ، لأنك تعودت أن ترى أمامك فى السنين الماضية طفلة تعيش حياتها يوما فيوما ، فى غير قلق ولا اكتراث ، مطيعة ، واثقة فى كل من حولها ، معجبة بك فى غالب الأحيان ، تحترم آراءك ولا تناقشك فيها . أما الآن ، فأنت أمام ناشئة صغيرة ، عاصية ، تهرب من الحقائق الى الخيالات والأحلام ، وتنظر الى حاضرها فتجده غثا ، فيدفعها ذلك الى التطلع الى المستقبل كالمحمومة ! .. وهى قلقة ، يدفعها القلق الى البحث عن الحب .. كيف لا وهى

تشهد مولد حساسيتها الجنسية كما لو كانت تشهد مسرحية من المسرحيات ؟!

.. بل انك الآن أمام فتاة تريد أن تفرض نفسها على الآخرين ، وقد امتلأت بالمتناقضات .. فبينما تراها متغطرسة ، مغرورة ، معتدة بنفسها ، اذا بك تراها متشككة غير واثقة فى نفسها ، ولا مطمئنة الى آرائها !

ان الصغار جميعا ، ذكورا واناثا ، يجتازون هذه الأزمة التى هى نقطة تحول كبير فى نموهم الروحى . ولكن من السهل أن يصل الآباء الى تفاهم مع أبنائهم وبناتهم متى كبروا ، فان بناتك عندما يكبرن يصبحن أقرب اليك منهن فى عهد الطفولة . ففى استطاعتهن أن يشعرن بنفس شـعورك وكل ما ينتظرنه منك ، هو أن تمنحهن ثقتك

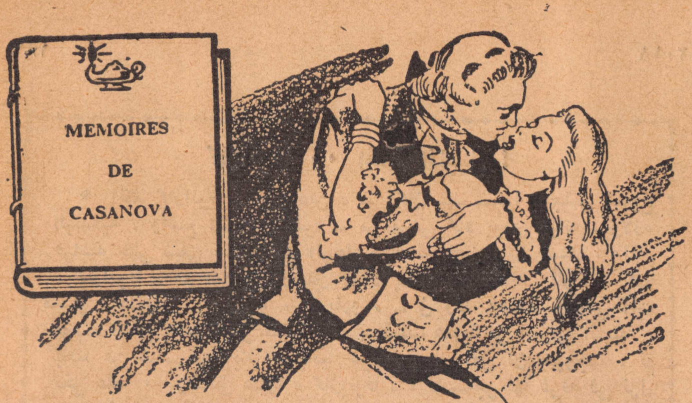
ولا تنسوا - أيها الآباء والأمهات - أن تأثيركم عليهن شديد ، وسلطتكم عليهن واسعة ،وأن قوة شخصيتكم ، وسلامة تفكيركم ، وآرائكم ، هى التى تحدد رد الفعل الذى يقع على فتياتكم

وكثيرا ماتتظاهر الفتيات الصغيرات باحتقار الفتيات الراشدات ! ..الا أن هذا لايمنع أن يكون تأثير الراشدات على الصغيرات شبيها بتأثير السحر فى الوقت نفسه . فان الفتاة المراهقة فى حاجة الى غذاء لحساسيتها ، فاذا وجهتها الى شتى مناحى الفنون ، كالموسيقى والغناء والرسم والنحت مثـلا ، فانك ستساعدها على استنفاد طاقتها المكبوتة من تلك الحساسية .. وعندئذ تعود الى الاتزان . واذا عاونتها على التفكير فى مسلكها بتعقل ، فانك ستعاونها على التحرر من عبودية الغريزة ، والانفعالات التى كثيرا ماتكون سببا فيما تتخذه من قرارات رعناء فى أغلب الأحايين !

ان النشاط والحركة يشفيان من مرض الأحلام . والاختبار العملى يعين على الثبات ، والحكم على قدرة الانسان ، وادراك مدى مايحرزه من تقدم ونجاح . ومن ثم فعلينا أن نحدد لفتياتنا أعمالا معينة يقمن بأدائها فى المنزل ، كما يجب أن نوفر لهن خارج المنزل نشاطا اجتماعيا ، كالاشتراك فى الجمعيات الخيرية التى تعنى بمساعدة الشيوخ والأطفال ، والاشراف عليها

ويستثنى من ذلك طبعا الحالات التى تميل صاحباتها الى الدخول فى مباريات ومسابقات علمية شائكة ، فان العناية بهن فى تلك الحالات يجب أن تقوم على أسس علمية مدروسة

ان الفتيات يجتزن فى سن المراهقة مرحلة حاسمة فى حياتهن ، تتنازعهن فيها عوامل شديدة .. فهن مترددات ، متضجرات ، قلقات ، مشتعلات الأحاسيس ، سريعات الذبول ! .. وان المجهود الذى يبذله الآباء والأمهات، لكى يتمشوا مع عقلية الفتاة فى سن المراهقة ، لاشك أنه يساعدهم على ايجاد العلاج المناسب لهن ، فى اللحظات الدقيقة التى يجتزنها خلال هذه المرحلة الخطيرة من حياتهن . ولكى ينجح الآباء والأمهات فى ارشاد بناتهن ، يتحتم عليهم أن يحتفظوا بصفات الشباب التى من اهمها : الحمية ، والهمة ، والحماسة، والارادة المشبعة بالقوة والثقة .. فبهذه الصفات يستطيعون تأدية رسالتهم نحو أولادهم وبناتهم على السواء .


MEMOIRES
DE
CASANOVA



كازانوفا .. المنقذ النبيل !

◆ انقذ كازانوفا « براجادين » - وكان عضـــوا بمجلس شيوخ البندقية ، واسع الثراء والنفوذ - من مرض كاد يودي بحياته ، ولازم فراشه حتى شفي ، فلم يجد الرجل جزاء له خيرا من ان يتبناه ، وأقام « كازانوفا » مع الشيخ وزميلين له لا يقلان عنه مكانة ونفوذا - هما مسيو « داندولو » ومسيو « باربارو » - في رغد وهناءة . وفي ذات يوم ، التقى بحسناء من مدينة (ك) أقبلت هاربة من أسرتها النبيلة ، بحثا عن شاب من ابناء البندقية غرر بها على أمل ان يتزوجها ، ثم تخلى عنها .. واشفق عليها « كازانوفا » ، فاستأجر لها غرفة في نزل امرأة طيبة ، ريثما يدبر امر عودتها الى أهلها ، بعد أن تبين أن الشاب قد غادر البندقية ..

عابد الجمال .. مخلص له !

◆ نفذت عبارات الثقة التى أبدتها الفتاة الى أعماق قلبى ، وقد كدت أهن للطيش والنزق .. على اننى حين زرتها بعد ظهر اليوم التالى ، الفيتها أمام المرآة تتزين .. وكانت المرة الأولى التى أرى فيها وجهها بأكمله ، ونحرها ، ونصفى ذراعيها اللتين أجادت الطبيعة صوغهما .. ورأيت على منضدة الزينة خـاتما فتناولته وأخذت أتأمله ، واذا بى أشهد فيه أطارا يحوى صورة سيدة تشبهها تمام الشبه ، وان كانت فى زى الرجال . وكأنمـا لاحظت ما دار بخلدى ، فقالت : « تخطىء اذا ظننتها صورتى .. انها صورة شقيقى الضابط فى الحرس البابوى .. أنه يكبرنى بعامين » !

وسألتها أن تسمح لى بأن أضع اصبعها فى الخاتم .. حتى اذا انتهيت ، وجدت من الشهامة أن أطبع قبلة على يدها ، واذا بها تسحبها وقد تضرج وجهها . وخشيت أن تظن بى الظنون ، فرحت أؤكد لها احترامى .. وكأنمـا خشيت بدورها أن تكون قد آذت شعورى ، فجلســت الى القيثارة التى ابتعتها لها ، وأخذت تعزف بعض القطع ، فى دقة وبساطة المتمكنة من فنها .. وأسـكرتنى النغمات ، فتوسلت اليها أن تغنى .. وليس بوسعى أن أصف عذوبة غنائها !.. ثم ألحفت فى أن تسمح لى بأن أقبل يدها ، فكانت القبلة التى طبعتها مزيجا من الحب ، والتقدير ، والاحترام ، والاعجاب !

وغادرتها وقد اشتدت بى تباريح الهوى ، وعزمت على أن أسعى لمـكاشفتها بوجدى .. ولكنى كنت أرجىء عزمى يوما بعد يوم .. الى أن كان ذات صباح زرتها فيه ، فأعربت عن عجبى لأنها لا تعـرف عنى شيئا .. أنا الذى أنقذتها وأخذت أغدق عليها من كرمى ! .. ومن ثم رحت أروى لها كل شىء عن نفسى ..

وما لبث أن تحول الحديث الى « ستيفانى » ـ الحبيب الذى غرر بها ـ وكيف أن أحدا لا يعرف له مكانا ، فى حين أن أباها ولا بد يظنها مختفية معه .. وكانت عند ذكر « ستيفانى » تبدى اشمئزازا بالغا ، وأردفت انها تحب أن تقضى ما بقى لها من عمر فى دير ناء ، حيث لا يعرف أحد فضيحتها المخزية !

السباحة .. فى بحر الهوى !

◆ ولكن القدر كان ينفذ خطة أخرى .. فبينما كنت و « أبى » وزميلاه حول مائدة العشاء فى ذلك المساء ، قال « باربارو » : « لقد جاءنى اليوم أحد رعايا البابا بتوصية خاصة ، كى أساعده بنفوذى فى مسألة دقيقة ، شائكة .. اذ يبدو ان أحد رعايا جمهوريتنا اختطف ابنته وفر بها ، وقد عزم الأب على أن يعرض المسألة على مجلس العشرة .. »

وخفق قلبى ، ولكننى تظاهرت بعدم الاكتراث ، حتى اذا كان الصباح التالى ، بادرت مبكرا الى حسنائى أحمل النبأ ، فتوسلت الى أن أحمل مسيو « باربارو » على أن يتوسط بينها وبين أبيها .. وأعطتنى التعهد الذى كتبه خادعها الوغد ، قاطعا فيه الوعد على نفسه بالزواج منها ، حتى يقوم دليلا لدى أبيها على انها كانت ضحية !

وأخذت أفكر فى الخطة التى انتهجها .. فان تنفيذ رغبة الكونتة الشابة كان يقتضى البوح بأنها تحت رعايتى ..

وفى عصر ذلك اليوم جاء الكونت « ١٠ س٠ » ـ أبوها ـ يصحبه شقيقها ـ الذى كان صورة صحيحة منها ـ واختليا بمسيو « باربارو » ساعة ، حتى اذا انصرفا ، تحايلت حتى استدرجت مسيو « باربارو » ليسألنى أن أكتشف الغيب وأستقرىء ما فيه بصدد هذا الموضوع . وتظاهرت بالاستغراق فى التأمل ثم قلت فى هدوء تام : « من واجبك أن تنصح الأب بأن يغفر لابنته ، وان يتخلى عن كل فكرة ترمى الى اجبارها على الزواج من الشاب الذى خدعها ، لأن الله قضى على هذا بالموت »

وراق الرد للشيوخ الثلاثة . وقال مسيو « براجادين » لمسيو « باربارو » انه يحسن به أن يدعو الكونت وابنه فى اليوم التالى الى الغداء ، ثم يسعى فى روية وحكمة لحمل الأب على الصفح عن ابنته .. واذ وعد الشيخ بذلك ، تعهدت بدورى أن أسأل الأرواح عن مكان الفتاة . ثم أسرعت اليها أطلعها على التطورات .. وأمضيت الأمسية فى صحبتها ، وقد استبد بها الاغتباط لقرب ارتدادها الى أبيها .. وأخذت تعرب عن مدى تقديرها لى ، واعترافها بفضلى ، فقلت :

ـ كونى صريحة وقولى الحق .. انك ما كنت لتترددى فى الارتياب فى شخصى لو اننى وقعت فى هواك ..

ـ بل اننى لا أخشى شيئا سوى أن أفقدك !

وكان صوتها ووميض عينيها يؤكدان صدقها .. ووجدتنى أحتويها بين ذراعى وألصق شفتى بشفتيها .. وأسلمت نفسى للهوى الجارف ، أسبح على أمواج النشوة التى يزخر بها بحره .. وضاعف من نشوتى ان قرأت على

وجه الحبيبة آيات الهناءة ، والحب ، والعاطفة المشبوبة !
واذ انتصف الليل ، استأذنت فى الانصراف ، حرصا على سمعتها ! !

الفتيات فى أمان .. مـــع كازانوفا !!

◆ وتناول الكونت وابنه الغداء معنا فى اليوم التـــالى .. كان الابن آية فى الحسن ، ونبل الخلق ! وكان صورة طبق الأصل من اخته ، وقد سعيت لأكسب صداقته .. واذ رأى الكونت الجو الذى كان يسود القصر ، اطمأن قلبه ، فراح يروى لنا قصته ، وكان من قبل قد قصر ثقته على مسيو « باربارو » .. ومضى يؤكد ان « ستيفانى » لم يلج داره قط ، وانه كان قد عـرف انه أمضى ليلة تحت نافذة مخدع ابنته يناجيها ويغازلها .. وأخذ يتساءل : أى سـحر فى الشاب جعل الفتاة تستجيب له بهده السرعة ؟ ! .. وكان الأعجب من هذا أن الشاب غادر المدينة قبل فرار الفتاة بيومين .. ثم أخذ يردد وجوب قسر الشاب على الزواج من ضحيته !

وهنا قال مسيو « باربارو » : « ليس هناك ما يؤكد ان الفتـاة تعيش مع الشاب الذى غرر بها .. ويخيل الى انه من الخير أن لا تصر على هذا الزواج القسرى الذى قد يقضى على ابنتك بشقاء أبدى ، اذ أن « ستيفانى » من أحقر الشبان الذين يعملون فى حكومتنا ومن أدنأهم قدرا »

وقال مسيو « براجادين » : « لو اننى كنت فى مكانك لتركـت ندم ابنتى وتوبتها يطفئان جذوة غضبى ، ولصفحت عنها »

– وأين هى ؟ .. ما كنت لأتردد فى أن أغفر لها لو أنها جاءتنى تائبة .. ولكن ، كيف أتوقع منها التوبة وهى معه ؟ .. لقد علمت من تحرياتى انهـا جاءت فى قارب صغير لنقل البضائع ، وهبطت على مســافة عشرين ياردة من البوابة الرومانية ، حيث التقى بها شخص يخفى وجهه خلف قناع ، فسـار معها ، ثم .. اختفى كل أثر لها . على أننى لا أملك الا أن أرتاب فى أن ذلك الشخص هو « ستيفانى » ، لأن الأوصاف التى نميت الى تخالف أوصـاف « ستيفانى » .. لقد رأى هذا الشخص أربعة أفراد ، وحصروا شبهاتهم فى أربعة شبان هذه اسماؤهم ، وسوف أتهمهم أمام مجلس العشرة .. »

وقرأ مسيو « باربارو » الأسماء ، فاذا اسمى بينها ! .. وضحك أصدقائى الشيوخ الثلاثة ، وقال مسيو « براجادين » : « ها هو ذا كازانوفا .. ابنى ، وأقسم لك بشرفى أن لو كانت ابنتك فى رعايته فسوف تكون فى أمان ! ! »

واستبدت الحيرة بالكونت وابنه .. واخذ الأب يلحف فى الرجاء والدموع تنساب من عينيه ، ان أرشده الى مقر ابنته . فوعدته بأن أسعى للعثور عليها ، على أن يرجىء شكواه الى مجلس العشرة ..

وأسرعت بعد هذا الاجتماع الى محبوبتى أروى لها باسهاب ما دار . وكانت تبكى فرحا وهى تستعيدنى ما قاله والدها ، فوعدتها بأن أصحـب أخاها الى مقرها فى اليوم التالى . وتناولت عشائى معها ، ثم أمضينا ساعتين فى محراب الهوى . ولولا خشيتى من ان ترتاب صاحبة النزل ، ما فارقتها ! .. وما أن

بلغت بيتى بعد منتصف الليل ، حتى ألفيت أصدقائى الشيوخ الثلاثة فى انتظارى ، وبادرنى مسيو « براجادين » قائلا أن نبوءتى قد صحت ، وان « ستيفانى » مات ـ بالنسبة للدنيا ـ اذ غدا راهبا . فانتهزت فرصة ايمانهم بصحة اتصالى بالأرواح ـ بعد هذا الدليل ! ـ وقلت :

ـ اذن ، فأنا الآن فى حل من أن أصارحك يا أبى العزيز ، بما كانت الأرواح تضطرنى الى تكتمه من قبل ..

ورويت لهم ما كان من أمر لقائى للفتاة ، ولم أكتم الا ما رأيت ان ليس من شأنهم أن يعرفوه .. وقال مسيو « براجادين » :

ـ اذن فلنبق مقرها سرا حتى نستوثق تماما من أن أباها قد غفر لها ، وأنه سيأخذها معه الى مدينة (ك ..)

قلت : « أنه لا يملك سوى أن يغفر لها ، لأنها لم تفر من أهلها الا اعتمادا على وعد بخط الشاب تعهد فيه بأن يتزوجها . وقد واتانى الهام من الأرواح بأن أسعى الى «البوابة الرومانية» ، فى نفس اللحظة التى غادرت فيهاالقارب ، وأن أدعوها لأن تتبعنى ، فسارت معى دون أن تمانع ، وكأنها هى الأخرى كانت تطيع ارادة خفية روحية .. ومن ثم صحبتها الى بيت مأمون ، وتركتها فى رعاية امرأة تقية ..

ونصحتهم بأن يدعوا الكونت فى اليوم بعد التالى للغداء .

رياضة غرامية .. فى الصباح !

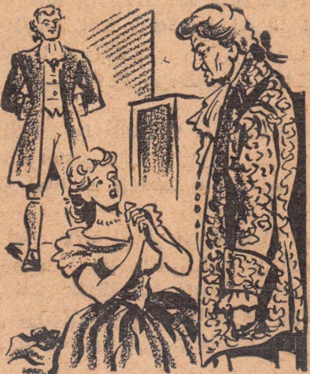
◆ ولم أنم الا ساعات قلائل .. وما أن انبثقت أولى ضياء النهار ، حتى بادرت الى حبيبتى .. وتلقتنى فى فراشها ، وعيناها تفيضان حبورا ، فلم نضيع الوقت ، ورحنا نثبت مدى حبنا ، وهوانا . وبعد رياضتنا الغرامية ، أفضيت اليها بالجديد من الأنباء . وأخيرا ادركنا أن وقت فراقنا لن يلبث أن يحين فى اليوم التالى ، فأشاع هذا أسى فى قلبينا ، رحنا نحاول اغراقه باطلاق عواطفنا تتدفق كالسيل يجرف كل ما أمامه !

على أن الوقت مر سريعا .. وعندما عدت الى دارنا ، وجدت الكونت وابنه فى زيارتنا ، وقد اشتد القلق بالأب فعاد يتعجل الرغبة فى رفع قضيته الى مجلس العشرة . وكان هذا العزم سببا فى أن أفضينا اليه بأن ابنته فى رعايتى .

وفى الصباح المبكر التالى ، أسرعت الى معبودتى ، فغرقنا فى بحر الغرام حتى الظهر ، حين اضطررت الى مغادرتها ، لأن أباها وأخاها كانا مدعوين للغداء على مائدتنا ..

وعرض عليه مسيو « براجادين » الورقة التى كتبها « ستيفانى » للفتاة .. ومضى يشرح له قصتها مبررا فرارها ، فما كان من الرجل الا ان هتف متأثرا : « أواه ! .. أكدوا لها اننى غفرت لها .. ان سعادتى أصبحت تتوقف على رؤيتها »

وأكدت له اننى سأرد له ابنته فى اليوم التالى . ولكى يطمئن ، دعوت ابنه ومسيو « باربارو » الى أن يصحبانى لزيارتها ..



وكان اللقاء بين الشقيقين مؤثرا .. وأخذت الفتاة تعرب لأخيها عن الصنيع الذى أديته لها ، واسمتنى « ملاكها الحارس » .. واذ تأهبنا للانصراف ، راحت تقول انها تتعجل اللحظة التى ترتمى فيها على قدمى أبيها !

وأمضيت سحابة النهار التالى مع الحبيبة ، نغترف أكبر قدر من ملذات الهوى قبل أن يقدر لنا الفراق .. ثم بارحتها فى المساء ، لأعود بأبيها واخيها ومسيو « داندولو » ومسيو « باربارو » وما أن رأت أباها حتى ارتمت على قدميه ، فاندفع الرجل باكيا ، وأنهضها ليحتويها فى أحضانه .. ويغمرها بقبلاته ، ويؤكد لها صفحه !

مبارزة .. فى الليل !

◆ بعد أيام ، ذهبت مع الشيوخ الثلاثة الى « بادوا » لنقضى بضعة أيام .. وكاد الملل يقتلنى ، لولا أن وقعت فى حب غانية تدعى « انسيلا » .. وكان الذى قدمنى لها ، شاب من عشاق اللهو مثلى ، يدعى « الكونت مدينى » .. وكان مقامرا عريقا ، ومن ثم رحنا نقضى ليالينا نحن الثلاثة فى اللعب ، الى أن اكتشفت ذات مساء ، أنهما متآمران على الغش لابتزاز نقودى ، فشهرت مسدسى فى صدر الكونت واجبرتهما على أن يردا كل ما اخذاه منى ..

وبعد ان ردا المال ، أخذت « الكونت » العزة بالاثم ، فدعانى الى المبارزة . وخرجنا نسعى حتى وجدنا بقعة مناسبة ، فرحنا نتبارز تحت ضوء القمر ، حتى اصبت غريمى بجرح فى كتفه ، وأجبرته على أن يسألنى العفو

وأفضيت الى أبى فى الصباح بما جرى ، فنصحنى بأن أغادر (بادوا) فورا ، خشية نفوذ « الكونت مدينى » الذى ظل غريمى بعد ذلك طيلة العمر ومن ثم رحلت الى نابولى

وأمضيت ما تبقى من سنة ١٧٤٦ دون ما مغامرة تستحق الذكر ، اللهم الا اننى وقعت فى هوى فتاة حسناء ، لم يلبث أن فرق بيننا زواجها من راقص فرنسى ، استوطن البندقية من أجلها ..

زواج ٠٠ بدون عقـــد !

◆ وفى يناير سنة ١٧٤٧ ، وجدتنى فى ضيق شديد اضطرنى الى ان أسعى الى بلدة على بضعة أميال من البندقية ، تدعى (تريفيو) ، لأرهن خاتما لدى مراب كنت أثق فيه ٠ ولهذا خرجت فى الصباح الباكر ، وسرت الى نهاية قناة (ريدجيو) ، لأستأجر « جندولا » يقلنى الى (ميسترا) ، فاستقل عربة تحملنى الى (تريفيو)

ومر بى « جندول » صغير ، رأيت فيه فتاة ريفية فى ثياب بديعة مع قس مسن ، فانحنيت لأتأملها ٠ وظن النوتى اننى أريد أن أنضم الى راكبيهاقتصادا فى النفقات ٠ ولم أتردد ، حين أوقف « الجندول » فى أن أهبط اليه ٠ ودفعت له ضعف ما طلب كى لا يسمح لأحد آخر بمشاطرتنا « الجندول » ٠ وأراد القس أن يتنحى عن مجلسه ، ولكننى أبيت فى تأدب ، ليتاح لى أن أجلس امام الفتاة ، التى كانت غاية فى البهاء ٠

واتصل الحديث بينى وبين القس ، فما لبثت الفتـــاة ان اطمأنت الى ٠٠ وسرعان ما عرفت أن أباها مات تاركا اياها فى رعاية عمها القس ، فورثت عنه ثروة لا بأس بها ٠٠ كما أنها توشك أن ترث أمها التى طال بها المرض واقترب أجلهـا !

ورحت فى لباقة أطرى جمال الفتاة ، فاذا بها وعمها يضحكان ٠٠ وسألتهما فى دهشة عن سر الضحك فقالت « كريستينا » ، وهذا اسمها :

– لأن الغزل واطراء حسنى هما كل ما فزت به من رجال (البندقية) ، ولــكننى لم أصادف بينهـم من لديه الجـرأة على أن يثبت صـــدق تأثره بجمالى ، فيقودنى الى الكنيسة ليرتبط بى ويحظى بجمـالى ، له وحده الى نهاية العمر !٠٠ لقد اضطررنا الى أن نغادر (البندقية) – بعد اسبوعين – كما أتيناها ٠٠

وقال العم القس : « ان هذه الفتاة أهـل لخير زوج ، لا سيما وانهـا تملك ثلاثـة آلاف جنيـه ٠٠ ولكنها تصر على أن لا يكون زوجهـا من غير أهـل (البندقية) ٠٠ ولقد أمضينا فى المدينة اسبوعين ، ترددنا خلالهما على عدد من الاسرات ، والتقت الفتاة بكثير من الشبان ، ولكن الذين أعجبت بهم لم يسألوها الزواج ، والذين طلبوا يدها لم يروقوا لها !

واذ بلغنا نهاية الرحلة بالجندول ، قال القس انه سيسير على قدميـه الى بلدته ، بعد أن يجد للفتاة مكانا فى احدى العربات ، اقتصـادا للنفقات ٠٠ فقلت :

– انكما تسديان صنيعا لى ، لو قبلتما دعوتى الى أن تصحبانى فى العربة التى سـأستقلها ٠

ودعانا القس الى القداس فى كنيسة القرية التى هبطنا بها ، وفى طريقنا اليها ، قدمت ذراعى للفتاة قائلا – اذ رأيتها تتردد موجسة : « ان أصول

المجاملة تقتضى أن أقدم لك ذراعى تعتمدين عليها ، خشـية أن يظن الناس أننا نجهل آداب السلوك »

– أو لا تخشى أن يرانا أحد من معارفك ، فيشى بك الى حبيبتك ..

– ليست لى حبيبة .. ولن تكون لى فى المستقبل حبيبة ، لأننى لن ألقى فى (البندقية) حسناء فى جمالك ..

– ليتنى التقيت بك هناك ، فكانت تتاح لنا الفرصة كى يدرس كل منـا صاحبه ، وكى يطمئن عمى الى مركزك ..

– اننى على استعداد لأن أتحمل نفقات عودتكما اليها ..

– أجاد أنت فى قولك ؟ .. اذن ، فقل لعمى ..

– وهل تقبلين شابا مثلى زوجا ؟ .. هل تظنين انك ستحبينني ؟

– أجل .. سأحبك كل الحب اذا ما تزوجتنى !

وتطلعت الى الفتاة مأخوذا .. كانت فاتنة .. وكانت ساذجة !

وتعمدت أن أدعوهما خلال الرحلة الى فندق ريفى صغير ، غير مطروق . وجلست أمام الفتاة ، حين ضمتنا مائدة العشاء ، فأخذت اكتشف مزيدا من آيات فتنتها ، ومن ثم قلت لعمها :

– اننى أنصحك يا أبى بأن تصحب ابنة أخيك ثانيـة الى (البندقية) ، وسأتكفل بنفقاتكما ، كما سأدلك على سيدة تقية ، طيبة ، تستطيع أن تأتمنها على الآنسة « كريستينا » ، فاننى أريد أن تتاح لى فرصة دراسة شخصيتها عسى أن اتخذها زوجة ..

واذ ابدى الرجل رضاءه ، وعدته بأن أكتب له خلال اسبوع



ودعوت صاحب الفندق لأحجزغرفتين ، ولكنه قال انه لا يملك سوى غرفـة واحدة ، فأظهر القس الطيبأنه لايمانع فى أن ننام معا ، فسـوف يشغـل وابنة أخيه سريرا ، ويدعان لى السرير الثانى ..

وسمعت الفتاة فى الظلامتتودد الىعمها وتلاطفه . وما لبث القس الطيـب أن ضحك قائلا : « أتعرف ماذا تحاول ابنة أخى ؟ .. اننى كنت سأعـرج على بلدة أخرى فى طريقنا الى بلدتنا ، وهى تحاول ان تقنعنى بأن أعفيها من عناء السفر ، فأذهب لأداء مهمتى ثم أعود لأصحبها الى بلدتنا ، قائلة أن

بوسعى أن اطمئن عليها فى رعاية سيد نبيل كريم مثلك » !

قلت : « اننى اذ أشكر لكما هذه الثقة ، أعتقد أن ليس لك أن تخشى على فتاة عاقلة حكيمة مثلها »

قال : « الحق انكما أهل للثقة . اذن سأدعها لرعايتك يا سيدى ، وسأعود فى صباح بعد باكر »

وأمضيت نهار اليوم التالى وأنا أحرم نفسى من استغلال أية فرصة ، وأنا فى صحبة زميلتى الحسناء . ولكننى كنت أزداد تدلها ووجدا بها ، دقيقة بعد أخرى . وما أرانى بحاجة الى أن أذكر أننى عوضت نفسى عن هذا الحرمان ، حين انفردنا فى غرفتنا .. وكانت النشوة أقوى من أن نفطن فى غمرتها الى الحدود التى كان ينبغى أن نقف عندها ..

وهتفت « كريستينا » اذ أفقنا من نشوتنا : « ماذا فعلنا ؟ »

- اصبحنا زوجين ! !

- وماذا يقول عمى حين يأتى ؟

- لا داعى لأن يعرف شيئا ، الى أن يبارك زواجنا

ولكنها ما لبثت أن أخلدت الى وجوم رابنى ، فسألتها عما أصابها ، واذ ذاك قالت : « ان ما جرى بيننا خليق بأن يجعلنا نعمل على عقد الزواج بأسرع ما نستطيع . ولكنك تعرف أننا الآن فى أواخر أعياد « الكرنفال » ، وسيعقبها الصوم الكبير ، ومن ثم فلن يتاح لنا أن نتزوج قبل عيد الفصح ..

قلت : « فى وسعنا أن نحصل على اذن خاص .. »

فقبلتنى فى تقدير .. ولا أكتم أننى ، وقد اشبعت وجدى ، بدأت أشعر بالندم على التورط ، وبالرغبة فى البحث عن منفذ . على اننى لم أكن اقوى على أن أسلم تلك الفاتنة الساذجة للشقاء .

واذا عاد عمها ، وعدته بأن أتصل به فى الأيام الأولى للموسم الكبير .. وأسرعت عائدا الى البندقية ، فوجدت أصدقائى الشيوخ الثلاثة أشد ما يكونون شوقا لرؤيتى ، وقلقا على ، اذ لم أكن قد أنبأتهم بأننى سأتغيب عنهم ليلتين .

« كازانوفا » يبحث عن زوج لحبيبته !

◆ وفى اليوم التالى ، خطرت لى فكرة تمكننى من أن أحقق السعادة لكريستينا دون أن أضطر الى الزواج منها . وفى المساء ، جلست الى الشيوخ الثلاثة ، الذين راحوا يسألوننى أن أستشير الأرواح فى بعض المسائل . وفجأة قلت لهم : « بهذه المناسبة ، لقد تعهدت لفتاة طيبة بأن أحصل لها على اذن بابوى لعقد قرانها خلال الصوم الكبير ، فى كنيسة قريتها .. ان عمها يريد أن يزوجها ليطمئن عليها ، وان كان لم يجد لها بعد زوجا .. »

ووعدنى « أبى » بأن يكتب الى روما ليطلب من سفير البندقية أن يسعى للحصول على هذا الاذن . واذ ذاك تظاهرت بأننى أستغرق فى غيبوبة روحية ،

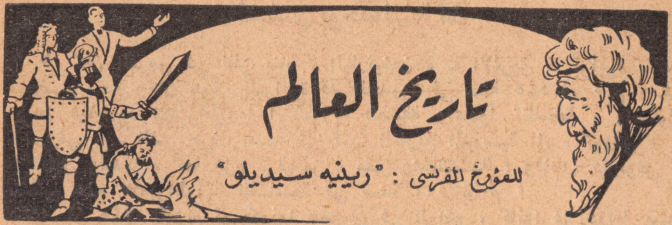
ثم قلت : « ان الأرواح تكلفنا نحن الاربعة أن نبحث لها عن زوج ! »
ووتاني الحظ فى اللعب بألف جنيه بندقى ، فسددت ديونى ، وبدأت الراحة تعاود بالى . وان هى الا عشرة أيام ، حتى وصل الاذن البابوى لكريستينا بأن تعقد قرانها خلال فترة الصوم الكبير . ولم يبق الا تعيين الزوج .
وبادرت أكتب الى القس كى يلقانى فى (تريفيسو) .. ولم أدهش حين وجدت ابنة أخيه معه ، اذ ظنت أنى أعددت العدة لزواجها منى ، حتى أنها تلقتنى بالعناق والقبلات . ولو لم يكن عمها حاضرا ، لانصهرت ارادتى ، وارتضيت أن أكون زوجها ، فقد عاد جمالها يخلب لبى .

العثور على الضحية !

◆ وفى اليوم التالى ، سنحت لنا فرصة خلونا فيها ، بيد أننى وقد عقدت العزم على أن لا أكون زوجها ، استطعت أن أكبح جماح نزواتى .. وغادرتها وعمها فى ذلك اليوم ، على أن أعود اليهما بعد عشرة أيام .
وفى يوم الاحد الثانى فى فترة الصوم الكبير ، عثر مسيو « داندولو » على شاب رشحه لان يكون زوجا لكريستينا .. وكان حسن الخلق ، مليح الوجه ، فى الثانية والعشرين من عمره ، يتيم الوالدين ، وفى حاجة الى زوجة صالحة تعنى به ، وتكون ذات ثروة تمكنه من أن يؤسس مكتبا للمحاماه والتسجيلات القضائية

وعرفنى فى اليوم التالى بالشاب فوجدته صالحا من كل النواحى .. وملت اليه ، فتوثقت بيننا اواصر الود . واذ انبأه مسيو « داندولو » بأن أمر العروس التى ينشدها فى يدى ، ألح فى أن أقدمه اليها ، فسألته أن يفرد يوما لهذه الزيارة . وصحبته فى ذلك اليوم الى قرية القس ، فبلغناها قبل منتصف النهار بساعتين . وما أن استقررنا بدار القس ، حتى أقبلت « كريستينا » فحيتنى فى شوق ، وهى تجهل ما دبرت . على اننى ما لبثت ان تمنيت فرصة خلوت اليها فيها لأوصيها بأن تتحفظ اذا ما اجتمعنا حول مائدة الغداء ، لان زميلى قد يكون الزوج الذى أراده الله لها ..
وفى وسع القارىء أن يتصور مدى الألم الذى كنت أعانيه وأنا أفضى اليها بهذا . ولكن الأدعى للدهشة هو ذلك المسلك الذى واجهت به الموقف ، فقد تلقت النبأ فى سكون ورزانة . وبعد وجوم قصير ، سألتنى : « ان هذا التطور جد غريب . هل أنبأت عمى به ؟ .. ثم ، متى يتم الزواج اذا أنا رقت فى نظر صاحبك ؟ »
ووعدتها بأن أنبىء عمها بما جد ، وان أعمل على أن يكون الزواج خلال عشرة أيام .. فقد أدركت ما كان يقلقها .. كانت تخشى أن تكون علاقتنا ذات ثمرة !

« يتبع »



انهيار امبرطوريتى الاغريق والفرس

◆ كان الشطر الأكبر من تاريخ الاغريق ، تسجيلا لسطو مدن على مدن أخرى . واستقر الصراع أخيرا بين (اثينا) و (اسبرطة) ومع أنهما عقدتا صلحا طويل الأجل ، الا أنهما لم تلبثا أن نقضتاه فى سنة ٤٢١ ق . م . والآن ، تعال نتابع معا رواية التاريخ الرائعة ، كما وضعها المؤرخ والصحفى الفرنسى « رينيه سيديلو » .

حــــروب مستمرة !

◆ وقامت حرب جديدة ، لم يفد منها سوى التجار الذين كانوا يمدون الجيوش بحاجاتها . وأعقبها صلح لم يلبث أن خرق من جديد . فلقد ارادت (اثينا) أن تبسط سلطانها على (صقلية) ، فى حين هبت (اسبرطة) لمعونة (سيراكيوز) ، زاعمة ان من واجبها أن تساعد المدن اليونانية على التحرر من ربقة (اثينا) . وفى سنة ٤٠٤ ق . م . هزمت (اثينا) وقبلت ـ فى معاهدة الصلح ـ أن تجلو عن كل أراضيها الأجنبية ، وأن ترتضى التحالف مع (اسبرطة) بشروط مهينة . على أن هذا لم يغير من جوهر الأمر ، فقد انطلقت (اسبرطة) ـ فى جشع ـ تفرض سلطانها ، وظلت (اثينا) متربصة ترتقب فرصة الانتقام ، حتى سنحت لها بالتعاون مع (طيبة) التى هزمت جيوش (اسبرطة) سنة ٣٧١ ق . م .

وهكذا ظلت الحروب والدسائس والمؤامرات تفت من قوى مدن الاغريق ، فى الوقت الذى كانت فيه القبائل البربرية تراقب الصراع وتتحين الفرص .. وكان أقرب هؤلاء الأعداء هم الفرس ، ورثة آسيا الأشورية ـ من الشرق ـ والعصابات الهندية الأوربية ـ المقدونيون والسلت ـ من الشمال .

التبشير بوحدانيـة الله

◆ كان الفرس فى نظر بناة « البارثينون » ـ الاغريق ـ برابرة ، غير متحضرين ٠٠ وكان هؤلاء البرابرة قد انحدروا فى سنة ٥٤٥ ق ٠ م ٠ من ايران فهاجموا الامبراطورية الأشورية العتيقة واعادوا تنظيمها ، واستولى « سيرس » ـ الذى حرف اسمه فى كتب التاريخ المدرسية الى « كورش » ـ على بابل وليديا ، كما هزم « قمبيز » مصر والحبشـــة ، وقام « داريوس » بتنظيم هذه الامبراطورية الشاسعة فى سنة ٥٠٠ ق٠م ٠

على أن هؤلاء الغزاة لم يكونوا همجيين فى الواقع ، كانوا على دراية ببناء القصور ، وان امتازت قصورهم بالترف أكثر من امتيـازها باناقة المبنى ٠ وكانوا في البداية يعبدون الشمس والقمر والنار والرياح ، حتى ظهر فيهم « زوروستر » ـ سنة ٥٥٠ ق ٠ م ـ فراح يبشر بوحـــدانية الله ، خالق الكون ، واذ لم يكن الفرس قد نضجوا الى الحد الذى يقرون فيه بوحدانية الاله ، فانهم اتخذوا نهجا وسطا بين معتقداتهم القديمة وتعاليم « زوروستر » ، فاقتصروا على « ميثرا » اله النور وحامى الملوك ، و « اورموزد » الاله القوى الجبار ، روح الخير ٠ ثم ابتكروا لهذا غريما جعلوه روح الشر ٠

وامتاز الفرس بالبراعة فى تنظيم الحكم والادارة ، فقسموا امبراطوريتهم الى ولايات ، ووضعوا نظاما ماليا دقيقا استند الى ضريبة عـــلى الأرض ، وسكوا نقودا من ذهب وأخرى من فضة غدت متداولة فى جميع ممتلكاتهم ٠ وامتازوا ـ على عكس الاغريق ـ بالاتحاد ، وبانهم ألفوا جيوشا منظمـــة ٠ وأغرتهم قوتهم على أن ينتهزوا فرصة ضعف اليونان ليغيروا على بلادهم ٠ ولكن الاثنين استماتوا فى قتالهم حتى هزموهم فى موقعـــــة (ماراثون) سنة ٤٩٠ ق ٠ م ٠ ذلك لأن الاثينيين ، وان كانت قواتهم مؤلفة من جماعات متطوعة مدربة تشبه (المليشيا) ، الا أن افرادها كانوا يستخدمون الدروع الحديدية والرماح والسيوف والخوذات ، فى حين كانت جيوش الفـــرس تحارب وأفرادها شبه عراة ، وليسوا مسلحين بغير السهام والمقاليع المصنوعة من السعف المجدول ٠

على أن النصر دفـــع الخطر مؤقتـــا ، اذ لم يلبث « اجزركسيس » بن « داريوس » ان عاد فى سنة ٤٨٠ ق ٠ م ٠ فاقتحم ممر (ثرموبيليه) الذى لم يحسن الاسبرطيون تحصينه ٠٠٠ واستمر خطر الفرس ماثلا ، اذ راحوا يساهمون فى الخلافات المحتدمة بين المدن الاغريقية ٠ وفى سنة ٤١٢ ق٠م٠ حالفوا الاسبرطيين ليوقعوا بالأثينيين الهزيمة ، ثم انقلبوا عليهم فى ســنة ٤٠٤ ق ٠ م ٠ محالفين الطيبيين ٠ وألفوا قوات مرتزقة من الاغـــريق ، واقاموا من أنفسهم وسطاء يحتكم اليهم الاغريق فى منازعاتهم ، فبرهنوا على أنهم دبلوماسيون بارعون !

والواقع أن الفرس لم يبدوا أقوياء الا لأن الاغريق كانوا ضعافا ، ولم تكن لهم فنون فى الحرب كما كانت لقبائل المقدونيين الذين لم يلبثوا أن اندفعوا الى كبد بلاد اليونان ، ثم خرجوا منها ليغزوا العالم !

الاتحاد .. تحت لواء الدخيل !

◆ تقع مقدونيا بجبالها ومراعيها وغاباتها فى شمال بلاد اليونان . وكان الاغريق يعتبرون المقدونيين غرباء عنهم ، بل كانوا يسخرون من حضارتهم التى لم تعرف الديموقراطية ، بل ظلت تحتفظ بالنظام الملكى . على أن هذه الملكية الوراثية قدر لها أن ترفع مجد المقدونيين ، اذ ارتقى العرش فى سنة ٣٥٩ ق . م . ملك طموح ، شغوف بالخمر والنساء والجياد والصيد ، هو « فيليب » ، الذى استغل مناجم جبل (بناجس) ، وسك عملة باسمه مكنته من أن يؤلف جيشا ومن أن يبتاع ضمائر الرجال ، ويشترى تحالف جيرانه الأقوياء . وكان جنوده مجهزين برماح طويلة ، وقد دربوا على أن يحاربوا فى صفوف متحدة ، ويتجنبوا النزال الفردى ، وان يتحركوا فى فرق . وفوق كل هذا ، كانت تشرف على الجيش هيئة اركان حرب ، تراقبه، وتعنى بمواصلاته وبعتاده . وبهذا الجيش أخذ « فيليب » يحرز نصرا أثر نصر ، حتى انتهى ، فى معركة (كيرونيا) ، فى سنة ٣٣٨ قبل الميلاد ، الى أن سحق قوات اثينا وطيبة معا . وفتحت له (كورنثه) أبوابها ، ولأول مرة ، اتحدت بلاد الاغريق ، ولكن .. تحت لواء الغريب !

معجزات « اسكندر » المقدونى !

◆ وتابع ابن فيليب ـ « الاسكندر » ـ عمله ، وكان فى التاسعة عشرة من عمره حين تبوأ العرش فى سنة ٣٣٦ ق . م . ومات فى الثالثة والثلاثين من عمره ، بعد أن قام بأعمال جليلة ، بدت للناس كالمعجزات ، وخلفت ثروة من القصص والأشعار ، اذ قلبت الدنيا رأسا على عقب ، وأعلت شأن اليونان . فقد عبر الدردنيل ، وبعد أن أمن خطوط مواصلاته ـ بأن أكمل اخضاع بلاد اليونان لحكمه ـ وجد آسيا تفتح أبوابها . وكانت العلل قد أوهنت جسد امبراطورية فارس ، فلم يقو جنودها على الصمود فى وجهه . ودانت له آسيا الصغرى فى سنة ٣٣٣ ق . م . وفر « داريوس » تاركا دولته وأسرته للغازى . ومضى الاسكندر فى طريقه ـ فى سنة ٣٣٢ ق . م ـ ففتح سوريا ، ثم مصر . وأنشأ خلال حملاته الاسكندرونة والاسكندرية . وارسل البعثات العلمية لارتياد أعالى النيل ، ثم ارتد فى سنة ٣٣١ ق.م . الى مابين النهرين ، فاستولى على بابل و (سوسه) ، وعبر دجله ، والفرات مطاردا « داريوس » فى فارس ذاتها ، حيث وجده ميتا فى سنة ٣٣٠ ق . م . وسار الى بحر قزوين ، موغلا فى البلاد التى تعرف الآن باسم (تركستان) ، ثم اجتاح ما امامه مندفعا نحو الهند فى سنة ٣٢٦ ق . م .

بيد أن التعب كان قد برح بجيشه ، وأدركته سبعون يوما تدفقت فيها أمطار الصيف دافقة ، فأبى الجيش أن يمضى قدما ، واضطر الاسكندر الى التخلى عن أحلامه ، فعاد فى سنة ٣٢٣ ق . م . الى بابل ، حيث قدر له أن يموت بعد أن عانى من « الملاريا » أسبوعين ..

ومع أن الاسكندر لم يحقق ماكان يصبو له من أن يبسط امبراطوريته

بحيث تشمل العالم بأسره ، الا أنه سحق امبراطوريات قديمة ، وحمل العبقرية الاغريقية الى أطراف الأجزاء التى كانت معروفة فى ذلك الحين ، وكان الاسكندر ذا ذكاء فذ ، ومقدرة هائلة على الحكم ، وقد حرص على أن يصهر الأمم التى فتحها ويشكل منها عالما جديدا

الاسكندرية .. مركز الثقافة والحضارة

◆ على أن امبراطورية الاسكندر كانت أكبر من أن يقوى على حكمها من خلفوه ، فاقتسمها أعوانه ، وكانت اليونان من نصيب « انتيجونوس » وآسيا من نصيب « انتيوخوس » ومصر من نصيب « بطليموس »

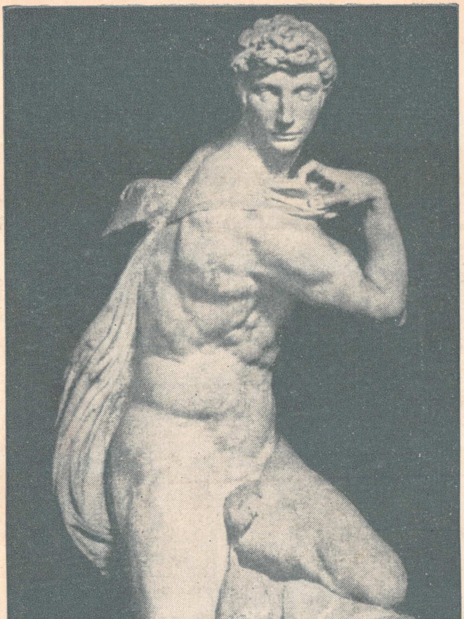
وأخذت بلاد اليونان فى الانهيار ، واشتدت الحروب بين مدنها ، والخلافات بين أحزابها ، ودبت فيها الانقلابات الاجتماعية والسياسية . واشتد فى سنة ٢٧٩ ق . م . خطر قبائل البرابرة ، حتى لقد تقدمت قبائل « الليريا » و « تراسيا » و « السلت » حتى بلغت (دلفى) ، ولكنها ارتدت ثانية نحو الشمال ، واستقرت أخيرا فى رقعة من الأرض محصورة بين (الدانوب) و (بيزنطه) .

وكانت مصر هى التى حفظت التقاليد الاغريقية ، وان صاغتها فى قالب خاص . كان الجو الفكرى اغريقى . ومع أن الشعب ظل مصريا ، يناهض كل لون من ألوان الحياة اليونانية ، الا أن البطالسة أنفسهم ، وجنودهم ، ورجال حكومتهم ، كانوا من الاغريق . وكانت اليونانية هى اللغة الرسمية ، واستطاعت الاسكندرية أن تحتل مكانة (أثينا) الى حد كبير كمركز للثقافة والحضارة . وتركزت عمليات التجارة فى مينائها التى قام عند مدخلها منار ارتفاعه ٣٦٠ قدما ، وعمرت مكتبتها بنحو ٥٠٠ الف كتاب . وقامت فى المدينة نهضة فى البناء والتخطيط ، وقسمت الى خمسة أحياء ، اطلق على كل منها حرف من حروف الهجاء .. وهو نظام تنعكس منه صورة مهتزة باهتة على (نيويورك) اليوم !

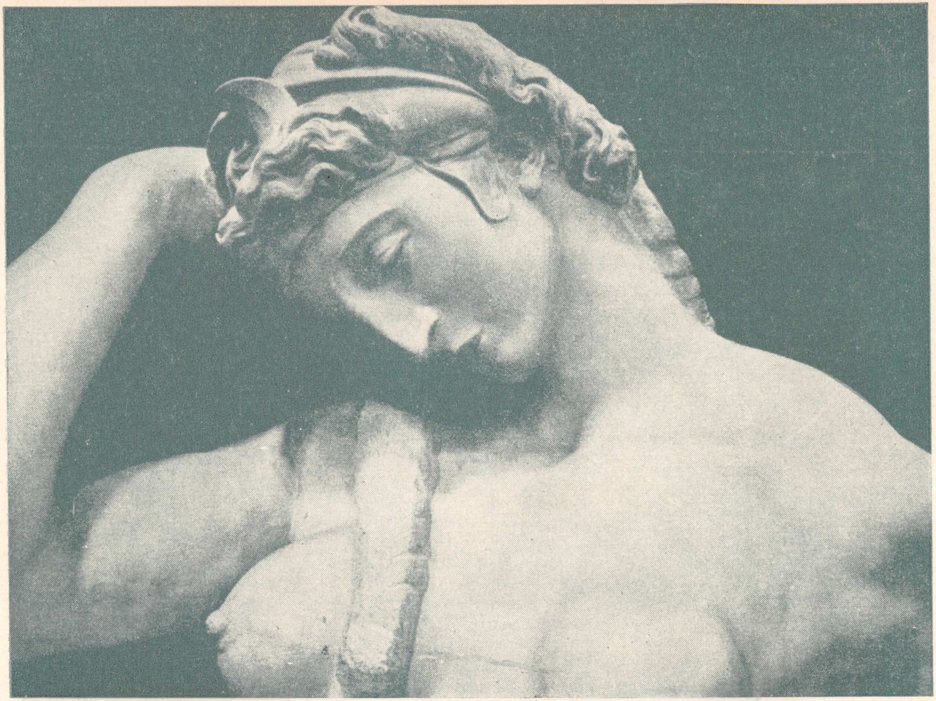
على أن مصر ظلت رغم كل هذا مصرية .. ظلت على ماكانت عليه أيام الفراعنة ، ملكية ، ولكنها فى الوقت ذاته اشتراكية . وقد أبقى البطالسة على هذا الوضع التقليدى ، فقرنوا الملكية المطلقة باشتراكية الدولة . كانت الأرض كلها ملكا لهم ، وكل أنواع الانتاج من حقهم ، فأقاموا مندوبين حكوميين على الزراعة والصناعة والتجارة ، ووضعوا النظم للاحتفاظ باحتياطى للاطعمة . واحتكرت الدولة انتاج الزيت ، والملح ، ودبغ الجلود ، وصناعة ورق البردى ، والغزل والنسيج ، وكذلك أعمال المناجم وسبك المعادن . وهكذا كانت الدولة هى الصانع الأول والتاجر الأول !.. واحتكرت تصدير الزيت والخمور والغلال ، كما احتكرت استيراد وبيع العطور والتوابل والأحجار الكريمة . وفرضت على الواردات الأخرى رسوما جمركية بلغت ٢٥ فى المائة .

« يتبع »

محتويات الكتاب



النصر .. تمثال رائع من نحت ميكيل انجلو ، يرجح النقاد انه يرمز بدوره الى انتصار « داود » على « جوليـــات »



قطاع من تمثال الهة « الليل » ، أحد روائع « ميكيل انجلو » فى فن النحت ، وهو معروض بكنيسة أسرة مديتشى بفلورنسا


مطبوعات كتابي
تقدم لك في
١٣ ديسمبر
(في مجلد واحد) :
النص الكامل لأعظم قصتين كتبتا عن مأساة الملك الذي قتل أباه .. وتزوج أمه .. فلما عرف هذه الحقيقة الرهيبة ، أوقع بنفسه أفظع عقاب يجوز عليه انسان !
١ – أوديب الملك
القصة الخالدة لأديب اليونان القديم « سوفوكليس »
٢ – أوديب
القصة الحديثة التي تعالج الموضوع نفسه ، للأديب الفرنسي الكبير « اندريه جيد »
ترجمها لك : عميد الأدب العربي
الدكتور طه حسين
وتنشرهما لك « مطبوعات كتابي »
تحفة نادرة يجب الا يخلو منها بيت في العالم العربي
مطبوعات كتابي
يصدرها : حلمي مراد
سوفوكليس
اندريه جيد
طه حسين
شركة فن الطباعات ٥/١١٤٩